مقالات

16.2.2022

محمد مستجاب

نبش الغراب في واحة العربي

الجزء الأول – الإنسان



مختارات الكرمة

محمد مستجاب

نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الأول – الإنسان



نبش الغراب
في واحة العربي

الجزء الأول - الإنسان



facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

مستجاب، محمد.

نبش الغراب في واحة العربي - الجزء الأول: الإنسان / محمد مستجاب - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٣٢٨ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776743489

١- المقالات العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣٩٢ / ٢٠٢١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

العين

في الألفباء العربية: العين هي الحرف الثامن عشر، ويُعد أنصع الحروف في الجرس اللغوي وألذها سمعًا. وفي علم وظائف الأعضاء: العين هي جهاز الإبصار في الكائنات الحية، وأجمل عيون في الظباء والمها وصغار الأبقار والفتيات الصحراويات، وأكثرها اتساعًا وحِدَّة عين النسر وعين الثعبان وعين العدل وعين الفن. والعيون قادرة على الإفصاح عما يعجز عنه العقل، وقادرة على أن تفيض بالدموع حزنًا أو تشكِّيًا أو امتنانًا أو مراوغة. وأبو العيون: شيخ صالح تولى شؤون الأزهر، وعندما توفاه الله أقام له أهله في دشلوط (أسيوط) مقامًا أصبح مزارًا للعامة. وعين المحب عن كل عيب كليلة وتبدأ تستعيد لياقتها بعد أن ينتهي الحب، والعين من أهم مدن دولة الإمارات العربية المتحدة، والعين أول معجم عربي وهو الذي ألفه الخليل بن أحمد، والعين نبع الماء يأتي من جوف الأرض، والعين كبير القوم ومنها جاء الجمع المصري لعين القوم بالأعيان، أما عين الحياة فلا أعرف معناها، وعين جالوت موضع بفلسطين هزم

فيها السلطان قطز والقائد بيبرس جحافل التتار والمغول عام ١٢٦٠م.
وعيون الشعر هي القصائد التي أجمع النقاد على تفردها منذ العصر الجاهلي حتى الآن، وعين العفريت مركز العاصفة أو الإعصار، وعين الجمل من أجمل أنواع المكسرات، وعين الذئب تعبير جاء في مسرحية شكسبير «عطيل» ويعني الرؤية حتى مع إغلاق العين تظاهرًا بالنوم. والنداء على العين في اللهجات العربية: «يا عيني» ـ يعني اللوعة والوجل، وهي غير «يا ليل يا عين» التي تعني بداية شكوى المحب من الزمان، ويطلق تجار اللحوم ـ والجزارون ـ «الجوهرة» على العين، وكذلك أطباء العيون أيضًا، لكن أخطر مرض يمكن أن يصيب العيون وصاحبها هو التطفل، وأوسع عيون هي عيون القناطر، وأكثرها ضيقًا عيون شعوب غرب وجنوب آسيا، وعين الموضوع النقطة الأساسية فيه، ويطلق عليها مربط الفرس. والعيون الكواحل من المواضع المحببة في الغناء وتراها في آثار المصريين القدماء، وقد رسمت بتحديدات بالغة الروعة، وترتكز العيون بأطرافها على المدامع وهي التي تستجيب لما يداهم العين من حالات الحزن أو الأذى، وأرق نقطة دمع تلك التي تتعلق على أهداب أنثى في لحظة فراق، والغزلان مشهورة بانسكاب ـ أو انهمار ـ الدمع لحظة حصار الصياد لها، وكان على العين حارس خاص غير منظور يحميها من الأذى، وقد ضاع الحارس الآن تحت وطأة العصر وحوادثه التي لا تقيم وزنًا للعيون.

كلمات لها معنى

الفرص الجميلة تمر علينا دون أن نستوقفها، لأنها تندس داخل ملابس بالية اسمها «العمل الشاق».

*

نزل من سيارته الحديثة،

ثم وقف على المسرح يغني: «يا عم يا جمَّال».

*

الشعب الذي يستطيع الإنصات لأغنية مدتها ساعة ونصف، يمكنه أن يفعل الأعاجيب بسلاح الصبر، إن فعل.

*

هالني هذا التغير الذي أصاب حبيبتي الأولى، مع أنها كانت شديدة الود وهي تقترح أن أستعين بالعكازة في السير.

*

سبحان الله: لا الطيور المغردة من الجوارح، ولا الجوارح من الطيور المغردة.

*

ضاع المثل المصري: «ظل رجل خير من ظل حائط»، فقد أصبح الرجال يهابون الشمس ويجلسون في ظل الحوائط.

*

س: هل تناقش زوجتك في المصروفات اليومية للبيت؟

جـ: لا بالطبع، هي التي تناقشني.

*

محاولة الفهم: فهم كامل.

*

أعمق حالات الامتثال تكون أمام الصراف.

*

أشد الكائنات قبحًا: وجه غاضب.

الأنف

الأنف: عضو حاسة الشم وأعمال التنفس والتجسس، له تأثير كبير في تحديد القيم الجمالية في تضاريس الوجه تفاعلًا مع العيون والخدود والحواجب، وله رونق خاص في الأنثى، وكان أنف كليوباترا الجميل وراء الكارثة التاريخية التي حاقت بثلاثة من أباطرة الرومان. وقد جدع قصير أنفه كي يتخفى متسللًا إلى قصر الزباء ملكة تدمر بصفته عميلًا لعمرو، حيث أنتجت الحكاية مثلين يدرسان في كتب المدارس: لأمر ما جدع قصير أنفه، وبيدي لا بيد عمرو ـ عندما انتهى الأمر بهزيمة الملكة، وأنف القوم سيدهم، ومن ذلك أن الأنف مركز الكبرياء، والشموخ، ولعل أخطر نماذجه في الزعيم جمال عبد الناصر.

أما الأنف الأفطس فهو المتربع على وجه الزنوج والعبيد والخانعين وقالبي الحقائق بأصوات فجة، ولهم نموذجان: واحد قديم لكافور الإخشيدي والثاني معاصر ولا أستطيع تذكره الآن، أما أنف العود فهو قطعة صغيرة من العاج توضع في رقبة العود

حيث مجتمع الأوتار ضبطًا للعزف، وفي المصطلح السائر: رغم أنفه ـ يقولون فلان أصبح عضوًا بمجلس الشعب رغم أنفه، ودون تدقيق على من يقع مصطلح رغم أنفه ـ على العضو أو على مجلس الشعب. والأنفلونزا مرض يصيب الجسد في الإنسان والماعز ويكون مركز تأثيره واضحًا في الأنف، وفي بلادنا تدس الحكومة أنفها في كل شيء، وفي بلاد أخرى تدس أنفها وساقيها حتى السرَّة، وأطول الأنوف في الأحياء قاطبة: عند الفيل والذي من شهرته أصبح عاصمة للسودان: الخرطوم. وكان أنف الملكة تي ذا تأثير على ابنها أمونحتب الرابع، الشهير بأخناتون، وإليه يعزو بعض المؤرخين أنه كان يعشقها، وأنهما كانا الفعل التاريخي وراء الصياغة الأسطورية الأثينية لمأساة الملك أوديب، مع أن أنف نفرتيتي ـ زوجته ـ كان أكثر رونقًا، وإذا كانت متعة الفم في الاستحلاب وشرب المنكر فإن متعة الأنف في شم المنزول والهيروين والكوكايين بغض النظر عن آثار الخراب. ولا يزال كثيرون يشمون دقيق التبغ ـ السعوط أو النشوق، وآخرون ـ كثيرون أيضًا ـ يشمون ويتشممون أي تعديل وزاري، وكأن التعديل الوزاري سيغير شيئًا من الرائحة.

وحك الأنف تعبير مجازي يستخدم لإثارة الغيرة والشجار والمصادمات، وبعض الأحياء لا أنف لها كالسحالي والوزراء وبعض الثعابين وذوي الحصانة ـ برلمانية أو واقعية ـ وبعض المؤرخين وقراميط السمك. وبعضهم يقوده أنفه إلى حتفه كما في الكلاب والجواسيس والفئران، ومن مربط الصحفي الناجح الأنف الحساس القادر على تحديد مواقع الشياط والاحتراق، أما الكاتب الناجح

فلا يشترط فيه حدة الأنف بل اتساع العقل والوجدان، وهو ما يثبته إصابتهم الدائمة بالزكام: سليمان فياض وصبري موسى وعلاء الديب، ونادرًا ما يتمتع كاتب بحدة الأنف واتساع العقل وحساسية البصيرة، طه حسين في الحالة القصوى، ويوسف إدريس ومحمد حسنين هيكل وعمتي فاطمة في الحالة الأدنى.

والأنف الروماني صفة شائعة لنوع من الأنوف الجميلة الموروثة ـ دون سند تاريخي، ويقابله الصدر اليوناني والذراع الأمريكية والدم الأزرق والقامة النيجيرية والمخ الصعيدي، وأنف وثلاث عيون رواية لإحسان عبد القدوس ظل مجلس الأمة في الستينيات مجتمعًا عدة أيام كي يصادرها، فازدادت مبيعاتها أضعافًا، وأنف أبو الهول هو الجزء الذي حطمته قنابل نابليون تاركًا باقي الجسد كي تحطمه وزارة الثقافة بمعرفتها، والأنفاليد قصر فخم في باريس من أبرز الأمثلة للطراز الكلاسيكي للعمارة الفرنسية، به قبة مشهورة وبه مدافن عظماء فرنسا مثل قبر نابليون.

بعد ذلك فإن الأنف الإنساني هو أكثر أعضائه إصابة بالإكزيما ـ الحساسية ـ ولا نختلف كثيرًا على حساسية إدوار الخراط الجديدة، والاسقربوط، والجذام، أو أجدع الأنف ـ أي قطعها ـ فقد كان عقابًا قام به بعض المماليك ضد خصومهم دون تفريط في استعمال الخازوق، وكثير من نساء العربان والبدو والرعاة والغجر والنور والحلب يعلقن في أنوفهن حلقات ذهبية كالخواتم ـ من باب حلي الزينة.

ولا تزال بعض بقايا النساء القديمات في الصعيد يفعلن ذلك،

وفي العادة يكون الطقم الكامل المتماثل: المشرفية على الصدر حول الرقبة والحلق في الأذنين، والحلقة في الأنف، وكله من الذهب الصافي الأحمر أو عيار ١٨، أما الأنف الخلولية ـ أي التي نما صاحبها في الخلاء ـ فلا تزال تحتفظ بقدرتها الفائقة على شم الروائح مهما كانت يسيرة، وقد فقدت أنف المدينة وظيفتها بحكم اضطراب الاستعمال أو عدم الاستعمال أصلًا.

وآخر أمر الأنف أنه من كثرة وتعدد الوظائف التي يقوم بها: الشم والتنفس والتطفل والتكبر والتنغيم والعطس والتورم، أصبح العضو الوحيد في الجسم الذي له جيوب، هي موضع قوته ومكمن ضعفه أيضًا.

الأذن

من حالتها الموسيقية الراقية إلى أذن قطة الملوخية

الأذن جهاز السمع في المخلوقات الحية، وباب الجحيم ـ وأحيانًا الفردوس ـ للإنسان، يمكنها ـ بالطنين أو الإنصات الشديد ـ أن تقودك إلى حيث تجد نهايتك الموفقة، ويُطرِب الأذن جرس الكلمة الحلوة، ولحن المجاملة، ونغمة المغازلة، وما إلى ذلك من فنون الخداع الجميل والكذب اللين الطري، لكنها ـ هذه الأذن ـ تستفيق على الدعاء بالستر، والأوامر والنواهي والزجر، وآهة الاسترحام، وحقوق الزوجات، ومصاريف المدارس، وغُنَّة الوليد، وأذان الفجر، وصوت الديك. والأذن الحساسة الرقيقة عمرها قصير، يدمرها ارتفاع ضغط الدم، وتعليمات وزراء الإعلام، وصراخ الطفل الأول من الزوجة الأولى، وضجيج الموسيقى ذات النشاز الحديث، وانفجار القنابل، والكلام الراضخ مدة طويلة مع من تكره، أو الكلام فيما لا تحب، أو الإنصات إلى ما لا تتمنى. ولذا فإن الأذن تميل ـ أحيانًا ـ إلى أشياء كثيرة يرفضها العقل، لتحدث الوقيعة بينهما، فتسمع الأذن أشياء

لا علاقة لها بما يختمر في العقل، وهو انفصام يتميز به المواطن المعاصر، حالة «سرحان» يهيم فيها العقل متعاليًا عما ينصب في الأذن. لكن الأذن تُجْبر على مراعاة لياقة الإنصات فتضطرب، تتقلص حتى تصبح أذنًا لضفدع، أو تستطيل حتى تمسي أذنًا لحمار، فتدفع بالدموع للعيون أو الضحكات إلى الأفواه دون اهتمام بأن ما يحدث لا يؤدي إلى ذلك، ويمكنك أن تتأكد من الأمر لو أمعنت في وجوه القوم المحاصرين في المسرح، أو الموقع الوضيع للمتعة الرخيصة، أو افتعالًا للاستماع للخطب الرسمية، أو انسحاقًا تحت سطوة حاكم همام، أو انتظارًا لنقود تلقي بها السماء، أو إنصاتًا لحركة شفتي قاضٍ في حالة تأهب لإصدار الحكم.

لكن ـ هذه الأذن ـ تستطيع أن تتحرر من الواقع والذي وقع والمتوقع وقوعه، تقفز فوق العوائق والضواغط وتتسلل إلى الأمنيات العذبة فتجمعها في انسياب موسيقي بالغ الانسجام والامتزاج، وهو ما أدى إلى هبوط نسبة السمع عند أشهر مستمع موسيقى في عصرنا: الدكتور حسين فوزي، وانخفاضها ـ ربما لأسباب أخرى ـ عند أشهر روائي عربي: نجيب محفوظ، وانسحاقها تمامًا عند أشهر مؤلف موسيقي عالمي: «بيتهوفن»، ولا علاقة لذلك بحادث انتزاع الفنان التشكيلي فان جوخ أذنه وإهدائها لواحدة من بنات جزيرة هاييتي.

وإذا كانت أطول أذن نجدها في الحمار، وأعرضها في الفيل، وأجملها في الزرافة والجمل والكلاب والقطط، فإن أضخم أذن على الإطلاق هي جهاز المخابرات الأمريكية (وأكبر عين أيضًا)، وما يتفرع عن ذلك من آذان دولية صغيرة، أو محلية، في الصحافة، والشرطة،

وجماعات الغجر، والفئران، والرجل غير الموفق مع زوجته الجميلة، والوزير ذي المقعد المضطرب، والموظفين آخر الشهر، والجبان غير القادر على المواجهة، والذئاب (الأنف أقوى)، وكلاب الصيد، وباعة الصور غير المهذبة، والطيارين، والعشاق في المرحلة الأولى، والعبيد، والسياسي غير المحنك، والمسجون المتوقع الإفراج عنه.

أما أشهر أذن شعبية فهي أذن القطة: وهي طريقة تُلف بها لقمة الخبز في الملوخية، وأذن الظفر: تلك الجزئية الباقية في ركن الظفر، وتُحدث ألمًا مروعًا عند نزعها، وتطلق على من ينزعون منه أخطر أعوانه، هذا دون أن نغامر بذكر تفاصيل آذان جميلة لنساء جميلات يتألقن بها وضاءة ولو كانت خالية من الحلي.

كلمات لها معنى

ليس هناك أجمل من امرأة جميلة ترتدي غلالة هفهافة وترفع يدًا جميلة رافضة ما يدور في خيالك إزاءها، حتى لو كانت زوجتك.

*

الطيور التي تحط على الحوائط المتجهمة وتقيم في أوكارها المظلمة: لا تغرد، أنا لا أقصد الطيور بالمرة.

*

معظم السكاكين التي يشتريها الناس من أجل المطبخ: ينتهي بها الأمر أحرازًا مختومة بالشمع الأحمر في يد الشرطة.

*

خذ الحكمة من أفواه المجانين، وبعد أن أخذتها لم أعرف ماذا أفعل بها.

*

قصة الحب التي تجري على الورق والمراسلات، نادرًا ما تجد لها أقدامًا تسير بها على الأرض.

*

«نيرون» أحرق روما وجلس ـ كما يُشاع ـ يعزف أو يغني على الجيتار، فماذا عن الذي استطاع أن يحرق وطنًا كاملًا دون أي آلة موسيقية؟

الشَّعر

إكليل الأنوثة، ومصدر القوة في شمشون، ومجال واسع في حركة الاقتصاد

عندما كانت الأنثى تصل إلى ذروة غضبها، أو احتجاجها، أو حزنها: تخلع عن دماغها أي ساتر أو غطاء لينطلق الشعر ـ بفتح الشين ـ في حركة معبرة تتجاوز ما قد تقدمه العيون والكلمات في ذات الموقف. إن الشعر ـ هنا ـ يعني الخروج على المفهوم القائم دون تحديد لمفهوم جديد، السيدات المحتشمات في قريتنا لجأن مرات إلى الشعر مما جعل صورتهن بالغة الثبات في الذاكرة ـ ذاكرتي، وهناك ـ ولمرة نادرة ـ واحدة من قرية مجاورة لقريتنا، اشتهرت بجمالها، وكان لزوجها فروسية وشكيمة، لكنه قُتل علنًا، ولم يتم إثبات الإدانة على المتهمين بقتله فصدر حكم القضاء ببراءتهم، وحاولت الزوجة الجميلة تحريك ـ أو عقد ـ مجلس عرفي لتأخذ بعض حقها ـ أو ثأرها دون جدوى. وكان احتجاجها على الجميع بليغًا ـ وبالغًا، حلقت شعر رأسها وخرجت عارية

الدماغ تجوب شوارع القرى في صمت، ولعل ذلك وراء ما يقال عن ابنة الملك «أوديب» ـ في الأسطورة اليونانية ـ والذي كان ملكًا على طيبة، وكان قد قام بقتل أبيه دون أن يدري (مع إضافة أنه تزوج أمه)، فلما عرف ذلك فقأ عينيه وظل هائمًا على وجهه. ويقال إن «أنتيجون» ـ ابنته الكبرى ـ كانت في رفقته تجره في وهاد البلاد حول طيبة، وقد حلقت شعرها، هناك من يقول إن ذلك حدث للملك المصري القديم الشهير: «أخناتون»، والذي اصطدم به كهنة المعبود «آمون» بعد أن قام بتغيير ثوري ليسقطه فيحل مكانه المعبود «آتون»، فاضطرب «أخناتون» تاركًا عرشه ويظل هائمًا في البراري والصحاري المصرية، وقد فقد بصره، وكانت تقوده واحدة من بناته وقد حلقت شعر رأسها ـ حزنًا أو احتجاجًا صامتًا. وجد خبراء الآثار خصلة شعر بجوار مومياء حليقة الرأس في مقبرة ضيقة على أطراف وادي الملكات بمدينة الأقصر، كان ذلك موضوع كتاب يثير الخيال للبولندي «فليكوفسكي»، معتمدًا على أن عناصر الأسطورة الإغريقية حول «أوديب»: طيبة وأبو الهول وعشق الأم والاهتمام بالشعر وتجميله عناصر مصرية، وأن الاحتجاج أو الحزن بحلق الشعر لا يعني شيئًا في بلاد اليونان القديمة أو الحديثة (هذا الكلام من عندي) والتي لا تعرف أبو الهول بالمرة.

لاحظ أننا وقعنا ـ أثناء الكتابة ـ في كمين شعر الرأس، ورأس الأنثى على وجه خاص، وهو الذي على الخدود يهفهف ويرجع ـ أي يعود ـ فيطير، على جناح هذه الأغنية الجميلة لعبد الحليم حافظ، مع أن دليلة ـ في أسطورة أخرى ـ أودت بالبطل الحبيب شمشون

إلى المهالك بسبب قيامها بحلق شعر رأسه ـ حيث مكمن قوته.
وكما ترى فسوف يظل الشعر رمزًا للأنوثة أو الذكورة ـ المهم طريقة صياغته ليعبر عن المراد، حينئذ نصطدم بما قام به الممثل الأمريكي الشهير «يول برينر»، حينما قام بحلق رأسه حلاقة بطحاء ملساء، ليلغي بذلك العصر الشمشوني البطولي، المؤثر دائمًا، في عصر نجوم الأناقة التي يتوجها تشكيل ـ أو تنميق ـ أو تنظيم الشعر: «جريجوري بيك»، «كلارك جيبل»، «جيمس ماسون»، وهو ما سبق لصناع السينما أن حاولوه ليجعلوا أبطال القوقاز وقادة شعوب الرعاة في العصور السحيقة محلوقي شعر الرأس، التاريخ يقول غير ذلك.

والأنثى الجميلة، والتي تحس بذاتها وقدرتها، تلجأ إلى شعرها مقدمة لإبراز تألق الوجه الجميل في الخدود والعيون، حتى في حالات التحفظ الأنثوي الشديد حينما تغطي رأسها، تترك لخصلات الشعر المختنق بالتقاليد فرصة الإطلال المدسوس فوق الجبهة: فتزداد ـ بذلك ـ جمالًا، وهو ما أدى إلى استيلاء عنصر الشعر ـ في الأنثى أولًا ثم في الرجل بعد ذلك ـ على نسبة من حركة الاقتصاد في العالم كله: التشكيلات وصالونات صياغته والمجلات المختصة به، وما يستلزمه ذلك من زيوت ودهانات وشامبوهات (جمع شامبو ـ ولا أعرف مقابله اللغوي عندنا)، كما أن صباغة الشعر بسبب السن أو الرغبة في التغيير أو إعادة تنسيق لون الشعر لحساب الموقف الراهن ـ عادة معروفة في الجماعات البشرية المختلفة. وظلت الحناء ـ حتى اليوم ـ من أهم مواد معالجة صباغة الشعر منذ قديم الزمان.

ومع كل هذا الجمال حول الشعر الإنساني، فإني أرى ألَّا ننزاح بعيدًا إلى شعر الغوريلا ولبدة رأس الأسد، أو الأمراض التي تصيب فروة الرأس مدمرة للشعر، فإن ذلك يفسد أمورًا كثيرة، كما آمل أن نستبعد ذلك المشهد الخالد، حينما تمتد قوة يد الذكر إلى رقة وانسياب شعر الأنثى - في حالة غضب - كي تجذبها في عنف ليلقيها أرضًا. وهو ما أدى - في حالات التحرر الأنثوي الحديث - إلى أن تلجأ الأنثى لصياغة شعرها بشكل صبياني، يبدو أحيانًا جميلًا ومتناسقًا، نعم: يبدو أحيانًا.

كلمات لها معنى

كل شيء يصبح قابلًا للفهم على أن تظل المرأة خارج دوائره.

*

ستظل العيون أخطر نوافذ اختراق الجمجمة نحو المخ.

*

ليست الأمواج - على وجه التحديد - هي التي تجذبنا نحو الشواطئ، بل التقاء الشمس بنفس الأمواج آخر النهار، ولهذا يكتب المتقاعدون مذكراتهم.

*

دائمًا هناك ما يخرج على السياق المعهود، حتى في الشهور التي تصنع عامًا، بضعة أيام متناثرة خارج النظام.

*

العلماء ـ خلال عملية التفكير العميق ـ يمعنون في الأرض، الأدباء يمعنون في الأفق، رجال الاقتصاد يمعنون في الجيوب.

*

لا أعرف حتى الآن سبب صياغة جمع مذكر الجبل ليصبح مخاطبًا بالمؤنث حتى لو كانت جبالًا عالية.

*

ضوء القمر لا يحب شرفات بيوت المدن.

*

لست أؤيد تحرير المرأة.. التي أعرفها شخصيًّا.

اللسان

اللسان عضو عضلي مكسو بغشاء لزج غير أملس، ينام في قاع الحلق، وفي الأساس كانت مهمته الذوق والتذوق ثم الكلام، لكن أمورًا غامضة حدثت له فأصبح الكلام مهمته الأولى ـ وأحيانًا مهمته الأخيرة ـ وهو الواقف في مدخل الفم تنظيمًا للداخل والخارج من التعليقات والبكائيات والنكت والحكمة والقصائد والسفسطة، وأعلى درجات عمله: الخطابة، قبل الصلاة في ظهر الجمعة، وفي أي وقت آخر في أي يوم آخر، لكنه يزهو ويزدهر ـ هذا العضو اللعوب ـ في الأزمات السياسية والأخلاقية وأيام الانتخابات وعلى الموائد ووسط الولائم، إذ إن للسان قدرات فائقة في عمليات المضغ والبلع والخبص والهجص واللمز (أما الغمز فمن وظائف العيون)، يقولون: ذو لسان يفح، أي يقوم بالدور الذي قام به لسان الثعبان في كارثة طرد آدم وحواء من الجنة، وهو الفحيح الذي أدى مهمة مفزعة في ثورة مايو ١٩٧١ التي بدأ بها الرئيس أنور السادات عهد النور والحرية والرقص، ووصلت أوجها وقمتها في فحيح سبتمبر ١٩٨٠، مرورًا

بقوائم المناهضين لحرية الوطن التي أعدها لسان لجنة النظام محمد عثمان إسماعيل والتي انتهت بتفريغ مصر من قيمتها الأدبية والفكرية على سفوح شوارع العواصم وشواطئ الخليج.

واللسان ـ في الإنسان الصحيح ـ يكون أحمر ورديًّا (ولا علاقة لذلك بالماركسية أو الجنس)، وفي حالات الحمى واضطراب الهضم والبؤس السياسي يكون اللسان ذا طبقة كالحة بيضاء، ويصاب اللسان حينئذ برغبة عارمة في الكلام والغناء واللحس، ثم بعدها يصاب بتشقق أو تقرح أو التهابات تراها واضحة في سذاجة التخاطب وبلاهة الحوار، كما يمكن تلمسها وتحديدها في بنود عقود شركات الاستثمار وتزويج القاصرات المصريات من العواجيز الأثرياء، وفي إعلانات مؤسسات الإسكان وحلوى المص ومواد الاستحلاب.

واللسان أعجوبة العرب ومعجزتها في ديوانها الشعري، وفي معجمها الضخم ـ لسان العرب ـ الذي وضعه ابن منظور، ولسان الدين بن الخطيب مؤرخ وأديب وطبيب عربي أندلسي وضع كتبًا لها شأن، حوكم بتهمة الزندقة وسجن، ثم اغتاله ـ في السجن ـ خصومه كالعادة، واللسان الأعمى هو القائل للحق في غير الوقت المناسب. ولسان القوم خطيبهم الذي كان يحظى بالمرتبة الثانية بعد الشعراء، فلما تكسب الشعراء بشعرهم أصبح لسان القوم ذا مرتبة أولى، فلما ظهرت القصة الحديثة تراجعت الخطابة والشعر إلى مرتبة أقل، فلما ظهر التلفزيون تراجع الجميع تاركين الساحة للسان ذي التقرحات البيضاء.

ويتشابه لسان الإنسان مع لسان الكلب في اللهاث حرارة أو عطشًا، ومع لسان القطة تلفظًا للطعام، ومع لسان الببغاء عند ترديده الشعارات الفارغة وأقوال الرؤساء، ومع لسان الحمار في إصدار أنكر الأصوات، ومع لسان القرد تقشيرًا للفول السوداني وأصابع الموز، ومع لسان الناقة ـ أنثى الجمل ـ اشتهاء، وكذلك مع لسان الأتان ـ أي أنثى الحمار.

وأشهر الألسنة لسان البحر، وأجمل مواقعه في الريفيرا الفرنسية وفي الجزائر وكاليفورنيا، ولسان العجل المتبل بالثوم والبصل مع قليل من الخل أو النبيذ، ولسان الضفدعة بصفته قادرًا على الانطلاق للصيد خارج الفم، ولسان العصفور ـ وهو نوع من المكرونة، ولسان النار في الحرائق والأفران والثورات.

أما أجمل الألسنة على الإطلاق فهو لسان «مارلين مونرو» عندما كانت لها علاقة بالرئيس «كيندي»، ولسان أكثم بن صيفي عندما كان يخطب، ولسان أم كلثوم عندما كان يشدو.

العنق

محط اهتمام القانون وضارب السيف والعيون وقاطف الزهور ومركز الإستراتيجية

عندما نلتقي الأصدقاء ننظر في عيونهم، أما المناوئون والأعداء وذوو الدم الثقيل: فننظر في أعناقهم، وهكذا نشأت هذه العلاقة الأثيرة بين الأهداف والأعناق، والتي بسببها ـ هذه العلاقة ـ نبالغ في تزيين العنق بالحلي والمجوهرات، عنق الأنثى بالذات مضافًا إليها مهراجات الهند وكهنة معابد جنوب آسيا. على الأقل: حتى لا يصطدم نظرنا بنتوءات العنق البارزة، وهي النتوءات التي تشي عن كثير مما مر بصاحبها، وتكشف عن العمر وكثير من الخبرات والتجارب السابقة. فالعنق محط اهتمام القانون والتهديدات (سوف أكسر عنقك) والسيافين وعمال المشانق وتجار المعادن الثمينة والأحجار الكريمة. وتحت أرضية العنق، أي أسفل سمك الجلد مباشرة كمية كبيرة من التوصيلات: عروق وعقد عصبية تنتظمها الأعصاب الممتدة، كلها تحمل خلاصة الغذاء الدموي وإنذارات

الجوع والعطش والرغبات والكوارث والمآزق والمشاعر إلى الدماغ، الذي يقوم فورًا بالاحتفاظ بخالص الغذاء، ويرد الباقي داخل مواسير وأسلاك وأنابيب العنق في حركة مضادة، مشبعة بالعوادم والمواد السامة والاستجابة الملائمة للرسائل السابقة، حيث يظل الدماغ مرتكزًا ـ في كبرياء ـ على العنق، يدير مملكة الجسد، ويخطط للطريقة المناسبة التي تصل بالمملكة كلها للنتيجة المؤكدة: السعادة المؤقتة ثم الفناء.

عنق الأم أجمل الأعناق في الوجود، وأكثرها دفئًا، ويكاد يكون الوحيد المبطن بالصدق والتضحية، أما عنق الأب فقد حد من صدقه آثار خشونة الكفاح اليومي ـ دون تقصير في احتمالات التواء العنق نحو ما لا يجوز. أما أطول الأعناق وأكثرها انسيابًا: للزرافة وعود العزف والجمل والنعامة والطيور المائية والكمان والولد الناجح والقائد المظفر وزعماء الأقليات، وأكثرها انسيابًا وجمالًا أيضًا: عنق كليوباترا ونفرتيتي وراقصات الباليه وقادة الأوركسترا. وأكثرها غلظة ـ مع إضافة تضاريس الحنجرة ـ عند الضباط الجدد والمغنين المجيدين (المغنيات الخبيرات بالذات) وباعة البطاطا، وسادة العشائر والمرتلين في المعابد، والممثل الفرنسي الراحل «إيف مونتان»، والمغني الإيطالي «كروزو»، والمصري عبده الحامولي، واللبناني وديع الصافي والديك الرومي وحواة استخراج الثعابين من مكامنها، وقادة المظاهرات ومرضى نقص اليود.

أما الذين بلا أعناق: الفيل والثعبان ومعظم رؤساء الوزارات

الحاليين ونقاد الأدب ولاعبو الميسر وحمالو الحقائب وصانعو التمائم والأحجبة والرجل الثاني في أي موقع.

لكن بعض المخلوقات تتصف بعنق خاص: كالسلاحف في عدم اتساق العنق مع حجم الجسد، وكالضبع الذي تبرز من أعلى عنقه عظمتان تحولان دون تحريك الرأس إلى الجانبين بمرونة كافية - حتى إنه يحرك جسده كله، وكالشاعر الحديث الذي ضمرت حنجرته ومعها رقبته بعد اندثار عصر الخطابة المفعم بالشعر التقليدي الفخيم، وكالمغنيات المحدثات (عدا وردة) اللاتي تقلصت حناجرهن لعدم الاستعمال، وعند الوشاة والخباصين المضغوطة رؤوسهم احترامًا وامتثالًا لذوي الشأن، وعند لحادي المقابر وحراس المعابد من كثرة الوجل والهرع إلى الخلف خوفًا من الأشباح والمخلوقات الغامضة، وعند ضاربي الودع ومدمني الإمعان طويلًا في الرمل. وعند الذين يحملون حاجيات المهراجا فوق رؤوسهم ويسيرون خلف أفياله في الطقوس الهندية، وعند الزهور حيث يتسم عنقها بجمال رفيع خاص وأخاذ يكاد يلقي بأشعار الفتنة مع إيقاع النسيم، وفي القُلة - القناوية الفخارية - حيث لا يزال عنقها يؤدي المهمة الأصلية للعنق: أن تلتف حوله أصابع العطشان أو المشنقة، وهو ما انسحب بعد ذلك على المصطلح الإستراتيجي: عنق الزجاجة، حيث يمكن التحكم في باقي تكوينات الوطن عند الإمساك المتقن بهذا الحيز الضئيل: العنق، ولكل وطن عنقه الخاص.

ويطلق الجيد - اسحب الجيم جرًّا حتى تصطدم بالدال - على عنق أنثى الإنسان بالتحديد، وليست كل أنثى، فلا جيد للزرافة أو الناقة أو الزوجة أو الأم أو الجدة أو المرأة أو الغراب، لكل ذلك رقبة، تلك

التي تختصر التعريف كله لبعض المخلوقات، لتصبح الرقبة تعني العبد مباشرة، وهو ما جاء في القرآن الكريم: «فَكُّ رَقَبَةٍ»، ومنه جاء تحرير الرقاب، ونحن الرقاب المعاصرون.

كلمات لها معنى

وللحرية الحمراء باب، وما زال البحث جاريًا عن نوافذ.

*

ظل الحساب مقنعًا لارتكازه على الجمع والطرح والقسمة والضرب ثم لم يلبث أن سلمنا قسرًا للجبر.

*

طبيعة مشهد الغروب أن يكون أكثر تأثيرًا في التجاعيد.

*

سيدتي العظيمة التي شاركتني كل مرارة الكفاح، أنتِ التاريخ المبجل، دعيني أحيا قليلًا في الجغرافيا الحية.

*

نوم الظالم عبادة، رجاء استبدالها بنقاد الأدب.

*

لا تاريخ المولد ولا أرباب الطفولة ولا أصحاب الصبا ولا الذكريات ولا ترقيتي مديرًا نجحت في إقناعي بالشيخوخة المبكرة، ابني الأول وهو يتسلم مني ثمن مفروشات زواجه.

*

المواعيد المعلنة لها طابع الذهاب إلى الجنازات، المواعيد السرية ما سوى ذلك.

*

الذي أدان الرقص على السلم له عينان من زجاج وساقان من خشب، أليس أجمل وأوقع من الرقص في المصاعد؟

*

عندما تتنافى القيمة الإنسانية من الأدب، يصبح لزامًا علينا الاحتفاء بكثير مما يرد في الحداثي منه: الشعر والقصة.

*

البؤس كالفقر: لا يتجزأ ولا يُجمع، يهلك فقط.

الجلد

الجلد هو الكساء الحيوي الخارجي للجسد، وموطن نقل الإحساس من الخارج إلى الداخل، وعليه مسؤولية جمالية وأخلاقية تنظم الكثير من علاقات التفاهم والتواجد والتواصل والرفض والاستحسان. وذو الجلد البارد لا يختلف كثيرًا عن ذوي الدم البارد وذوي الإيقاع البطيء وذوي الفهم المتعثر والذين تضمهم صفة إنسانية واحدة: «البلادة»، والجلد الحي موصل جيد للمشاعر، فإذا عولج بالجير الحي وثمار القرظ يصبح الجلد قابلًا لنقل الماء وحفظ اللبن.

وبعض علماء الأحياء يعتبرون الجلد عضوًا كاليد واللسان والبنكرياس، وفي فصيلة الحماريات يتلقى الجلد كل أنواع العقاب باليد (صفعًا) وبالعصا (ضربًا) وبالقدم (ركلًا) وبالسيخ المحمي (كيًّا)، كما يقوم الجلد بإخفاء المشاعر أمام الآباء والرؤساء والأزواج والأطفال، وكلما تهذب الجلد ازدادت درجة شفافيته الحلوة حتى يكاد في بعض الحالات الغامضة أن يعجز عن حجز لون الدم خلفه،

وفي حالات أرقى يمكنك أن ترى العظام، جرب هذا مع يد جميلة مرفوعة في مسار الضوء، على ألا تكون يد زوجتك.

وفي أقوال السلف: «ما حك جلدك مثل ظفرك»، والمعنى واضح رغم سخفه وهبوطه، إذ إن حك الجلد بالظفر عادةً يكشف عن الوسط الذي جاء منه الحكاك. والجلاد كل من يوقع عقابًا على الجلد في الزمن الغابر، أما الجلاد العصري فهو تاجر الجلود في معناه المحدود، وفي المعنى الشامل ينسحب الجلاد على النظم السياسية والمصارف ودور التربية والمسلسلات التلفزيونية.

والفراء هو الجلد الأشعر، ولا قيمة له في الإنسان والحمار والبغل والحصان، وتبدأ قيمة الجلد الأشعر (قبل أن يصبح فراء) في وبر الجمل وصوف الغنم، فإذا أصبح الجلد الأشعر فراءً فهو شيء نادر وثمين مثل جلود أنواع من الثعالب والسنجاب والسمور والمنك (وقد توقف فهمي عند حدود الثعالب والسنجاب دون السمور والمنك)، وكثير من الروايات البوليسية المبكرة ـ أي التي قرأناها مبكرًا ـ كانت تقوم على تهريب الفراء، هذا النوع من الجلود ولو كان ثمينًا، فلم أكن أتصور أن تحدث مخاطر ومؤامرات ومغامرات من أجل هذه الجلود، مع أن الجلود ـ بجميع أنواعها ـ لا تزال هي العملة السائدة في بلاد الإسكيمو وألاسكا، جلود الدببة والذئاب القطبية على وجه الخصوص.

ويمتاز الجلد الإنساني بقدرته الفائقة على أن يكون رمزًا للهوية والفصيلة، بل وإن جلد أطراف الأصابع أصبح أول ما يتم تصويره وحفظه بصفته بصمتك الخاصة التي لا مماثل لها، وهو ما يهم

السلطات وهي تتعقبك، لأنك نادرًا ما تستطيع تشويه أطراف أصابعك (لكنك تستطيع تغيير كل ملامح صورتك بسهولة بطريقة جراحية بسيطة)، ليس فقط بصمة أصابع اليدين أو القدمين، بل وبصمة الشفاه أيضًا (قرأت ذلك من زمن لا أعرف أين).

وكلما كان الجلد متماسكًا أصبح صاحبه صبورًا، أي قادرًا على التحمل، أي شديد الجَلَد ـ بفتح الجيم واللام ـ أو متجلدًا، يمكنك أن تتحمل الأعاصير بصلابة باردة. وذوو الجلد الرقيق هم الشعراء وعازفو البيانو واليتامى والكلاب المدللة، أما ذوو الجلد السميك أو الثخين فهم السياسيون والحلاقون وخدم المطاعم والجاموس وضباط المباحث والقنافذ والأفيال، ولم يتم تصنيف جلود الجواسيس والمرتشين وكُتَّاب القصة حتى الآن.

والتجليد هو فن تغشية الكتب بالجلد، ومنها جاء إضفاء اسم المجلَّد على الكتاب الكبير، أما إذا قلت: هذا الرجل من بني جلدتنا، فأنت تعني أنه من عشيرتكم وقبيلتكم، أما إذا قلت هذا الرجل جلدة فقط، فهي تعني أنه بخيل جدًّا لا يمكن استقطار جيبه، أما الجَلدة الخالصة ـ بفتح الجيم هذه المرة ـ فهو أن تُجلد في دار حاكم أو في قراءة مقال صحفي ساذج.

كلمات لها معنى

لها عينان، عينا الغزال، فماذا عن ساقيها؟

*

إن الفساد استشرى بعد أن نجح الكثيرون
في الزواج من الحبيبة الأولى.

*

لن تسمع أبدًا عن قرحة في القلب،
لأنه يتولى علاج الجراح بنفسه سرًّا.

*

كان وجهها قد ازداد اطمئنانًا ورونقًا، فقرأنا الفاتحة على روحها.

*

كثير من الكُتَّاب فقدوا رشاقة الأسلوب، لأنهم لا يخاطبونك،
بل يخاطبون شخصًا غامضًا يهتم بصياغة الكمبيالات.

*

كان باحثًا أدبيًّا وناقدًا أريبًا، ما ترك نصًّا أدبيًّا يسير أمامه إلا وقاده
إلى بيت صاحبه، وفي آخر مرة قاده النص الأدبي إلى عدة بيوت
متنافرة، ولا يزال كلاهما في الشارع.

*

حتى السماء أصابها التهتك، آخر تفسير لثقب الأوزون.

الصدر

الصدر هو مقدمة الجسد، وبئر النفس، تتلوى داخله سراديب تعج بالرغبات والمُثل والوساوس والجراثيم والورد، والبؤس والأضواء والدخان والعتمة، قد يوجد عقل فارغ لكن الصدر لا يفرغ أبدًا، والصدر الأعظم نوعان: واحد كان رئيسًا لوزراء الباب العالي بالدولة العثمانية، وواحد عند «جين راسل» فاتنة السينما الأمريكية في الخمسينيات، أما أطعم الصدور الحديثة وألذها فهي في الديك الرومي والغزال والحمام والسمَّان والمها والنادر من القصائد العمودية، والأكثر ثقافة يضيف بعض المقدمات الموسيقية لأغاني أم كلثوم. وصدر الدين خان هو الممثل التنفيذي لسكرتير عام الأمم المتحدة، وصدر البيت القاعة الأمامية ـ (بافتراض أن بالبيت قاعة خلفية)، وصدر الصحيفة موضوعها الأصلي المفروش على الصفحة الأولى، وذات الصدر اسم لمرض أصيبت به عدة غادات سينمائيات في أدوار منسوخة من «غادة الكاميليا»، أما ذات الصدور فهي خفايا النفس التي لا يعلمها إلا الله، ويتغطى الصدر بالصديري، تلك القطعة الأنيقة من الملبس

في الرجال، والتي تتألق بالألوان على صدور الإناث، وتتألق بالحديد المضاد للرصاص على صدور ذوي الشأن، وصدر القرآن الكريم سورة الفاتحة، وصدر الأمة الجيش، أما صدر الحكومة فهو الشرطة، وصدر القوم بطلهم، وهو غير رأس القوم الذي هو كبيرهم، وصدر السفينة: أقوى ما فيها، وصدر الطائرة أضعف ما فيها، وصدر الأم حصن الحنان، أما صدر الأب فهو قلعة الأمان، والصادر والوارد لغةٌ في النظام الإداري الشرقي لقطاع عمل يُنقل إليه ذوو الطموح الخامل والذكاء الرتيب. أما في الغرب فالصادر والوارد هو الجهاز العصبي للأداء الإداري الحديث، وهو أول قطاع استفاد من الكمبيوتر، وتأتي المصادرة تعبيرًا عن معانٍ ثورية معاصرة تستولي فيها العقول الفقيرة على القصور الثمينة لتشخبط بالشعارات على جدرانها، وهي غير المصادرة الجنائية التي كثيرًا ما تضيع فيها شحنات المخدرات، وغير المصادرة الكلامية والتي أسبقك فيها للتعبير عما تقصده لأفسد عليك نواياك، وأيضًا غير المصادرة النفسية التي أقطع فيها عليك الطريق لأصيبك بالإحباط والقهر. أما أقسى أنواع المصادرة فهي التي يحل فيها الجسد محل القصور والرياش ـ وفي التاريخ غير المكتوب نماذج تحترق بسببها الصدور والعقول والسيقان، ولنا الصدارة في ذلك، وفي المأثور: أطعمهم حتى أصدرهم، أي أشبعهم لدرجة الخمول، ولذا سُمي اليوم الرابع في عيد الأضحى: يوم الصَّدَر (بفتح الدال) حيث يبلغ الشبع أوجه، وقيل إنه سُمي بذلك لأن الناس يصدرون فيه عن مكة ـ أي ينصرفون إلى بلادهم. أما المصدر فهو أنواع: في اللغة صيغة اسمية مشتقة من الفعل وأشهرها المصدر الميمي

والصناعي، وفي الحياة العامة: المصدر هو الشخص الغامض الذي يُشار إليه في التصريحات التي تبدو مهمة بقولهم: «صرح مصدر مطلع»، و«علق مصدر موثوق به»، و«أشار مصدر سياسي». وفي حالات كثيرة لا يكون المصدر شخصًا غامضًا بل شخصًا معروفًا لا يحب أن يتحمل المسؤولية، وغالبية ما ينسب لهذه المصادر من تصريحات تكون ساذجة لا يعول عليها كثيرًا، ولعل المصدر الرسمي يكون مصدورًا أو بصدره اختناق، أو بصدره لغط، أو بصدره بعض الأدران، والله عليم بذات الصدور.

كلمات لها معنى

من لطف الله على عباده أن الكثيرين لا يجيدون قراءة لغة العيون.

*

لن يقوم مرة أخرى، فقد حرروه من السجن بأن سحبوا جسده عنوة من النافذة الضيقة.

*

طريقة باهرة انتهى بها أجل السيد «ماكسويل» إمبراطور صحافة الغرب: يخت ونساء وثمانون عامًا وقليل من التعفن في ماء البحر، ودون أي مسلسلات تلفزيونية.

*

يتكلمون كثيرًا عن الكتب: العوانس والأدباء.

*

همس لها: «اخرجي من قلبي»، صرخت فيه: «اطلع من نافوخي»، ولذا لجأ للشاكوش.

*

إنه يمد يده بالإجابة قاصدًا أن يمدها بالسؤال، إنه أرعن.

*

كلمته عن نزوات أصدقائه معها، فوقع في هوة الأخلاق الفاضلة، ومات فيها.

*

كان جسدها قد تجاوز المساحة التي حددها فستانها.

*

كانت قادرة على أن تضغط على الرجل حتى يتحول إلى قصيدة مهشمة القوافي.

*

إنها مثل الجريمة، تظل أمتع ما يمكن مشاهدته.

القلب

من الحنان إلى الحجر

مع أن علماء التشريح والنفس نقلوا مراكز الإحساس إلى المخ، واعتبروا القلب جهازًا لضخ الدم له ردود أفعال فقط، إلا إني أعتبر القلب موضع كل إحساس من الحب إلى الغيرة إلى الحقد إلى الرغبة الجارفة التي تؤدي إلى الهلاك، انظر إلى قلب العجل في الطاسة محاطًا بالفلفل الأخضر والسمن البلدي، وأنصت جيدًا إلى طشطشته عندما تداهمه النار، إن قدرًا هائلًا من الأحاسيس يتسامى في رائحته الشهية، ولذا فإن الأطباء ينصحون مرضى الكولسترول والنقرس بعدم أكل القلب تخفيفًا عن باقي مشاعرهم القديمة، وأعظم قلب هو قلب الأم ـ وأحيانًا قلب الجدة والجد، ويأتي قلب الأب في المرتبة الرابعة، ويحتل قلب الزوجة المرتبة الثالثة في الشهور الأولى من الزواج ثم يتراجع في سرعة محسوبة ينظمها القانون الذي اكتشف حديثًا: وزن القلب × طول اللسان × حجم العيون والناتج يقسم على حاصل ضرب طول زمن العشرة × المرتب الشهري، ويميل

مدرسو علم الأحياء إلى التعامل مع قلوب الضفادع بديلًا لعموم القلوب، لأنها أرخص من قلوب القرود. وقلب الأوضاع هو قيام جماعة مسلحة بقلب الأوضاع في سبيل العدل، حيث يظل الكل مقلوبًا: الأوضاع والعدل والجماعة المسلحة، والقلب الكبير هو قلب الجمل ـ يمكنه أن يشبع تسعة من أفراد قبيلتك الجائعة، وقلب فريد الأطرش، وصغار الأطباء في بداية حياتهم المهنية، والمرابين حينما يغسلون مكاسبهم الضخمة بمياه التبرع للفقراء. والقلب واحد من ثلاثة تصاب بالتضخم وهي الاقتصاد والقلب والكبد، فتداهم الثلاثة أمراض تصلب الشرايين والحب المفرط والحقد الأسود، كما أن القلب هو أول أهداف رصاص الاغتيال، وأول ما ينصت إليه طبيب المشنقة فور الإعدام، وأول ما يتلمس العاشق من دقات التجربة الأولى، وأول ما يدخل عناوين القصص والقصائد المبكرة: «دقات قلب» و«قصة قلبين» و«قلب من حرير» ـ مع أن هذا التعبير مجازي رديء ومثله: «قلب من ذهب» ـ ويطلق عادة على رؤساء التحرير دون انتباه لبرودة الحرير والذهب، أما ذوو القلوب التي من حجر فهم سائقو القطارات، وباعة عظام جثث الموتى لطلبة الطب، والسفاحون، والضبع، وبعض الذئاب، وتمورجية (ممرضو) المستشفيات، وحراس أديرة الرهبان، ونظار العزب، ووكلاء الأثرياء، والعقيمون من البشر: إنجابًا أو إنتاجًا أو موهبة، أما ذو القلب الواسع فهو الحليم الذي نادرًا ما يغضب حيث يصبح قلبه كالفندق يكثر رواده ومستعملوه، وكان معن بن زائدة ذا قلب من فئة خمس نجوم، ويليه من فئة أربع نجوم: حاتم الطائي، ثم ثلاث نجوم: زكريا الحجاوي،

أما أصحاب النجمة الواحدة والاثنتين فهم كل القلوب الغلبانة المتناثرة على أرصفة الثقافة المعاصرة.

كلمات لها معنى

كل بهارات العالم لا يمكنها أن تصلح
من شأن طعام تعده نفس غبية.

*

ليس هناك وصف جامع مانع للمرأة،
هناك وصف جامع مانع للرجل: بقرة.

*

إن عذاب الدنيا لا يقل هوانًا عن عقاب الآخرة: حكمة جاءت متأخرة من بغداد.

*

للشر جمع: شرور، أما الخير فسيظل مفردًا، وهذا قدره.

*

ذات أمسية ذكرها بأول لقاء لهما، فانتابتها سعادة طفولية أسقطت طقم الأسنان من فمها.

*

ارتطمت يده بصدرها، فتفجرت حكاية طويلة استغرقت خمسة أطفال وثلاثمائة جنيه نفقة شهرية.

*

والكارثة أن الجميع يعلمون أن النساء تشتعل ذاتيًّا لسوء التخزين.

*

لم يكن بائسًا بالقدر الذي يجعله يستمر، فقد مات دون أن يكمل العام متزوجًا.

*

مخالب حدأة وأنياب ضبع وحركة ثعلب،
ملخص كامل لمذكراته.

*

لا تقلق، فكل الأزواج ينظرون أولًا في عيون زوجاتهم، بعدها تتجمد نظراتهم طويلًا حول رقابهن.

الدَّم

حامل اللوعة والشوق والجراثيم والحمق
والسكر والبولينا

هو هذا السحر الأرجواني الغامض، المنساب في العروق نارًا وعشقًا وهدوءًا وصدقًا ورغبة، وخادمًا أمينًا يحمل لكل أعضاء الجسد القوت والشراب، يتدفق من القلب في نبضات هي منبع بحور الشعر، ومصدر آهة الألم الكبرى، وطاقة السعي والدأب والعناد والاسترخاء والاسترحام والأشواق، ومع ذلك فكثيرون يمكنهم الحياة دون أن يكون لديهم ذرة من الدم: المتطفلون والمتنطعون والغشاشون والجواسيس والخبَّاصون والناكرون للجميل، وهؤلاء يختلفون عن ذوي الدم البارد مثل الحلاقين والضفادع وخدم الحانات وقاذفي القنابل والأسماك وكتبة النصوص الأدبية الرديئة أو المذكرات الشخصية التي تنال من شخصيات نظيفة، وحرَّاس ثلاجات الموتى، وفاقدي الاتجاه الهائمين في محطات السكك الحديدية والمطارات والأمم المتحدة والبرك والمستنقعات

والمتلاعبين فيما لا يصح التلاعب فيه، ويقابلهم ذوو الدم الحار الذين يلتهبون في المواقف حمقًا، أو كرامة، أو جهلًا، أو اختناقًا، ويقعون في منطقة الغرق بين ما يريدون وما يستطيعون، ونماذجهم من الكثرة والخطورة حتى إني أخشى أن أكون منهم مالكًا لدم صعيدي مصري عربي، ثلاث تركيبات مرعبة ومعقدة من الدم الأهوج الحار!

والدم في أجمل حالاته هو إشارة الطبيعة للأنثى منبهًا أنها وصلت إلى المنطقة الحرجة في تكوينها، ثم... وحين تتورد خدودها خفرًا وحياء، وحين ـ فوق كل ذلك ـ يسيل الدم هادرًا مدفئًا مولودها الصارخ خارج إطار سجن التسعة شهور الأولى مضمخًا بكل حنان الدنيا، وكأنه لم يكن وراء كل النار الدموية التي صنعت التاريخ والمواقع والتقدم والمشانق والفلسفة والطب والحروب والأوبئة. ولذا فإن الناس يتعاملون في لغة الدم متناقضين: بينك وبيني دم، أي ثأر لا علاج له إلا بالقتل، وبيني وبينك دم، أي علاقة قرابة وثيقة، في حين أن لغة الدم تعني سقوط لغة الدبلوماسية، وهي لغة عالمية مفهومة ومشروحة دروسها في فلسطين والصومال ودويلات يوغوسلافيا، وغير ذلك من دروس يلعق التاريخ في دمها دون أن يصل أحد إلى مرحلة الاتعاظ.

والدم أول المحرمات شرعًا قبل الميتة ولحم الخنزير، لكنه يظل أشهى ما يتغذى عليه الحقد، وأثمن ما تسبح فيه الجراثيم، وأخطر ما يمكن الطعن به في نقاء أصل صاحبه. ودم الغزال أجمل ما يمكن به وصف كعب فتاة كاعب، والتي تتأود صابغة بالحناء قدميها، ودم

التمساح استخدم فترة لإصلاح أمور العشق بعد عوائق الزواج، وتأكل بعض الجماعات التي تعيش على الفطرة الكبد الدافئة الطازجة بديلًا عن عادة مذمومة ومحرمة كانوا يتوسلون بها للحصول على الشجاعة المبكرة من شرب الدم.

وقد ظلت دورة الدم في الجسم غامضة حتى كشف عنها ابن النفيس المصري (ت ١٢٨٨م)، لكن الغربيين يسقطونه من تاريخ التشريح ليحل مكانه «مايكل سرفتوس» الإسباني الذي مات محترقًا على الخازوق عام ١٥٥٣م حتى لا تنسكب منه قطرة دم واحدة، ويردفون عليه «وليم هارفي» المتوفى عام ١٦٥٧م.

والعدو الأكبر للدم: الكذب والغرام والخداع، يضطرب بسببهما اضطرابًا كبيرًا، ونقص وارتفاع السكر، وازدياد البولينا، والمفاجآت غير المتوقعة في الأموال والإنجاب والخيانة والسكاكين والطعن من الخلف ـ بالكلام أو بالحراب ـ وتفسده السيولة الشديدة أو الكثافة الشديدة، لكنه يعود إلى طبيعته حينما يهدأ على وقع ابتسامة متألقة، أو نص أدبي ساحر، أو منظر غروب الشمس تسعى لآخر خطوط الأفق، أو مستقبلة في الصباح أول خطوط الأمل.

كلمات لها معنى

آه يا عدوي اللدود، أنت لا تملك قصة أو قصيدة أو منصبًا أو زوجة أو بيتًا، فكيف يتسنى لي أن أنازلك؟

*

منذ ساعة واحدة نزل آدم وحواء من الجنة، قضيا ثماني وخمسين دقيقة حتى وصلا إلى عصر الحديد، ودقيقة حتى وصلا إلى القنبلة الذرية في هيروشيما، وقد بدآ الدقيقة الأخيرة منذ نصف ثانية، هذه أحسن طريقة لتقريب تاريخ الإنسان للفهم، هل فهمت شيئًا؟

*

رأيتها في المنام ـ اللهم اجعله خيرًا ـ تجري وتصرخ، أسرعت خلفها لأنقذها، لم أكن أعلم أنها تستغيث باحثة عمن ينقذني.

*

متعة اختزان النقود تعلو عليها لذة تبديد هذه النقود ذاتها.

*

نعم توقفت عن الكتابة إليكِ يا حبيبتي، فقد اكتشفت أن كثرة الشرح تفسد الانشراح.

*

لم أقل هذه لكني استوليت عليها: لا يعوقك عن صعود الجبل ارتفاعه، بل حصاة صغيرة في حذائك.

*

الشجاع يواجه خطرًا واحدًا، أما الجبان فهو أكثر حظًّا لأنه يواجه خطرين: أحدهما خارجه والثاني بداخله.

الذراع

حين تبتهل، وتتوسل، وتصارع، وتستغفر، وتقود الأوركسترا

الذراع هي العضو الذي يتدلى من أعلى الجذع، تعريف مدرسي لا يحتوي شيئًا من قدرات الذراع: الحركة والهجوم والإدارة والإشارة والدفاع والاغتيال والمكر والاستسلام، حتى النصر يمكن أن تنفتح له إصبعان من كف الذراع، فإذا ذرع فلان فلانًا، فهذا يعني أنه طوقه بذراعه حتى قضى عليه. وهكذا كدت أفهم «الذرائعية» على أنها استخدام ذكي للذراعين، مع أنها تعني أن معيار صدق الفكرة أو صواب الرأي هو النتيجة العملية وما يترتب عليها من كونها مفيدة أو ضارة، وهو مذهب البراجماتية النفعي الذي يؤسس قيمة السلوك والمعرفة على الجدوى والهدف، والذي أسسه «وليم جيمس» و«تشارلز ساندر بيرس»، ثم توسع فيه «جيمس» واعتبره منهاجًا تربويًّا حتى ارتبط بَه الأمريكي «جون ديوي». وحركة الذراع تترجم ما يصعب

على الكائن الإفصاح عنه دون ذراع: انظر للإنسان في حالات الابتهال، والتوسل، والرضا، والاستغفار، والتهديد، والاستهانة، وحتى القرد الذي لا تزال ذراعه تؤدي وظيفة المشي مع ساقيه الخلفيتين: يشير إليك محتجًّا ورافضًا، حيث لا يكتفي بالصراخ تعبيرًا عن ذلك، والذراع التي تلتف حول رقبة الجواد في حب ثم تنزلق بعيدًا، تجعل هذا الحيوان شديد التعلق بصاحب الذراع، ويكون التعلق: أكثر سخونة لو كان الذراع لأنثى دافئة، لاحظ أيضًا مشهد ذراع النوتي ـ أي البحار ـ حين يتشبث بذراعه أعلى عمود القلوع حتى يرى آخر ما يمكن الوصول إليه في الأفق.

ومشهد ذراع الراعي الذي يشير لأغنامه لحدود المساحات التي يجب ألا تتخطاها، ومشهد ذراع لاعب التحطيب وهي تصنع دائرة تحمي الرأس والكتفين من عصا الخصم، ومشهد ذراع القائد العسكري وهو يشير ـ في حركة منبسطة ـ إلى الركن الأحمر شديد الخطورة لاحتمالات حركة جيشه، ومشهد ذراع جمال عبد الناصر وهي ترتفع لأعلى، معلنًا هذا النص التاريخي بصوت تاريخي: «تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس». ومشهد ذراع المايسترو وهي تدور حلقة أو نصف دائرة أو ترتفع وتنخفض رأسًا، سريعًا أو بطيئًا، لتتعلق بهذه الذراع عيون العازفين، ليندفع تحت وطأة حركة الذراع أريج الموسيقى. ومشهد ارتكاز ذراع الجمَّال ـ أي صاحب الإبل ـ على مرفقه كي يساعد القاعود الشاب في أولى مهام حمل الأثقال، ومشهد ذراع المتصارع الملتوية حول ذراع متصارع آخر، وهي تعتصر أو تُعتصر، ثم مشهد ذراع الأم المحتضنة تلك الوليدة

المغمورة الرأس تحت ساتر الثدي. وهناك ذراع «أدولف هتلر» القصيرة التي أسست حركة خطوة الإوزة للجيوش ـ ولا سيما حين يهدد وينذر ويسخر، أضف إلى ذلك أذرع المدرسين الشارحين المتجهين للسبورة السوداء وأصحاب القوارب المجدفين، وأذرع فتيات الاستعراضات تومئ للعالم بمرونة الحركة وسحر التضافر، ثم الأذرع المتوالية في تحريك آلات التصوير، والعجن، واللَّت، والتفصيص، والتقشير، والتخمير، والتحمير، والقفز على السطوح وبالأيدي أواني المياه لإطفاء الحرائق، والذراع تفرد أصابعها في عالم الألوان وتعود لتختزل الرؤى سعيًا إلى قماش اللوحة المهيأة للرسم. والذراع تلتف في حنان وقسوة حول الرقبة المستكينة حتى تضبط الحبل تمهيدًا لعملية الشنق، والذراع تشير للواقف أن يجلس، وللصارخ أن يسكت وللمعارض أن يصمت ويخضع، والذراع وهي تحتضن المدفع الرشاش منطلقة به نحو المنصة ليسقط الرئيس في مشهد فريد سيظل ملتصقًا بذاكرة هذه الأجيال طويلًا. والذراع وهي تدق بالقباقيب رأس شجرة الدر، والذراع التي تشير للتلاميذ فتطلق أناشيد طابور الصباح الجميل، والذراع التي تشد الجمجمة وتعدلها نحو الضوء تمهيدًا لتشريحها، والذراع التي تخبط المياه انسيابًا لسبَّاحة فاتنة، والذراع التي ترتكز على حافة المكتب لبنت ذات كتاب جاءت تستفسر بحثًا عن حل أو فهم أو وسيلة للإدراك، ثم الذراع التي تلف بالفرشاة الضخمة واجهة بيوت الحجاج راسمة مراكب وطائرات وآيات قرآنية. إنها الذراع التي اختزلت العالم في قدرتها، لتصبح امتدادًا للعقل وللرغبات وللممكن وللبحث عن الغامض

المستتر والغريب الكامن. ومن الذراع تأتي الذريعة، أي السبب أو الدافع أو المبرر، وعند جمعها تصبح ذرائع. وأخطر أنواع الذرائع ما نلجأ إليه من سلوك غير شرعي كي ندرأ به، وندفع عن أنفسنا خطرًا داهمًا، وباب الذرائع في الشريعة له فقهاؤه ومفسروه، والتوسع فيه محاط بالأشواك. والذراع تعد أول عضو استعمل في إثبات هوية ـ أي بطاقة شخصية ـ لصاحبه، وفي الريف ـ الصعيد المصري وجنوب محافظة البحيرة وبدو الفيوم بالذات ـ كانوا يرسمون بالوشم إشارات الفخر على الصدور، الأسد والسيوف والصقر، وعلى الذراع بعد المعصم مباشرة ـ تجد إشارة دينية: الصليب المسيحي أو المربعات والهلال عند المسلمين، ثم على بطن الساعد اليسرى زخارف من أوراق أشجار تحمل اسم صاحب الذراع وبلدته، فإذا صعدت قليلًا نحو الكتف فسوف تجد شعارًا دينيًّا، الحمد لله والله أكبر وصلى الله على خاتم المرسلين. وكل هذا ليس ثابتًا، فالذين يقومون بالوشم متعددون متناثرون في الأقاليم، وقد رأيت بنفسي جسدًا آدميًّا موشومًا كله حتى القدمين: البطن والظهر والذراعين والساقين بمعلومات عنه وعن بلدته ومنطقته مع إشارة دينية تدعو له بطول العمر. غير أن الوشم بدأ يتراجع تاركًا الأمر لأوراق إثبات الشخصية. وعلماء الأحياء يمعنون كثيرًا في الذراع التي تخفي ـ تاريخيًّا ـ كل تطورات المخلوقات: كانت زعنفة لسمكة، وجناحًا لطائر، وقدمًا أمامية لثعلب، ثم تحورت إلى ذراع تنبش بها «إيزيس» تراب أركان النجوع والكفور والمضارب بحثًا عن أعضاء جسد زوجها «أوزوريس» الموزعة في أنحاء الدنيا.

كلمات لها معنى

لا يمكن لواحد ينصت لهرير القطة أو هديل الحمامة إلا الإحساس بشجن الوجود كله، وجماله أيضًا، الببغاء تعجز عن ذلك.

*

الذين يلحون في السؤال نادرًا ما يحتفظون بالإجابة.

*

الظلم يأتي من الظلام، العدل قيمة في ذاته.

*

انظر ـ من باب المرح ـ لوجه السياسي حين يعلن أنه سوف يتكلم بصراحة.

*

كتب تتوالى عن الحرية وفلسفة الحرية،
وفوقها عنوان: سلاسل فكرية.

*

العشق حالة انطلاق تخشى الاصطدام بأواني المطبخ.

*

يتمنى الواحد لو أنه مارس الارتحال مع أنثى، وما يكاد الأمر يتحقق حتى نؤجل الارتحال.

*

نعم حدث كثيرًا، أن التهم كلب صاحبه، راجع تاريخ الثورات.

اليد ذات الأصابع العبقرية

في العزف والذبح والخطف والرسم الجميل

تعتبر اليد أخطر جهاز تنفيذي في الإنسان وبعض الأحياء الأخرى، وهي بأصابعها تختصر سماته الأساسية من جمال وشراسة ونظافة ونعومة وخفة وذكاء. تحدد المجال الجغرافي الذي يمكن للإنسان أن يعمل فيه، وعندما تصيبها العوائق تبدأ الأجهزة (الإنسانية) الأخرى في إعادة صياغة نفسها. وقد يقضي الإنسان عمره كله تحت وطأة إعادة الصياغة، وستظل اليد العليا تعبيرًا أثيرًا عن النظافة والفضل والأخلاق الكريمة. وأخطر يد تلك التي تفتل أصابعها خيوط المشانق أو تشعل النيران أو تمتد إلى دمعة تمسحها من فوق خدٍّ محزون، لكنها ـ هذه اليد ـ تصل إلى شموخها حينما ترتفع إلى أعلى الأعلى رافعة لواء الوطن، أو متوسلة الطريق إلى اجتزاء المصدر الداخلي للألم، أو متلمسة أوتار الموسيقى، أو معترفة بالإقرار كتابة عن حق لا يعرف طريقه أحد، أو مشيرة إلى ما قد يغيب عن الآخرين من أخطار.

وعبقرية اليد في أصابعها، ولها سحرها في الرسم والنحت والتدوين وكتابة الخط الجميل، وفي النشل من الجيوب، وفي التشبث بالصيد، وفي حياكة الملابس والمؤامرات وخدع السحرة والذبح والسلخ وخلع ذوي المناصب الكبرى. وهي قادرة على إبراز الإعجاب والاستحسان والرفض والقبول والتصفيق، ودرايتها معروفة في حك مصباح علاء الدين لإطلاق العفاريت، والصواريخ، والهيمنة على عجلات قيادة الطائرات، والسيارات، والجماعات والأفراد، وسفن الفضاء، وخيول الأرض، والتقاط الديدان، وحفر القبور، واقتطاف الورد، وبعثرة الأموال، ونقب الحوائط، وتغيير صمامات القلوب، والسطوة على النساء والقوانين، وقطع الحبل السري للولائد. وتصل إلى قمة براعتها في التدليس والتزوير وبناء الشواهد وفقء العيون وإعادة صياغة التاريخ.

وأشهر الأيدي: استعمالًا للسيوف عند خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وفي إطلاق النار عند «أرسين لوبين» (اللص الظريف)، وفي تقليب جيوب الآخرين عند علي الزيبق، وفي فتح مغاليق الغموض عند «شرلوك هولمز»، وفي العزف عند «روبنشتين» شيطان البيانو، وعند الريس متقال في العزف على الربابة، وفي العزف على الكمان عند الإيطالي «فيفالدي» والمصري أحمد الحفناوي، وفي العزف على العود عند الإسباني «رودريجو» والعربي الشهير فريد الأطرش و«جورج ميشيل»، وفي الإمساك بعصا قيادة الأوركسترا عند الأرمني «كرايان».

وقد انقضى العصر الذي كانت اليد فيه ترتاح لتضميخها بالحناء في الليلة السابقة على ليلة الهنا، وأصبحت نظيفة كريمة خاوية كيد حاتم الطائي. وانتهى بها الأمر إلى نوع من المبارزة أو المصارعة أو الملاكمة، حتى ولو كانت منسابة، كأيدي راقصي الباليه، وممثلي البانتوميم (التمثيل الصامت)، أو رؤومًا كالأيدي الممسكة بالطباشير تخط على السبورة السوداء ألف باء للأطفال، أو معقدة كتلك التي تستخرج من الكمبيوتر معلومات وبيانات مجهدة للعقل، أو هذه التي تمارس في عبقرية مستترة: إخراج الصفحات المطبوعة كل ساعة في جميع أنحاء الأرض، وهي التي تسبغ على حياتنا نوعًا من الجمال اليومي المريح. لقد نجحت أحبار وألوان المطابع في احتلال المساحة التي كانت متاحة من اليد للحناء، دون اهتمام بفلسفة ليلة الهنا المأمولة دائمًا.

كلمات لها معنى

كلما اتسعت دائرة المحظورات حول المرأة، أصبح سهلًا على الرجل الانسلال إليها.

*

المشاعر المرهفة: جحيم العصر الحديث.

*

الأكوام التي نستتر بها تخفي عنا جمال الجبال والوديان.

*

كثيرًا ما يختلط الأمر عما إذا كان ناتجًا من تباين وجهات النظر، أو اختلال في النظر ذاته.

*

ينتهي الموضوع الديمقراطي - دائمًا - بأن تقبل ما تقدمه إليك زوجة أبيك، وبنفس راضية.

*

نتقبل الفرص الضائعة بالندم المغموس في الفضائل.

*

كلما ازداد عدد الدجاجات انكشفت عيوب الديك.

*

لا تزال الموائد العامرة ألذ مناسبة لحياكة المؤامرات المرعبة.

*

مسألة لا اختيار لنا فيها: أن نستقبل شروق الشمس معًا، ونواجه غروبها بمفردنا.

*

عندما تغمض المرأة عينيها، فإنها تكون قد وهبتك فرصة الإمساك بأول خيوط المؤامرة.

الأصابع

تعددت الأصابع حتى تجاوزت العشرين في بعض الحالات الإنسانية، وكأنها بهذا التعدد تدافع عن وجودها بالبتر والقطع، وستظل أصابع اليدين محصلة قوى الحضارة بعد أن انفصل أداؤها للعمل عن أصابع القدم، وأصبحت قادرة على أن تتوج صاحبها أو تؤدي به إلى المهالك، وأرقى الأصابع المعاصرة تجدها في يد «روبنشتين» ـ أشهر عازف بيانو، ويد رمزي يسى ومشيرة عيسى وثريا معين أيضًا. وأجمل أصابع مصرية كانت لبنات أخميم صانعات الحرير أقول ـ كانت ـ لأني أزعم أنها في طريقها للزوال، ولا تزال الأصابع الشرقية هي الفنان الأول في عالم السجاد والفرسك والموزايكو والأرابيسك، وهي القادرة على أن تفتل أدق وأقوى حبال المشانق أيضًا، وترسم الأصابع عالم الفن الذاخر بالجمال في لوحات رافائيل وجمال كامل وخطوط حسن فؤاد، وتزهو بإزميل النقاش المصري القديم على جدران المعابد وفي التماثيل، ومايكل أنجلو سواء في النحت أو في رسوماته الناظرة في كنيسة السكستين،

وفي منحوتات محمود مختار وآدم حنين، وفي تصميمات إنشاءات المهندس العالمي حسن فتحي التي يظل معظمها دون استخدام مثل سوق الواحات وقرية القرنة بالأقصر، وستظل الأصابع هي أداة الفن الجميل في الإنسان طوال التاريخ كله.

وأقوى أصابع أمسكت بالسيف: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وبالأعناق كسرًا وتكميمًا: ريا وسكينة، وبخط الكاريكاتير: صاروخان وعبد السميع ورخا ومصطفى حسين، وهناك عفريت الشعر والكاريكاتير: صلاح جاهين، وبالعود: جورج ميشيل وفريد الأطرش ـ وأكتبه على مضض لأني لا أعشقه ـ وتزوير الانتخابات: النبوي إسماعيل وزكي بدر، وفجاجة المانشيتات: رؤساء تحرير الصحف، وإليهم ترجع فجاجة غلظ كتابة أسمائهم فوق وتحت مقالاتهم غير المقروءة.

وأشرف أصابع معاصرة كانت في يد جمال عبد الناصر، وأحمد حسين، ومحمد صلاح الدين ـ آخر وزير خارجية قبل ثورة يوليو، والأصابع القابضة على السلاح دفاعًا عن البلاد.

وأكثر الأصابع مرونة نجدها عند الحواة والسحرة وصرافي البنوك وقادة الفرق الأوركسترالية مثل «كرايان»، والنشالين، وشركات توظيف الأموال، وأصحاب محلات الصاغة، وحلاقي السيدات، وأصابع أمي وهي تنقي الأرز والحلبة والعدس، والبستاني وهو يتحسس بوادر الأزهار، وأصابع القتيل عندما يكتب بالدم اسم وأصابع أرسين لوبين ـ اللص الظريف.

أما أدق الأصابع وأجملها فقد كانت تملكها شادية (منذ

ثلاثين عامًا)، وكاميليا، وهند بنت عتبة أم معاوية، أما أكثرها نفورًا ـ أي عدم تناسق يبعدها عن الجمال ـ فقد كانت في يد بثينة حبيبة جميل، وأصابع طلاع النخل، وأصابع عشماوي راعي المشانق المصرية، وأصابع أعضاء المجالس النيابية إعلانًا للموافقة الدائمة، وأصابع أسمهان ـ وكانت مدببة معروقة من كثرة التدخين، وظلت الملكة نازلي أم الملك فاروق تخفي أصابعها في قفازها بمناسبة وغير مناسبة.

أما أصبع العذراء فهو نبات ينمو في أوروبا وآسيا، ذو لون أرجواني له أوراق سامة يستخرج منها عقار يعالج أمراض القلب، وهو مسكن للآلام ويساعد في إدرار البول، وهو غير أصابع الكفتة ومحشي الكرنب أو العنب، والأصابع الشامية في الحلويات. والأصابع السرية في التحويلات المالية، وفي عمولات صفقات السلاح، كذلك فهي غير الأصابع الشريفة القابضة على القلم تنزف عرقًا ودمًا، والأصابع المشيرة إلى مواطن الخلل والفساد، والأصابع التي تحارب القذائف بالأحجار، والأصابع التي تعزف لحن القلق والخوف والتوجس، والأصابع التي تشير إلى أعلى، راسمة علامة النصر، والأصابع التي تتسلل إلى التاريخ المعاصر فتعبث في مستنداته، وهي أردأ الأصابع على الإطلاق.

البطن

هذا العالم الواسع القادر على اختصار الدنيا كلها في تجويفه

البطن أحد أجزاء الجسم الكبيرة، وفي تجويفه المتسع عدة أجهزة حيوية من معدة إلى أمعاء إلى كبد، ويتمتع البطن بالقدرة على الغباء الفائق، لدرجة أن العقل (الإنساني مثلًا) يقضي معظم عمره ـ أو كل عمره بمعنى أصح ـ في فك اشتباك البطن مع الآخرين، إلا إن الكل يشهد بأن البطن هو المدخل الصحيح للحقيقة المجسمة. فكل ما هو خارج البطن وهم: الأكل والمشروب والمثل العليا والرغبات والطموح، لكن هذا الوهم يبدأ بالتحقق فور وصوله إلى المعدة ـ أولى محطات خطوط قارة البطن، حيث تبدأ الحياة حقيقتها الغامضة الكبرى، سواء من أعلى البطن أو من أسفله ـ أو حتى بالثقوب الطبية. إن البطن هنا قادر على الامتصاص والهضم والفرز ما بين مستحلب غذائي أوهرمون للإنضاج أو طاقة للشعر والقصة والأحلام والإفرازات

والصراعات، أو مهدئ للاسترخاء والإمعان والمصالحة، وفي بعض الحالات يمكن للبطن أن يتحمل تكوينًا آخر ذا بطن جديد- أو بطون جديدة أيضًا، إنه الكرش العظيم.

وأكبر البطون في الأفيال، ومقرئي فتحات المقابر، ومستقبلي النذور، ومراقبي الإنتاج، والحيتان، ونظار العزب، وشهود الزور، وأصحاب مطاعم لحمة الرأس (المسمط)، وقدامى مدربي رجال الشرطة، وخدم المستشفيات، ولا يوجد حد أدنى لصغر البطن، فذوو البطون المتقلصة أو النحيلة عالم آخر واسع من الفراشات، والديدان، والفيروسات، والقانعين والمتحكمين في أهوائهم، والطاعنين في العمر، والممنوعين من تشغيل البطن بأوامر حازمة من الأطباء.

والبطين حجرة صغيرة في القلب، وصفة لمن يستبطن الأسرار ومنزل من منازل القمر، والباطن: ضد الظاهر، والباطن: السريرة بصفتها جوفًا يتضمن ما يجب ألا يعلن. وحفر الباطن: منطقة صحراوية شمال شبه الجزيرة العربية دارت فيها ومنها حرب إجلاء العراق عن الكويت في السنوات الأخيرة. والباطون: لغة عامية مصرية تستخدم مبالغة في وصف ذي النهم والجشع، والباطون: جزء في طاحونة الغلال خلال تحويله إلى دقيق يقع تحت القادوس مباشرة، والباطون: الثور البقري الضخم العاجز عن أداء مهام وظيفته- عامية مصرية أيضًا.

والباطنية: فرقة من الشيعة تعتقد أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، والباطنية: حيٌّ سكني معروف في القاهرة عندنا يتمتع بشهرة واسعة في التعامل بأنواع المخدرات، وله تكوين خاص بشوارعه، وحاراته

الثعبانية تحول دون حركة الغرباء بحرية دون مراقبة، ويخضع هذا الحي للهجمات المتوالية من الشرطة، ومن الاهتمام القوي من دارسي البحوث الاجتماعية، ومن الزيارات المرحة من بعض المشهورين من نجوم السينما والكتابة وضيوفهم.

والبواطن: هي الأسرار وما لا يصح إفشاؤه من أمور، وتسري البواطن حديثًا على ما يدور في دهاليز أصحاب السلطة، وعلى القصائد الحديثة جدًّا من الشعر الحديث المعمى الغامض، وعلى الإشارات والإيماءات والرموز التي يتم تدبيجها في الأحجبة والتمائم، طلبًا للعلاج، أو انتقامًا، أو حلًّا لمعضلة سرية تكتنف أداء المهام الخطيرة في السفر والتباحث والعشق والزواج. والبواطن أيضًا الحركة غير المرئية كقولهم بواطن الغيطان رمزًا للصوص وقطاع الطرق. وبواطن الغيب: ما لا يزال مستترًا دون إعلان في المستقبل، ومنه قولهم: القدر بواطن، ويمكن لنا إطلاق البواطن ـ قياسًا على كل ذلك ـ على كل ما يجري ولا نستطيع إدراكه أو الإمساك به معنى أو معنويًّا، وتجد كثيرًا من شرحه في مذكرات «شوارزكوف» التي كتبها عن قيادته للفيالق التي أجلت العراق عن الكويت. وفي كتاب «لعبة الأمم» لـ«كوبلاند» الأمريكي الذي حلل كثيرًا من الحركات البواطن التي نشطت في الغرب ضد جمال عبد الناصر في الستينيات، وفي كتاب «الطب الشرعي» للطبيب الشرعي الإنجليزي «سيدني سميث» الذي كتبه عن مصر سنة ١٩٢٣، ويحمل قدرًا مذهلًا من وسائل تعطيل السلطات عن الوصول إلى أسباب مقتل الأفراد: سمًّا أَو حرقًا أو غرقًا أو شنقًا.

ويكاد البطن ـ تكوينًا ولغة ومجازًا، ومعاني متولدة منه ـ أن يشمل نشاط الخليقة، ويختصرها في جوفه، ويفرزها في إنزيمات حياته، وفي مظاهر حركته وبواطنها، وقدرة هذه الخليقة على هضم كل شيء في الوجود ابتداء من كتل اللحم إلى تلال الباطل إلى ملايين من هكتارات القمح والذرة والبرسيم وقصب السكر، ما دام لكل كائن على الأرض: بطن وباطن.

كلمات لها معنى

البلاغة: عيون قادرة على التعبير الخاص بما لا تستطيعه باقي أجهزة الجسد حتى لو كان من صميم وظيفة هذه الأجهزة ذاتها.

*

الأنثى لا تصلح أن تكون مفتاحًا لموضوع، لكنها تستطيع أن تحمل المفتاح في يدها.

*

تنبت، وتنمو، وتكبر، وتثمر أو لا تثمر، لقد وصلت إلى أقصى نمو، بعدها يجب أن يبدأ خطها البياني في الهبوط...
الصداقة أيضًا.

*

كل شيء قابل لأن يستمر ثمنه في الغلو، ما دام قادرًا على إشاعة البهجة فينا.

*

هذا الذي انشغل بمعرفة الذكر من الأنثى خلال مهاجمة قطيع الذئاب للنعاج!

*

كل السفن والغواصات تحتاج حتمًا إلى الشواطئ.

الظهر

هذا الذي يبدأ من الخلف ويستدير ليصبح ظهرًا للسفن والحمير والجيوش والمدن

يظل كل ما يبدأ بحرف الظاء عزيزًا في لغتنا العربية، ومعدومًا ـ برغم الجهر به ـ في كثير من اللغات الأخرى. وفي الموسوعة العربية الميسرة لا تحتل كل هذه المادة «الظائية» العربية التي تحتاج إلى تعريف سوى صفحة وربع، فما بالك وقد وقعنا في «الظهر»؟ ولا سيما أن «من له ظهر «لا ينضرب» أبدًا على بطنه» حكمة راسخة طوال أحقاب التاريخ: الظاهر والباطن. ولقدرة الظهر الحي على تحمل الأعباء المختلفة في الحياة ومسؤولياتها ومنقولاتها، أطلق الظهر على كل ما يقوم بذلك من حيوان، ثم تقلصت اللفظة منسحبة إلى الحمير فقط تاركة الخيول والبغال والجمال تسرح وتمرح بظهورها العارية في الهواء الطلق.

وإذا كان للقبيلة بطون من قبائل متفرعة عنها، فبالتأكيد لها ظهور من قبائل أخرى تقع في دائرة مساعدتها وحمايتها. أنا لا أعرف ذلك

إنما هو استنباط فقط، وسترى ذلك في ظهير كرة القدم الذي يقوم بدور رياضي مشابه، أيمن، أيسر، وهو مأخوذ أصلًا من تقسيمات الجيوش ـ العربية بالذات ـ من أيام فرسان «التكتيكات» خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ويعني به القوات الضاربة في أقوى حالات الجيش والتي تكون تالية للمقدمة المهاجمة. تغير ذلك الآن ـ بالتأكيد ـ بعد ثورة علوم الحرب العصرية الجوية والأرضية، ومن عصور الفراعنة سوف تجد من ألقاب القائد «منفتاح» أنه رأس الجيش وظهره. ويعتقد كثير من المؤرخين أن هذا العسكري من أبناء رمسيس الثاني ـ الذي أصبح ملكًا، هو الذي دحر بني إسرائيل وطاردهم إلى البحر، أي أنه كان «فرعون موسى».

والظهور هو البروز بعد الخفاء، أو التخلق بعد العدم، وأشهر ما ظهر على وجه الأرض: طوفان سيدنا نوح، ونار سيدنا إبراهيم أيام اختباره حين كان شابًّا، ثم خروف سيدنا إسماعيل أيام اختبار والده النبي إبراهيم: أي بعد أن أصبح نبيًّا. وأشهر ظهر في نص أدبي هو للشاعر الفرنسي «فيكتور هوجو»: «أحدب نوتردام»، و«ظهرًا لبطن» ـ عنوان نص قصصي محدود الشهرة لصبري موسى، مع أن مادة «ظهر» ذاتها تستطيع أن تتمدد في المعاني إلى عالم أوسع. ظهر الشيء على الحائط: علاه، وظهر على الأمر: اطلع، وظهر على عدوه ـ أو ظهر بعدوه: غلب عدوه «إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ» صدق الله العظيم. وظهر الحاجة: استخف بها ولم يهتم، أو لم يخف إليها، وظهر عنه العار: زال ولم يعلق به، وظهرت الطيور من بلد ما إلى بلد آخر، أي انحدرت منه إليه، وظهر بالشيء: افتخر به، ثم

هناك ظهر فلان فلانًا ظهرًا: تعني ضرب ظهره، مما يسبب له ألمًا باقيًا ومستمرًّا، وقد شاع بين الجاهليين قول بعضهم «أنتِ عليَّ كظهر أمي»، أي أنتِ عليَّ حرام، وكان هذا طلاقًا في الجاهلية وقد نهى عنه الإسلام.

وأشهر حوادث التاريخ كله: ظهور الإسلام، وأجمل ما يمكن للعين أن ترى: ظهور البدر القمري، وأجمل لحظات العمر: ظهور سفينة الإنقاذ، وأكثر اللحظات الإنسانية شجنًا: ظهور الشعر الأبيض. وأكثرها تألقًا: ظهور المحبوب قادمًا من بعيد في أول لقاء، وأكثرها دفئًا: ظهيرة صحو الشتاء، وكانت ظهيرة يوم الاثنين تمثل لنا ابتهاجًا دافقًا أيام أن كنا صبيانًا: إنه الموعد الأسبوعي للطبيخ، ويُقال: أظهر فلانًا على السر أي أطلعه عليه، وأظهر فلان القرآن الكريم: قرأه على ظهر لسانه محفوظًا دون صفحات، ومظاهرة الشيء: جعله وراء ظهره، وهذا يقودنا إلى المظاهرات التي كان أشهرها في مصر أيام النقراشي باشا أواخر الأربعينيات عندما تم فتح كوبري الجيزة على التجمعات الهاتفة بسقوط الوزارة. وفي عام ١٩٧٧ ـ كانت مظاهرات ١٨ و١٩ يناير واشتهرت بمظاهرات الحرامية ـ على رأي الرئيس أنور السادات ـ أو مظاهرات الخبز على رأي مثقفي عصر الرئيس السادات. وكل هذا لا يساوي ما حدث من مظاهرات ثورة ١٩١٩ العتيدة التي شملت كل طبقات الشعب، والفعل «ظاهر» يعني المطابقة بين شيئين «ثوبين مثلًا» ليختار أحدهما، أما التظهير فهو عملية عصرية يوقع فيها أحد الأطراف على ظهر الكمبيالة «الصك» أو أي أوراق مالية ليتحمل مسؤولية صرفها أو تحويلها

إلى شخص آخر، في حين أن الاستظهار يعود بنا إلى الحفظ عن ظهر قلب. والظاهر اسم معروف من أسماء الله جل وعلا، والظاهر بيبرس حاكم مصري هو بيبرس البندقداري من أقدر سلاطين المماليك في مصر، والذي انتصر على الصليبيين في المنصورة ونجح في أسر ملك الفرنجة «لويس التاسع»، ثم عين جالوت، وله سيرة شعبية في مصر توازي سيرة أبي زيد الهلالي. له مسجد شهير بالقاهرة، وحي كامل وسطها هو حي «الظاهر»، وقد دفن الظاهر بيبرس في الحي الذي يحمل اسمه الظاهرية ـ بدمشق، أما «ظاهر الرواية» فهي كتب في الفقه الحنفي وصل عددها إلى ستة، وظاهر العمر: حاكم على دمشق قاتله سليمان باشا العظم، والظاهرة تفشي أمر بين عموم البشر.

كلمات لها معنى

إنها موهبة مضادة ومعاكسة: يشرح الحقائق المعروفة والراسخة، فلا يصدقه أحد.

*

والدليل على أن الدنيا كروية،
لا بد لها من مصاريع تتحكم في نسيمها.

*

الحقائق كاللبن الزبادي: لها معنى يتغير، كلما تغيرت الأعمار.

*

الجميل في الأدب الحداثي أنهم ينسون كيف يبدأون، لكنهم لا يلبثون أن يتذكروا أنهم لا بد أن ينتهوا.

*

كثير من النقود التي في البيت أو البنوك تفقد سحرها فور أن تفقد وظيفتها: الصرف.

*

الجنوح: حالة قدرية تصيب السفن، والرجال، وكثيرًا من القضايا الجنائية، والصبيان.

*

كلما استجابت العناصر للتشكيل الجمالي، أصبحت ثمينة ونفيسة، واللغة أيضًا.

*

الحياء: حالة مفاجئة يجد المخ فيها فرصة لأن يغض بصره عما يدور فيه.

القدم

من قدم غراب هابيل، حتى أقدام مارلين وتيمورلنك وعبد الفتاح القصري وتشرشل وعبد الناصر

تقع القدم في نهاية الساق عند فصيلة الثدييات العليا ـ والتي ننتمي إليها نحن، ونهاية القوائم عند الفقاريات ذوات الأربع، وهي مركز الارتكاز والرقص والركل والحركة والتحرك، لكنها تستخدم ـ في كثير من الأحيان ـ في إبراز الكبرياء (وضع الساق على الساق مع هز القدم)، وفي التفكير «مخه في قدمه»، وفي التلامس الحذر للأمور الأنثوية الحرجة، كما أن بعض الأقدام تدر على أصحابها عيشهم: في الرياضيين ومحركي أنوال النسيج ـ من الطراز القديم ـ ودواليب القلل الفخارية، والمتراقصين أمام الأفراح، والضاربين الأرض بأقدامهم اعتزازًا بالقانون والدستور، والمتربصين صمتًا في التواءة مظلمة وبأيديهم السلاح، وفي هذه الحالة بالذات ـ التربص للقتل ـ نجد الوجه جامدًا والأصبع مهيأ لتحريك الزناد في ثبات، أما القدم فتضطرب اضطراب الوتر، إنها تشي عما يعتمل أكثر من بقية أعضاء الجسد.

وأقدم قدم تاريخية هي للغراب الذي نبش الأرض ليحفر حفرة لجثمان هابيل بن آدم كأول درس لنا في الدفن، وقدم سراقة بن مالك التي ساخت في الرمال بعد أن ساخت قدما جواده حينما أسرع مبلغًا قريشًا عن اكتشافه مكان الرسول الكريم خلال هجرته، وقدم «نابليون» التي كانت تزداد اضطرابًا حينما يواجه الأهوال، حتى إن البعض كان يظنه أعرج، وقدم المغني المصري عبد العزيز محمود ـ وكانت من الخشب ـ وقد حاولنا استكشاف أيتهما من قدميه دون جدوى، وقدم الممثلة «مارلين ديتريش» ذات الساق المتألقة والتي فتنت مشاهديها أعوامًا لا بأس بها من القرن العشرين، وهناك أقدام تاريخية أخرى أقل أهمية عند «تيمورلنك» وعشيق الجاسوسة الشهيرة «ماتا هاري»، والمواطن الذي قاد الشرطة إلى مدافن ضحايا ريا وسكينة في الإسكندرية.

وأكثر الأقدام قوة ونحافة تجدها عند قادة الأوركسترا والسقائين والحمير والنشالين والنعام والخطافين وسقاة المطاعم وأبو قردان وحصان الفوارس ـ أي قبل أن يصل إلى مرحلة جر العربات ـ وأكثرها بطئًا وهدوءًا أقدام السفراء والإوز والبغال ومسترقي السمع وجامعي الأخبار وبائعي الكوارع وملاحي السفن حينما يصلون إلى البر. أما أكثر الأقدام مرونة ورهافة ودقة ورقة ونعومة فنجدها عند هواة استخراج الثعابين والعقارب، وراقصات الباليه، ولصوص تسلق الحوائط، وأبطال القفز الثلاثي والرباعي، والخصيان من حرس النساء في الأيام السالفة، والثعالب، وسندريلَّا، وأبو فصادة، ووزير الدولة المختص بأختام الملكة، واليمام ـ

دون الحمام ـ والمصابين بالأنيميا الحادة، والشعراء الصعاليك ـ تأبط شرًّا والشنفرى ـ والغزلان، وقصاص الأثر، وكلاب الصيد، والذين يفسحون الطريق لمواكب السلطة، والزنابير، وموظفي البنوك والمصارف المالية، وراقصات الأفراح المبتدئات.

أما أضخم الأقدام فيمتلكها المصابون بالنقرس والأفيال والخرتيت، ومضحكو الكبراء، ومديرو مكاتب ذوي الشأن، وأرامل الأثرياء، والعاملون في عصارات القصب والسمسم، وقراء المآتم، وكبار رجال الشرطة، وجِمال الحقول ـ دون جِمال الصحراء ـ والملك فاروق، والذكر الأول المولود على خمس بنات، والخنزير، و«عيدي أمين». أما الذين أجسادهم ضخمة دون أقدامهم فمنهم «تشرشل» والخليفة عبد الملك بن مروان والممثل عبد الفتاح القصري وكافور الإخشيدي والممثل «تشارلز لوتون» والشاعر كامل الشناوي وكلاب البوكسر الألمانية والإمبراطورية العثمانية. في حين أن الذين اشتهروا بصغر أقدامهم (الأقدام اليابانية) بما لا يتناسب مع حجم أجسادهم فمنهم بيرم التونسي وفكري أباظة وأم كلثوم ومكرم عبيد و«ماوتسي تونج» وفاطمة رشدي و«جان دارك» والخبازون والعجانون والطائر «أبيس». وهناك الذين يملكون أقدامًا قوية عريضة تتناسب مع هياكلهم (وتتجاوز مقاس ٤٤) مثل «ديجول» و«تاليران» و«ليندون جونسون» وجمال عبد الناصر و«يوليوس قيصر» وعبد الحكيم عامر ويحيى شاهين وعباس فارس و«إيف مونتان» و«أنطوني كوين» وعباس العقاد وعبد المنعم القيسوني و«موسوليني» وجورج أبيض ويوسف وهبي. ولا توجد من النساء من تجاوزت قدماها هذا المقاس لأنهن لا يعترفن بذلك.

ولقدم الأنثى سحر معروف ينبع من قدرة القدم على اختزال كل جمال الجسد، مثل «مارلين مونرو» و«جريتا جاربو»، وأميرات الأساطير وحوريات النحل والفراشات والبنات الصغيرات قبل أن تداهمهن عوامل الطقس والتقلص والتمدد، وهو ما يسميه الجغرافيون: عوامل التعرية. ولعل ذلك ما أدى إلى هذه القيود المعدنية التي زيَّن بها الشرقيون أقدام إناثهم ـ الخلاخيل ـ زمنًا طويلًا، ليس شكًّا في حركتهن بل إعلانًا عن سحرهن، أو الشك والإعلان معًا.

كلمات لها معنى

المنارات التي تسترشد بها السفن،
تُقام دائمًا على الصخور الشرسة.

*

يبدأ الحب بحرفين يجللان الحمق والبراءة، ولا توجد حروف بعد ذلك تفسر ما سيحدث.

*

أتود أن تستمتع؟ انظر لوجه زوجتك حين تتكلم في حزن عن زلة أنثى أخرى.

*

لكي ترتاح اجمع كل الورق الذي عندك والذي يأتيك، في ملف واحد: وثيقة الزواج وشهادات الميلاد وفواتير استهلاك الكهرباء

والغاز والماء وإيصالات الضرائب والإيجار وصكوك التقسيط وشرائح ورق التنظيف وخطابات الغرام السابق واللاحق، بعدها يمكن لأحدكما أن يلقي بنفسه إلى البحر: أنت أو الملف.

*

لا تتعلق بالحقائق الكبيرة،
لأنها كالأفيال ذيولها رفيعة لا تصلح لذلك.

*

بدأت تظهر ملابس عصرية لا تتقيد بالانضباط مع مقاييس الأجساد، استرشادًا بالمشانق، لكي تعمل في حرية.

*

كلما جالست مثقفًا ذا منصب، تذكرت وجوه العوانس.

*

الشيوع الذي استشرى في الوجدان من أغنية فيروز التي أحبته فيها صيفًا، لم تمنعني من اختراق لذة الخريف.

المرأة.. والمرء

ظللت أزعم لنفسي أنني أعرف أمورًا كثيرة، دون أن أدرك أن أي واحد ـ في هذا العالم ـ لا بد أنه يعرف ما لا يعرفه أحد سواه. ونحن ـ أنا وأنت ـ نتوجه بنفس معاصرة متمدينة إلى مؤتمر المرأة: في المذياع أو التلفزيون أو في قاعات المؤتمرات، دون أن نتساءل: لماذا مؤتمر المرأة وحقوق المرأة وبرامج المرأة، ولا يوجد من استخدم في المقابل مؤتمر المرء؟ مرة أخرى لماذا نتعامل مع كلمة «المرأة» في جميع الصياغات والشعارات واللافتات دون استخدام كلمة «المرء» مقابلها في المناسبات ذاتها، الرجل أفضل لماذا؟ ولأني لا أعرف ـ مثلك ـ إجابة محددة، فإن الأمور تزداد مروءة ـ أي مرونة سلسة طيبة ـ إذا ما اتضح لنا أن المرأة لا جمع لها من الحروف ذاتها بل جمعها نساء ـ اللاتي لا مفرد لهن، وكذلك المرء: جمعه رجال. وعلينا أن نمرأ مثل هذه الاستثناءات اللغوية: أي نستسيغها، حتى لا نتوقف عند مفرد الرجال وهو الرجل، ليصبح لنا مريء لغوي مثل ذلك المريء الذي ـ بالهناء والشفاء ـ يستقبل الطعام والشراب من الحلقوم إلى

المعدة، دون أن نستخدم الفعل مرئ أو مرأ: أي صار كالمرأة: هيئة أو في طريقة كلامها. ولعل التكوين النسائي اللدن الجاذب المشع وراء دوام استخدام كلمة المرأة مع تجميد المرء، مع أننا نفخر ـ نحن الرجال في جميع العصور والأمصار بسيطرتنا على اللغة، فإذا بالمروءة ـ من المرأة ـ تتصاعد لتصبح هذه الآداب النفسية التي تحمل الإنسان على مراعاتها ليتمسك بجميل العادات ومحاسن الأخلاق، ونستولي نحن الرجال على هذه المروءة لنبدو في كمال الرجولة ـ أو الرجولية.

ولعل تلك المروءة ـ سواء كانت من سلاسة ورقة تكوين المرأة ـ أو من محاسن أخلاق الرجولة ـ (أو هكذا تبدو لنا الأمور) ـ تكمن ـ هذه المروءة ـ وراء المرو: وهو نبات عطري طبي (ومن أسمائه الشعبية الخرنباش)، كما أن المرو نوع من حجر الصوان أبيض براق يستخدم عند قدحه لإصدار النار في القداحات الحجرية التي استخدمناها قبل الوصول إلى الولاعات العصرية، كما أن مرو مدينة قديمة في واحة كبيرة بصحراء كاراكوم في جمهورية تركمانيا والتي كانت واحدة من تكوينات الاتحاد السوفيتي، ثم هي التي كانت مرجيانا في إحدى مقاطعات فارس القديمة، إلا إن أشهر مروة هي اسم لجبل بمدينة مكة المكرمة. لاحظ أنني أسحب من المروءة كلمات ومعاني لا تنطبق عليها قواعد التخريج اللغوي بالدقة المطلوبة، وهو ما يؤدي بنا إلى أن نتذكر الخليفة الأموي مروان بن الحكم ـ والذي ينسب إليه بنو مروان، والذي ولاه معاوية بن أبي سفيان أمر المدينة المنورة، وبعد أمور عدة أصبح خليفة ـ في دمشق. وهذا لا علاقة له بمروى عاصمة المملكة المروية التي تأتي في السرد التاريخي (٣٠٠-٢٥٠ قبل الميلاد)

وكانت تقع على الشاطئ الشرقي لنهر النيل قريبًا من قرية البقراوية التابعة لمركز شندي حاليًّا شمال السودان. إلا إن الباقي من كل ذلك هو الصديق الذي لم أعد أسمع عنه شيئًا: الشاعر الفلسطيني مروان برزق، والذي عاش فترة في مصر، ثم عاد إلى فلسطين وطنه الأثير ثم انقطعت أخباره فور اندلاع الاجتياح الإسرائيلي للمدن والمخيمات الفلسطينية في السنوات الأخيرة، إلا إن الأرض حين تمرؤ: يمسي هواؤها حسنًا فهي مريئة. أما المراءاة فهي تعني الموافقة ذات الاتجاه في المجاملة أو النفاق لرؤية ـ أو وجهة نظر ـ من يكون أقوى. إنها لغة مخففة وبالغة التهذيب لاتجاهات أخلاقية يعاني منها أي مرء أو امرأة منا، دون أن نخفي اعترافنا بذلك في أمور عدة نجد أنفسنا نرائي فيها، حتى نبدو أننا نعرف أكثر مما يعرفه سوانا.

كلمات لها معنى

الجروح متعددة ـ ومتقطعة، أما الجراح فهي ممتدة بسبب الألف ذات الصدى الصوتي المديد.

*

فعلتها الكهرباء عندما ساوت بين بيوت الليل وبيوت النهار.

*

كل أطراف الإنسان عبث بها هذا العصر، الأهداب ـ أي الرموش ـ فقط هي التي عانت من ذلك خلال كل العصور.

*

أي كف تمتد لتحيي ـ وتحتك بكف أخرى ـ دون أن تنفتح العيون:
تفقد دفئها.

*

عذاب يكتم أنفاسي: مسافر يجلس في مقعده مسدلًا ستائر نافذة
قطار يخترق مروج الشتاء.

العيال

فور أن تتأزم الأمور، وأحس بالاختناق، تداهمني رغبة أن أصبح العيل الذي يتوقف مخه عند حدود معينة من الإدراك، فيريح ويستريح، وهي رغبة سرية لا يعلن عنها أحد، فإذ بنا نفاجأ بمن يمدح واحدًا من كبار الأصدقاء بأنه طفل، أي أنه بريء نقي لا تشوب أفكاره وسلوكه أي ذرات شريرة. ومع ذلك فإنك لا تستطيع ـ ولا يجوز ـ أن تصف الشخص نفسه ذا النيات الحسنة بأنه (عيِّل)، لسبب بسيط نمارسه في تلقائية دون إدراك عقلي: الطفل لفظ مهذب تميل إليه الثقافة المعهودة، أما العيِّل فإن محاولة استخدامه تصبح شائكة، ولذا فقد ظهرت مجلات ومطبوعات وقصص الأطفال دون العيال، كما أن برامج الأطفال تطفح فوق ذبذبات محطات الإذاعة وقنوات التلفزيون وتسجيلات الفيديو وألحان الموسيقيين وحناجر المغنين، دون أن يقترب هذا العالم الطفولي من العيال بالمرة، مع أن الإمعان في المسألة سوف يضعنا أمام حقيقة واضحة: إن الطفل ـ من الناحية الذهنية والسلوكية، وكل القدرات الغامضة أو الواضحة الأخرى ـ

لا يرقى لمستوى فهم أو إدراك ما يقدم له باستخدام اسمه. الطفل هو الوليد الذي بدأ يستشرف اكتمال العام الأول من عمره، وسيظل طفلًا عامين أو ثلاثة ـ أو أربعة ـ ليبدأ بعدها مرحلة أن يصبح العيِّل ذا الصبيانية المرنة المدركة لبعض ما يدور حوله، لكننا لا نتخلى أبدًا عن كونه طفلًا، مع أن العيِّل الذي يُستخدم لفظه في الكلام والتوصيف يملأ معاجم اللغة وحكايات الأجداد وروح المداعبة، أو التخفيف من قوة العقاب، أو إثارة الإشفاق على من يكون عائلًا ـ أو أبًا للعيال، أو الإعجاب الشديد للعائل نفسه أبو العيال حينما يقوم بعمل يثير الدهشة بصفته كبير العائلة ـ أي العائل الأكبر لها بما فيها من عيال ـ مهما كبروا ـ فهم هكذا بالنسبة إليه، دون أن ترد على اللسان وفي ألفاظ المصطلحات أي إشارات عن الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين يهتم بهم كل ما أشرت إليه من مطبوعات وأغانٍ وتسجيلات دون العيال بالمرة.

فإذا كان العائل عيل صبره ـ أي نفد من إرهاق العيال أو الأمور أو النوائب أو البلايا، فإنه يعول ـ مرة أخرى ـ أي رفع صوته بالبكاء والنحيب، فإن انتقل الفعل خارج الإنسان إلى الميزان ـ مثلًا ـ فعال الميزان: أي اختلت كفتاه فمالت إحداهما هبوطًا وارتفعت الأخرى، إشارة إلى خلل التقدير أو العدل. فإذا عال فلان في الميزان تصبح الجملة تعني مباشرة «الخيانة المقصودة». وعال السهم: مال عن الهدف فلم يصبه، والقاموس اللغوي توقف عند السهم مع أن «العول» في عصرنا القائم يستولي على أنواع عدة من السهام الحديثة كطلقات الرصاص والصواريخ، فإن عال أمر القوم: اشتد وعظم

وأصبح نموذجها إسرائيل ومن يقف وراءها أو أمامها، وعندما تعول الأنصباء ـ في تقسيم الميراث ـ دخلها العول: أي خلل الظلم والميل عن الحق، وهو ما لم يقع فيه معظمنا لانتفاء ما يمكن تقسيمه من الميراث حيث لا يبقى إلا الأمل في الستر ـ وهو ما لا يخضع للعول المشار إليه.

لكن المعنى لا يلبث أن يعود إلى العائل ـ ليس فقط فيما يقوم به من تغطية حاجات عياله من الطعام والكساء والمسكن والرعاية، بل عندما يُعوَّل على شخص آخر: أي يُعتمد عليه في شؤون لا تخضع الأسرة ـ أو العائلة ـ لها على وجه اليقين، يقال: عوَّلنا على فلان فوجدناه نعم المعوَّل، فإذا عوَّلت على الحرب أو السفر أو الانتقام أو التراحم أو الصبر أو الخداع أو المناورة أو مائدة المباحثات أو التغابي ـ افتعال الغباء ـ فإنك بدأت توطد وتوطن نفسك على أيٍّ منها ـ أو عليها كلها!

ونأمل ألا تزعم أنك العائل الوحيد المرهق في هذا العالم، فهناك نباتات عائلة تعتمد عليها نباتات أخرى ـ طفيلية ـ تستمد منها غذاءها وتشب على أكتافها، مثل نبات الفول الذي يتطفل الهالوك على جذوره، ألم تلاحظ أننا استخدمنا «طفيلي» ـ و«يتطفل» وهي ألفاظ قادمة من الطفل دون العيِّل؟ وألا يدعونا هذا إلى التفكير في ذلك العائل ـ الذي هو واحد منا ـ حيث يعيش علينا كائن آخر ـ متطفلًا أيضًا ـ يستمد منا غذاءه؟ إنه دودة البلهارسيا والإنكلستوما والإسكارس، لكن ـ وبرغم ذلك ـ فإننا نفخر بأن فلانًا «عول» لنا، أي أنه كبيرنا وعمدتنا ـ كما جاء في القاموس، وبالتالي فإن لفظ

العوالة ـ الذي لم يرد في ما بين أيدينا من مراجع ـ يصبح جديرًا بالاهتمام، فقد تردد لفظ «العوالة» في أعلى جنوب مصر صفة للمتطفل الذي يعتمد في حياته على الآخرين، وهي المرة الثالثة التي يعود فيها الطفل في مزاحمة المعنى الصادر من العيِّل، حتى لو كان عوالة، أما العويل ـ وهو غير البكاء والنحيب ـ فإنه ذلك الشريط الذي يتشبع بالسوائل في المصابيح القديمة ـ هل تذكرها؟ ـ لكي تسري فيه إلى منطقة الاشتعال، ومن المؤسف أن هذا العويل لم يرد أيضًا في الكتب، لكن الذي جاء آخر الأمر وأثارني هو المعول: تلك الأداة من الحديد ينقر بها في الصخر، إنها نهاية لم أكن أرغب فيها بسبب انتشار المعاول في المناطق القاسية، ليست المحاجر فقط، بل وفي السجون أيضًا.

العودة إلى العيال ـ أي أن أكون عيِّلًا ـ عند الوصول إلى مثل هذه الأمور أفضل.

كلمات لها معنى

جريمة كاملة ثابتة الأركان، واضحة الشهود، لم تقدم ـ حتى الآن ـ لمحاكمة مرتكبها، قتل الوقت.

❊

حتى في المخلوقات غير الآدمية: عيون الأنثى لها وميض خاص، وذكاء خاص أيضًا.

❊

جرِّب أن تصعد جبلًا، وأن تسترخي ممعنًا في الآفاق الممتدة، إحساس غامر بالطهارة والنقاء، أو الأمل فيهما.

*

الذهب والماس: إنهما الوحيدان القادران على السعي الدائب حتى يصلا إلى عنق الأنثى، ثم يبدآن في البريق.

*

بعد أن تكون رسالة تسعى إلى غلاف ـ أي ظرف ـ تحتمي به، تتحول إلى غلاف ـ أي ظرف ـ بالغ الخشونة، أنا لا أقصد زوجتك.

الرقص

أقدم الفنون وأذكى العلوم وأعمق تفاعلات الجسد الحيِّ مع الطبيعة

الرقص هو موجز تاريخ بلاغة الحركة في الكائنات الحية التي يعلوها الإنسان، ابتداء من إشاراتها الوضيعة البدائية المثيرة، إلى إيماءاتها السامية المعبرة المتألقة. والرقص أقدم من اللغة، وأذكى من التاريخ، وأعنف من المكائد والأعاصير، وأكثر دموية من الاجتياح الحربي، وأرق نعومة من ابتسامة الأم، وأصدق من أقوال الحكماء، وأشد جاذبية من الحق والعدل. والرقص هو الشعر في الحالة الحية المجسدة، ينمو في الموسيقى وتنمو الموسيقى على علاقات أجزائه التي تتأود، هو الإشعاع الغريزي لطاقة الغريزة، وإعادة صياغة لعلاقات الأعضاء بما يخرجها عن كونها مجرد أعضاء، أي لتصبح هذه الأعضاء عنصرًا فاعلًا مؤثرًا في طقس الحياة والطبيعة.

وأجمل الراقصين ـ والراقصات ـ على الإطلاق ـ ذكر الحمام

في حالة الهيام، و«سالومي» وهي تقدم للحاكم رأس «يوحنا المعمدان»، وتحية كاريوكا في «شباب امرأة»، و«تاييس» وهي تغوي راهب الإسكندرية، وفريدة فهمي في استعراضات فرقة رضا، والشعوب استقبالًا لذوي السلطان أو دفنًا لهم تحت التراب، والجدة حينما تستقبل أول حفيد لها، وراقصات الباليه في أوج الاندماج التعبيري، ورقصة «زوربا اليوناني» حينما وصله نبأ وفاة ابنه في رواية «كازنتزاكي»، وتراقص اللاعب المحترف بالكرة أمام المرمى، والسياسي حينما يفيض في وصف حكمة الزعيم، والقمر في أثناء انسيابه بين شفائف السحب، والقرد تحت وقع رق وخيزرانة صاحبه، والموظف الساعي إلى قلب الرئيس، والكاتب المتراقص على سلم المقالات، وذكر النحل في آخر مراحل تواصله القاتل مع الملكة، ورقصة الثأر في المجتمعات البدائية أو التقليدية، ورقصة النار أيضًا، وكذلك رقصة المطر، وغوازي المتعة الحسية في الأفراح والموالد والخروج من السجن، أو في المجالس المنتشية للأثرياء والأعيان وأبناء الحظ. وكل هذا رقص يختلف عن الترقيص، فالرقص ـ في عمومه ـ استجابة داخلية قد تتوافق مع متطلبات خارجية أو لا تتوافق، أما الترقيص فيتم باستثارة خارجية، مثل ترقيص الخيل، وترقيص الحواجب، وترقيص الأعداء والمناوئين (أي تضييق الخناق عليهم حتى يتراقصوا وجلًا)، وترقيص الكلاب وباقي المتراقصين في حلبة السيرك، وترقيص المؤلفين على الإيقاع الجشع للناشرين، وترقيص المراكب في مواجهة الزوابع، وترقيص وزراء الداخلية السابقين في ساحة المذكرات السياسية.

أما كثير الرقص فهو الرقَّاص، وتجده في الساعة، والواشي بين صديقين، والزنبور تمهيدًا لخراب عشه، والهامس في أذن السلطات، ومساعدي تجار المخدرات وبصاصيهم، وصبية المقاهي، وكتبة الشكاوى، وباعة الطبول والدفوف، والمشعوذين، والمتاجرين في الشعارات، وصناع أقواس النصر.

وكلها تبعد عن الرقص السامي الأصيل، والذي يظل هو التفاعل الحي بين الإنسان والجماعة، والجماعة والطبيعة، والطبيعة والجسد الحي مرة أخرى.

كلمات لها معنى

الغربال الجديد له شَدَّة، لماذا لم نقل العود أو الكمان؟!

*

هذه ذراعي، هل يمكن لك أن تميلها؟
ليت الفاعل يكون امرأة جميلة.

*

في العالم السابق ذي النظامين، كان الزواج كارثة تاريخية، وفي النظام العالمي الواحد الجديد، أصبح الزواج كارثة تاريخية وجغرافية أيضًا.

*

تزوج وعش سعيدًا، تزوج فعل أمر، وعش سعيدًا فعل مضحك.

*

لكي تتعلم كيف تؤكل الكتف، عليك أن تتمكن من أكل الجسد أولًا.

*

يمكن أن نفهمها هكذا؛ خانت زوجها مع عشيقها، فلما تخلى عنها زوجها، بدأت تخون عشيقها مع زوجها.

*

هذا الكائن غير القادر على الاندهاش، اسمه في قاموس الحياة الزوج الناجح.

*

إن أهمية الحب الأول تكمن في قدرته الفائقة على أن يطل إطلالة عذبة بين جبال الكوليسترول، وعبوس الزوجة، وأحجار ضغط الدم، وأشواك آلام القولون، مرة أو مرتين في العام.

الرسم

ارتسمت على وجهي ـ دون أن أرى وجهي ـ علامات الغيظ، حينما اتضح لي أن الرسم ـ هذا الفن الجميل ـ سوف يقودني إلى الرسوم الحكومية الخاصة بتحصيلها، كالضرائب والجمارك والعبور والمرور في الطرق، دون محاولة الهروب منها في أسعار الطماطم والقلقاس والملوخية والزواج والميلاد ـ والطلاق أيضًا، أو الإخلال بحق الرسوم ـ أي رسوم ـ بالرفرفة فوق رايات الأوطان والسفن والسجون وسيارات ذوي الشأن والإسعاف وإطفاء الحرائق. ثم تثبت ـ دون رفرفة ـ على زجاج مقدمات مركبات تصنيفات السلطة البشرية، ليصبح رسم الهلال إشارة للأطباء، والثعبان الملتوي حول كأس السموم رمزًا للصيادلة، والصقر ـ أو النسر لا أدري ـ وقد وقف بمخالبه بين أغصان زيتون، الشرطة أو الجيش، ولا يلبث الميزان ذو الكفتين أن يتهادى معلقًا بين أصابع يد فتاة جميلة فاقدة الإبصار تحقيقًا للعدل المجرد على كل أنواع المحاكم بمداخل مبانيها وأوراق حيثياتها وأوامر

قوانينها وأحكامها، وتظل إيزيس ـ صديقتنا نحن المصريين ـ تحتل مسطحات الآثار القديمة بجدرانها في الهياكل والمعابد والمقابر وقصور الفراعنة، ويظل أوزوريس واقفًا أمامها في إشفاق ورومانسية، اعتزازًا بما قامت به إيزيس من نشاط أسطوري، حينما فتك به شقيقه ست، ومزق جسده، ونثره في أعماق القرى والنجوع والكفور والسراديب، والأناشيد وكتب المدارس. حينئذ قامت إيزيس ـ زوجته المصون ـ بالسعي والبحث والسفر في أرجاء المعمورة لتجمع في صبر أسطوري رائع: كل أعضاء حبيبها، عظامًا محطمة أو جمجمة ممزقة، لكن الرسوم خلت من تحديد نوع الحقيبة أو القفص أو المقطف أو الجوال أو البرميل الذي استطاعت إيزيس المخلصة استخدامه في الإحساس العارم لتحقيق ما لم تستطع أنثى أن تفعله مع رجلها الممزق ـ حتى في أفلام السينما أو المسرح أو الروايات الأدبية الحديثة ـ وهو ما أدى بواحد مثلي، يمتلك نوعًا من الأسئلة التي يصعب الإجابة تاريخيًّا أو واقعيًّا عنها، أن يسأل: ألا يجوز أن تتداخل أعضاؤه مع أعضاء ـ ممزقة ومنثورة في كل الأركان ـ لرجال آخرين؟ وكيف ـ بقية السؤال الشرير ـ استطاعت إيزيس أن تفرز كل هذه الأعضاء لتستبعد ما لا يكون لأوزوريس منها ـ الرسوم والكتابات لم تقترب من ذلك أبدًا ـ حتى إنني تركتها بطلة تسعى كل عدة شهور أو سنوات لتجمع هذه الأعضاء، وبعد نجاحها في تركيبها وصياغتها ومعايشتها، يتضح لها أن هذه الأعضاء لم تكن لأوزوريس كلها، وتبدأ من جديد في البحث والتنقيب في كل أرجاء الأساطير عن فضلات

وأعضاء قرينها البطل المشار إليه، دون الإخلال بمتعتي حينما أشاهد الرسوم، التي تجمعهما معًا على المسطحات البنائية الأثرية دون أي تمزيق.

والرسم ـ في أحيان عديدة ـ يتحول من رسوم ورسومات، إلى طقوس مراسم تعيين كبار العاملين في الحكومات، لكنها تكون في أهدأ وأجمل صورها ـ هذه المراسم ـ في استقبال الرؤساء والزعماء، وفي الترحيب بالسفراء في قاعات القصور، ومع أن واحدًا منا لا يستخدم المرسم بصفته مفرد المراسم في هذه الطقوس والبروتوكولات، فإن أصدقاءنا المسيحيين يميلون إلى توصيف كبار رجال مذاهبهم عند اختيارهم إلى درجة أرقى في الكهنوت ليصبح مرتسمًا بمرسوم من المراسم ـ وهذا اللفظ نجده في التراث العربي حتى الآن.

والرسم في علم المنطق: تعريف الشيء بخصائصه، ويطلق أيضًا على تمثيل شيء أو شخص أو موقع جغرافي أو موقعة تاريخية ـ بالإشارة والتبسيط ـ أي ليس على شاكلة رسم اللوحات بما تعنيه من معانٍ في دقة التفاصيل وحركة الخطوط وانطلاق الأمواج اللونية، التي هيمنت على كثير من نشاط فن الرسم المعاصر، ولعل الرسم البياني يقوم بوظيفة خاصة، تعبيرًا عن تجريد العمل، والجهود والاستثمارات البشرية والمالية والعقارية، ليصبح الخط البياني واضح التعبير عن المقصود، دون تفاصيل التقريرات والمذكرات والتوضيحات الأسلوبية.

لكن الرسم ـ في واحد من حالاته المتعددة ـ يعني الأثر الباقي من الأحقاب الماضية، أي بعد أن عفت وانتهت عهودها. وهو ما نجده

كثيرًا في رسم دار الحب، حينما يأتيها العاشق القديم ليجدها أطلالًا، مع أن الشخص الداهية الذكي ذا الخبرة والتجارب كان يطلق عليها «روسم»، فإذا قمت بتعديل الروسم الداهية لتصبح الواو بعد السين: رَسوم - رجاء فتح الراء - فإن اللفظ هنا يعني ذلك القادر أن يظل يومًا وليلة سيرًا على الأقدام، وهي صفة جديرة بأمثال العاشق الشهير الرومانسي الأصيل: قيس الساعي سيرًا في آفاق الصحاري، باكيًا حزينًا بالغ الشجن بالقصائد سعيًا وراء ليلى، في حين أن الرسوم من الإبل - أي الجمال والنوق - تعني تلك التي تترك أثرًا على مساحات ومسافات الرحلات، دون وقوعها في مأزق الفن البديع المتألق في قصائد أثر الحب والغرام.

أحاول الهروب من كل أنواع الرسم والرسوم والمراسم والمراسيم والرسومات حتى أهدأ قليلًا، محتفظًا في الفؤاد بما كنت أتمناه منذ دهور صبيانيتي الأولى: أن أكون رسامًا، ولقد تركت بعضها خطوطًا فوق حوائط قديمة في قريتي، أقصد بقايا خطوط لا تصنع مجدًا، كالذي حظي به قيس - أي قيس؟! إنهم كثيرون، في حياتنا، وفي قلوبنا أيضًا.

كلمات لها معنى

عليك أن تمعن في السماء قليلًا، ليلًا أو نهارًا، أقصد عليك أن تخرج من المدينة وتجلس قليلًا فوق تل من الرمال، وتمعن في السماء قليلًا، إنني أقصد علاجك مما أنت فيه.

*

عندما تتحرك الفرشاة بالألوان، فإنها تنظر إلى القلم بنصف عين راجية أن يتركها حرة خارج خطوطه المحاصرة.

*

من الجلد جاء الجلاد، الذي يستخدم سوطه في إلحاق الأذى بالآخرين، والسوط ـ أيضًا ـ من الجلد ذاته.

*

تحتفظ زوجتي بي ـ بكل فخر ـ لأنها تترك لي حرية التنفس بين وقت وآخر، وهو ما لم تدركه النظم الحاكمة.

*

كثير من الحيوانات والحشرات والنباتات تحس بالتغيرات التي تحرك الليل والنهار والشتاء والصيف، دون أن تقع في مأزق بلادة الثقافة المبالغ فيها.

النوم

الراحة المأمولة والتي ينتظرها الجسد والعقل كي يتخلصا بعض الوقت من الإرهاق. والحرمان من النوم وراء تفسير إقرار كثير من الأبرياء بجرائم ـ يوقعون صكوك الاعتراف بها ـ مع أنهم لم يقترفوها، حيث يتناوب عليهم المحققون بشكل ضاغط يحرمهم من النوم، وهم بذلك لا يبغون سوى فترة نوم، وليكن بعدها ما يكون، ولذا فإن أخطر أعداء النوم ـ بعد سلوك السلطة المشار إليه: الثروة المفاجئة، والخيانة في العشق أو الأسرة أو من الذين نستنيم ثقة فيهم، والحزن الشديد الناجم عن فقد الأحباء، أو استمرار الأعداء في حال جيدة دون الوقوع في شدائد العقاب منا أو من غيرنا ـ أو من القدر، ثم الأدوية المنبهة، ثم حالات الانتظار اليائس أو البائس. وكلها حالات تتواتر إقلاقًا لنوم الأحياء، وقد أصابت النباتات أنواع منها تؤدي إلى اضطراب قد يهلكها أو يحول دون إثمارها عندما يتغير أصحابها كما في حالات لوحظت في النخيل وشجر التوت. وبداية النوم: الوسن، ثم لا يلبث أن يصبح الوسن نعاسًا، ثم نومًا، ثم الكرى ـ بفتح الكاف،

فإن جاءت الكاف مضمومة فإنها تخرج عن حالات النوم المؤقت إلى القبور ذاتها، لكن لفظ النوم هو الدائم الدائب الاستعمال في اللغة اليومية، ومنها جاء «أبو النوم» الذي أصبح مصطلحًا على نوع من النباتات المخدرة كالخشخاش أو البانجو، وقد فشلت في العثور على اسم هذا النبات في الكتب أو من معلومات الذين يستعملونه، ربما لأن عقولهم ليست في الحالة المنشودة من اليقظة.

وينتشر النوم في الروايات ـ الموروثة والحديثة، وكثيرًا ما يلجأ إليه علي بابا والملك «لير» و«روميو» ـ دون «جولييت» ـ و«هيثكليف» ـ بطل «مرتفعات وذرنج» و«الكونت دي مونت كريستو» وعبد الله النديم ـ في «العودة إلى المنفى». وأكثر الأبطال نومًا كان السندباد عندما أصبح وحيدًا مالكًا لجزيرة مترامية الحدود، و«شرلوك هولمز» حينما كان النوم يستغرقه بعد تفكير طويل في فك عقدة القاتل والضحية. أما أقل الأبطال نومًا، فقد كان امرؤ القيس الساعي دون ملل ـ مع سيل منهمر من دموع الشعر ـ خلف ليلى في اتساع البادية، وسعيد مهران المطارد من السلطة: أفرادًا وكلابًا، وجيفارا وسط أشواك الغابات الشرسة في أمريكا الجنوبية، ويوسف إدريس حينما منحت المؤسسات الغربية جائزة نوبل لنجيب محفوظ، وأمي ـ نعم أمي أنا ـ ليلة مقتل أنور السادات، لوقوعها في مأزق عدم التصديق، وهو ما عانيت منه بصفة شخصية منذ أسابيع حينما اخترقت الطائرة الثانية الأبراج الأمريكية، وجمال عبد الناصر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ حينما أصبح الملاذ كي ينام أن يتنحى، لكن أمله لم يتحقق مما جعله يعيش حالة من القلق الذي انتهى يوم رحيله بعد ذلك بثلاث سنوات

وثلاثة شهور، لكنه ـ هذا القلق ـ لم يغادرنا نحن حتى الآن، حيث لا يزال الجيل الذي أنتمي إليه لا يجيد النوم.

وأخطر أعداء النوم: الإحساس بالذنب، والهجوع إلى الأماكن غير المألوفة في الغابات والجبال، بل إن ذلك قد يمتد إلى الفراش الوثير في الفنادق ما دامت غير مألوفة. ومن أعداء النوم أيضًا: الخنادق، وسطوح السفن، والصراخ الملتاع، وأصوات الذئاب، وضجيج الموسيقى الحديثة، وأوار العقل حينما يلتهب إبداعًا، وطنين البعوض والزنابير، وذباب «تسي تسي» في أفريقيا الوسطى (وربما كان ذلك وراء إطلاق مصطلح «نيام نيام» على أبناء غاباتها الذين يصابون بلسع هذا الذباب في تعريف عكسي). والهمس الغامض القريب في الظلام، وسطوة التوقعات والانتظار لنتائج الاختبارات والاختيارات في الامتحانات والوظائف والموافقة على العرائس أو العرسان، والكوابيس التي تلقي بك من فوق الأشجار أو من وسط السحب في عز النوم، ومشهد ثعبان أو عقرب حين تمر في هدوء قريبًا من فراشك، كما أن ذلك مقصور على أقطارنا الشرقية، والزيارات غير المتوقعة من أصدقاء أو أقارب دون إدراك لارتباطاتك بصفة شخصية أو عملية أو وظيفية أو أسرية.

غير أن النوم سيظل السلوان الأكثر دفئًا لما يعتور حياتنا من مداهمات الأخبار والعواصف والأمطار وبرامج التلفزيون والكتابات الضحلة أو المدهونة بالنفاق الذي نطلق عليه ـ من باب التهذيب ـ المداهنة، مع أن مداهنة النوم ستظل أرقى ما نقوم به حتى الآن ليرتاح العقل والجسد من أنواع عدة من الإرهاق.

كلمات لها معنى

السماء لا تمطر ذهبًا أو فضة، لأنها لا تميل إلى سراديب المناجم.

*

كل أنواع الكلام ـ في اللغات واللهجات ـ يكاد يستغرقها وقوع الحزن أو تفسيره.

*

السمة الراقية ـ والوحيدة ـ التي تفضل الخيول على الحمير والبغال: قدرتها الفائقة على أداء إيقاع ذي إحساس إنساني خالص، دعك من الشعر الحداثي الآن.

*

ثلاثة أرباع الجَمال الذي يجعلك منتشيًا: ينبع من وجدانك، الربع الباقي من الخارج.

*

لا نود أن نعترف بأن الموائد تصلح للأكل والكتابة والمقامرة وألعاب البلياردو فقط، أما مباحثات السلام، فإنها ـ ودائمًا ـ تسقط منزلقة لتتحطم في أجواء الحروب الملتهبة.

الغمز

أي لغة في العالم ـ قديمًا وحديثًا ـ في حاجة بالغة للغمز، حيث تضطر ـ هذه اللغة ـ إلى أن تستعين خارج حروفها المنطوقة بغمزة عين أو جفن أو حاجب أو إصبع، لتشير إلى تأكيد المعنى، أو لزلزلة المعنى، أو نقضه تمامًا، أو التشكيك فيه، أو التعبير المسبب للحرج حتى لا يقع النص المنطوق تحت طائلة القانون. والقوانين العقابية الحديثة تدرك ذلك لكنها ـ ونادرًا ـ ما تستطيع توثيقه، لأن الغمز فن بالغ المهارة، يمكن لي ـ إن أجدته ـ أن أدس في إشارته المنطلقة بعيدًا عن لغة اللسان ما أعجز عن نطقه أو كتابته.

ومع ذلك فإن اللغة ذاتها لها غمزها الخاص، مثل تلك التقارير التي تبدو بريئة لصالح موظف يميل رئيسه إلى ترقيته، حيث يصفه بصفات عديدة من الأمانة والإخلاص والمواظبة على الحضور إلى العمل ـ حتى في أيام العطلات والإجازة الرسمية. وعندما تطفو هذه المواظبة خارج أيام العمل تبدأ الأسئلة المندهشة من لجنة الترقية التي تعلم أن المؤسسة تغلق أبوابها ونوافذها في

غير أوقات العمل، وتبدأ علامات الاندهاش في سحب أنواع من الغمز الشائك حول سلوكه، وحول امتلاكه لمقر إقامة خارج المؤسسة، حيث تبدأ عيون اللجنة في ممارسة غمزها الخاص الذي ـ وفي هدوء ـ يسحب الموظف المشار إليه من المنطقة العليا في قائمة الترشيح.

وكل صنوف الإبداع ـ أدبًا أو فنًّا تشكيليًّا أو رقصًا بأنواعه ـ تميل إلى الغمز، وهو ما يصفه النقاد ببلاغة التعبير، كيف؟ انظر إلى غمز صبري موسى في روايته القصيرة «حادث النصف متر» عندما اصطحب صديقته إلى شقة زميل له ففتحت الباب امرأة تشبه الأمهات، ثم انظر إلى ابتسامة «الموناليزا» في لوحة «ليوناردو دافينشي» الشهيرة وقد تسربت من عينيها إشعاعات غمز تشي بما لم يرد في الابتسامة واليدين المسترخيتين على الصدر. وعليك ألا تهمل الوقوف تحت سطوة تصاعد الموسيقى المصاحبة لصوت أم كلثوم انفعالًا بحال الهوى المفعم بشجن الرغبة في التواصل، حينما تشير بذراعها، فتوقف الموسيقى، وتنفتح عيونها على صوتها المتصاعد منفردًا، والمهتز حتى تصل إلى أوج الغناء، لتسرع الموسيقى خلف الصوت الذي لا يلبث أن يبدأ في النزول إلى درجة الهمس ـ أقصد: الغمز، حينذاك سوف يكون مناسبًا أن تتذكر كل جسد جميل راقص يتماوج ويتحرك في سلاسة، فهل تستطيع أن تتخلص من العيون الراقصة لحساب الإمعان في الجسد فقط؟ غمز العيون ـ بالتأكيد ـ مختلف عن بلاغة الجسد،

وهو ما لم ينتبه إليه شاعرنا العربي الكبير: عمرو بن كلثوم حينما هتف في فخر:

إذا بلغ الرَّضيعُ لنا فِطامًا   تَخِرُّ له الجبابر ساجدينا

فاقتحم هذا البيت الشعري الفخيم أحقاب التاريخ وقارات الجغرافيا حتى استقر في كتب المدارس، دون أن ينتبه المتعاملون معه ـ نقدًا ودراسة ـ أن هذا البيت الشعري الذي يخلو من الغمز، أثار غمزًا له شأن مؤثر في عيون وأمخاخ مستقبله.

إلا إن الغمز الأكثر خطورة من فنون الرسم والشعر والغناء، هو ذلك الذي نحس به ـ ونراه بشكل واضح، في البيانات السياسية، سواء من يلقيها أو يشير إليها، فالغمز يخرج من منطقة العين والجفن والحاجب إلى اهتزاز واضح في الصوت، أو انقطاع الوصل بين جملتين متماسكتين، وهو ما يخرج ـ أصلًا ـ من التعبيرات المبكرة للأحياء قبل أن تصل إلى مرحلة النطق، أي عندما كان الغمز يرتبط بالدابة (عليك أن تتذكر أي نوع يعجبك من الدواب دون أن أغمز لك)، حينما كانت تميل برجلها ـ غمزًا، في خطوة أو خطوتين تشبهان حالة العرج، ثم لم يلبث الغمز أن دخل دائرة الأخلاق: غمز بفلان أي سعى به شرًّا، وغمز على فلان: طعن فيه (لاحظ التغيير الذي طرأ على حرف الجر في الجملتين) وغمز بيده الكبش أو النعجة: جسها ليعرف مدى سمنتها أو هزالها، وغمز الفاكهة ليعرف مدى نضجها، وغمز النص الأدبي ليدرك أغواره والكامن من تعبيرات داخله، أما إذا جاء الغمز مرتبطًا بالجرس،

أي زر الجرس، فإنه يعني: ضغط عليه بإصبعه ليصلصل أو يدق أو يندفع رنينه، الأخيرة جاءت حديثًا في معجم لغوى عصري، دون أن ننتبه جميعًا إلى أن الغمز ـ حينما تصبح حروفه كلها مفتوحة دون سكون الميم ـ فإنه يعني الرجل الضعيف، ورديء المال. لكن هذا الغمز الواسع ذا الغمازات حين وقوع السمكة في الشص، أو تحريك الأصابع فتحًا وإغلاقًا لثقوب الناي والمزمار أثناء الاستعمال الموسيقي، أو الغمازة الأخطر، إنها صفة الفتاة حسنة الغمز باللغة أو اليد أو اللسان.. أو الصمت أيضًا.. لقد نجحنا في الكتابة عن الغمز دون ربطه باللمز، من باب التظاهر بالأخلاق الكريمة، حتى لا نستدرج إلى غمازة الخدود الجميلة، علينا أن نصمت الآن.

كلمات لها معنى

نستطيع ـ بقدرة فائقة ـ أن نهتم بالنوافذ، وتجميلها بالألوان والستائر مع أهمية تعويقها حتى لا تنفتح بسهولة.

*

كلما التهمت الطيور الحبوب وبقايا الفاكهة، ازدادت رغبتنا في التهام لحومها، أما الطيور التي تأكل اللحوم فإننا نمعن في طريقة طيرانها فقط، نحن البشر نأكل الحبوب والفاكهة واللحوم لنصبح هدفًا لتلتهمنا كل الأنواع.

*

إذا تركت يديك بين يدي أنثى، يصبح كل ما في ذهنك صحيحًا، أما إذا تركت الأنثى يديها بين يديك، يصبح كل شيء في العالم صحيحًا.

*

أمواج البحار تناورك كي تكتب قصيدة جديدة، ينتهي الأمر بك - وبها - إلى نوع من المتعة جلوسًا على صخور الشاطئ.

بسمة.. فابتسامة

أحسست أن المجال اللغوي للتعريف بالبسمة ينقبض دون الاقتراب من تعبيراتها الدقيقة الذكية الجميلة، والتي ـ في حالات عديدة ـ تقوم بما تعجز عنه الزهور والفواكه والمعابثة والملامسة وطلاقة اللسان وعذوبة نظرات العيون، حتى إني خشيت أن أنزلق ـ من تأثير الابتسامة ـ إلى تلك البسمة التي تراقصت ناعمة على شفاه يهوذا إشارة إلى جنود الرومان ليتحركوا نحو النبي المسيح عيسى عليه السلام، ليقبضوا عليه ليلة العشاء الأخير، والتي ـ ابتسامة يهوذا ـ تراها في أخطر وأدق حالاتها في لوحة «ليوناردو دافنشي» بالغة المكر والجذب والجمال الخادع. وقد توازيها في التعبير الجميل دون خداع: ابتسامة أمي ـ في توترها العطوف ـ لتحول بين كف أبي المشرعة كي لا تهوي فوق خدي عقابًا لسلوكي الصبياني اختراقًا لحقل طماطم جارنا الطيب، إلا إن الابتسامة الغامضة والرقيقة وبالغة الإحساس بالتواصل كانت فوق شفتي «الموناليزا» البسيطة والعميقة والبريئة للرسام ذاته دافنشي الإيطالي المشار إليه في مؤامرة

يهوذا، ولعل الرومانسية ـ في الفن والأدب والسلوك ـ أفرزت أنواعًا من الجمال المبتسم الذي يعني الموافقة أو الرفض أو الاحتجاج أو إدراك ما لم تقله الكلمات، حتى إن «فرانسواز ساجان» كانت شديدة الاهتمام بالخروج المعاصر على الرومانسية لتكون روايتها «ابتسامة ما» إشارة واضحة على عبثية المعنى الإنساني الرقيق حينما اجتاحته الاتجاهات الوجودية المعروفة في أوروبا، والتي كان «سارتر» ـ فيلسوف فرنسا الذي رحل منذ سنوات ـ واحدًا من المؤثرين فيها.. وفينا أيضًا، إلا إن البسمة الشرقية ـ والعربية ـ ظلت تقاوم وتستمر في إشعاعها والذي ترى أثره في عيون المبتسم ـ ذكرًا كان أم أنثى ـ حينما تطرف أو تنغمض في بطء أو تضطرب لتضيق ثم تتسع لترى التعبير المتألق ذا الشجن المتفاعل مع مصدر انبعاثه: الابتسامة فوق الشفتين، والمجال الجوي بين ما يشع من الشفتين، ومن العينين ـ هو الذي تطايرت فيه مشاعر عمر الشريف أمام فاتن حمامة: الابتسامة والنظرة ـ ليخرجا من فيلم «صراع في الوادي» ليقترنا ـ أقصد يتزوجا، إلا إن ابتسامة الفتاة البسيطة نعيمة ـ أي سعاد حسني ـ أمام صوت المغني حسن ظلت ساحرة عدة أفلام، ثم أهلكتها ظروف العصر المضطرب الضاغط والمطارد للابتسامة التلقائية النقية النابعة من السليقة والفطرة. وهو ما يمكن لك أن تستمتع به ـ أو تحس به ـ في تلك الحركة التي تبدأ هادئة عند «الحاوي» المتخصص في استخلاص العقارب والثعابين من شقوق الحوائط أو السقوف القروية، ثم لا يلبث الهدوء أن ينطلق من الحاوي صارخًا مهددًا آمرًا، لينخفض الصوت ـ جوابًا للقرار في

الموسيقى ـ فيلقي بعصاه جانبًا، ويهمس داعيًا الثعبان في ابتسام بالغ الود، لتمتد ذراعه العارية ذات الكف المفتوحة نحو الغموض الذي يتسلل من بين الجدران ثعبانًا زاحفًا في بطء وامتثال ليأمره الحاوي بالتوقف حينما وصل إلى الأرض، فيظل الثلاثة يبتسمون في تعبير بالغ الذهول: الحاوي والثعبان وأنا، إلا إن الابتسامة النابعة من الفطرة والسليقة عند الحاوي، وعلى شفة جدتي وهي تحكي ـ ما لا تحكيه الجدات الآن ـ عن أبو زيد الهلالي وعنترة وعلي بابا والبساط السحري وأم كلثوم وأسمهان وخالد بن الوليد ـ لن تحس الإحساس بهذه البسمة حينما تجالس رجال الأعمال أو الفلاسفة ـ لا سيما المنقطعين للعلم في وحدة منقطعة النظير ـ أو راقصات الأفراح أو خلال المحاورات حول الموائد الدبلوماسية، مع أن أفواههم تبتسم فعلًا، وعيونهم تنظر أيضًا وهم يمارسون ذلك ـ بإدمان مذهل ـ وهم خارج هذا الجو المتحفظ. ففي قاعة نادٍ مشهور دعانا صديق صحفي وكاتب دبلوماسي لسهرة عشاء ذات سمر ومرح لأصدقائه وداعًا له قبل عودته إلى عمله في الولايات المتحدة، وكانت نشوتنا المليئة بالتعليقات الساخرة الذكية تتألق في الجلسة الدسمة، الابتسامات تنطلق من رقتها لتخترق مجال الضحك السعيد ـ لم أقل الضحك الصاخب، لكن اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء كانوا يبتسمون في تحفظ شديد، رقته ونعومته ـ هذا الابتسام ـ بالغا التكلف، والاصطناع أو الافتعال، الهدوء في النظرة وفي الإنصات، ثم الابتسام والنظر بين وقت وآخر في ساعة يده، وهي حركة لا يمكن إدانة صاحبها رغم خطورة ما يدور في ذهنك نتيجة لذلك، فاستعدت التعريف

الذي قام به الصديق ليقدمنا واحدًا واحدًا، إنهم يعملون في السلك الدبلوماسي الذي يقوم على التحفظ في إبداء المشاعر والآراء وعدم الانطلاق في ردود أفعال مبهجة أو محزنة نقوم بها نحن الذين من الفئات الأخرى. وعندما بدأ أحد الأصدقاء في إصدار ألحان من فمه تمهيدًا للغناء، طلبنا منه أن يشجينا ويسعدنا بصوته الجميل في أغنياته التي نحبها، وظلت البسمة تتهادى لتصبح ابتسامة، ثم بدأت حالات الانتشاء تحاور الأفئدة تحريكًا للمشاعر السعيدة المستمتعة، وكان ذلك مناسبًا أن أحافظ على متعتي الخاصة مع أصدقائي الأصليين الذين لا ينظرون - بين وقت وآخر - إلى ساعات معاصمهم، حيث تحركت أجسادنا في الجلسة إلى زوايا يصعب على العيون أن تقع في مجال المشاعر المتماسكة جدًّا.

والبسمة - في أداء واجبها الإنساني - سوف تجدها في عيني القطة حينما تلوذ بك فتأخذها في حجرك، وفي عيني الكلب - مع ارتخاء مستسلم لأذنيه المشرعتين - حينما تلقي إليه ببعض المأكولات، وفي غوريلا حديقة الحيوانات فور إخراجك سيجارة وتقديمها لحارسها، حيث تظل تتابع السيجارة بعينيها شديدتي الفرح والابتسام اللذين يضيق بهما فمها ذو الاتساع المذهل - حينما يناولها الحارس السيجارة مشتعلة. ولكن أخطر وأجمل ابتسامة - بعيدًا عن شفاه الإنسان - هي تلك التي تراها بوضوح حينما تظل ممعنًا في وجه غزالة بحديقة الحيوانات، فتمعن - بعينيها فيك، ثم تضرب الهواء بذيلها الصغير المنفوش كالورد - فإذا ما مددت أصابعك إليها ببعض الحبوب، فسوف تتوقف حركتها ثواني عدة، بعدها تنداح شفاهها بابتسامة

مع عودة ذيلها لإيقاع حركي جميل، لتفتح لك قلبها، أقصد فمها الذكي. تحياتي إليهما: زوجتك أو حبيبتك، مع قليل من الابتسام إنهاء لهذا الموضوع.

كلمات لها معنى

يا لجمال متعة القراءة، والتي بدأت تدخل مراحل فنائها أو موتها الأخير، بعد أن قام التلفزيون والكومبيوتر بمحاصرتها تمهيدًا لكتم أنفاسها، فوداعًا.

*

هل يمكن لواحد يضع في جيبه إبرة حقنة أن يتراقص في متعة خلال جولة تحطيب؟

*

تاجر الجلود يميل إلى أكل اليمام والعصافير والسمان، ولا يتحمل مشهد الدق على الطبول.

*

كان هارون الرشيد يحب سماع الشعر أثناء إلقائه المفعم بالانفعال، وإذا ما وصلت متعته إلى أقصى ـ أو أعمق درجاتها ـ يأمر الشاعر: اذهب فقد منحتك جملًا، دعك من جوائز الدولة الآن.

الحب

الحب نزعة عاطفية غامرة، تعلو عند شبوبها مختلطة بالغريزة ـ فوق أي نوازع أخرى، فتمتلئ المدارس بالعيال، والشوارع بالأحداث، والمحاكم بالقضايا، والسينما بالروايات، وتسيل الكوارث المتألقة من بين أعقاب أبواب الهناء والسعادة، تداهم ـ هذه النزعة العاطفية الفوَّارة ـ الأحياء في أي وقت ولو لم تقم لمداهمتها أسباب واضحة، ويزداد عملاء الحب انفعالًا، فينشدونه مخلوطًا بأشياء أخرى لحساب الوطن أو النقابة أو القبيلة أو التنظيمات السرية، سواء أكان هذا اعتناقًا وعقيدة، أو من باب الملل وإزجاء وقت الفراغ، وبديلًا لحل الكلمات المتقاطعة.

والمختصون في شؤون الحب يقسمونه إلى مراتب تبدأ بالميل، ثم الحب، ثم الغرام، فالعشق، لكن الواقع فيه، أي الممارس، لا يقف كثيرًا أمام هذا التقسيم، إنما يفعل المستحيل كي ينمو بشكل صارخ ـ وفاضح ـ حتى يصبح حبًّا ضخمًا شامخًا، وفاشلًا أيضًا، ليستمتع فور فشله بالبكاء بين يدي الذكريات، ومرحلة وصول الحب الناضج إلى

فشله العظيم هي التي اكتشف فيها الأدباء أنهم شعراء أو روائيون. فقد كانت كتابات الأدباء ـ وبالذات الأولى ـ تحقيقًا لما فاتهم تحقيقه، وانتقامًا ممن تعذر الانتقام منهم. وفي حالات كثيرة ـ نعرفها جيدًا عن أصدقائنا ـ نجد أن هذا الحب، وممارسة هذا الانتقام، يتمَّان بعيدًا وبمعزل عن الملهمة الساخنة، وزوجها، ووليدها أيضًا، لأنهم ـ في أحيان كثيرة لم يعرفوا شيئًا عما جاء في الرواية أو القصيدة، لعدم جدية الحكاية أصلًا، أو لعدم حدوثها من الأساس، أو لعدم إجادتهم القراءة والكتابة في أغلب الأحيان.

وليس لدينا ـ في الأدب العربي ـ قصة حب ناجحة بالمفهوم العاطفي، فقد جرى معظمها لحساب شعراء يهتمون بالمقام الأول بهذا العذاب الكاسح الناجم عن الفشل، وكأن نجاح تجربة الحب هو انتقاص يضر بنفوسهم ويحولهم من عشاق إلى أزواج، حتى عنترة بن شداد العبسي تزوج من عبلة ـ حبيبته ـ بعد مواقع حربية وبطولات مستحيلة علينا، وكان يمكنه أن يتزوج ـ بصفته فارسًا لا عاشقًا ـ من أي واحدة من عبلات القبيلة، التي اختُصرت في مفهومه الضيِّق إلى عبلة واحدة، في حين أن عشاق العرب جميعًا ـ وقصصهم شاهدة في كتب المدارس ـ توقفوا عند البكاء في أثر الحبيبة التي ذهبت بعيدًا. وقد يكون مفيدًا هنا أن أقرر على مسؤوليتي، أن قصائد عنترة بعد زواجه من عبلة لم تكن في مستوى قصائده قبل هذا الزواج، ولذا فقد شكك النقاد المعاصرون فيها واعتبروها منحولة أو موضوعة عليه، في حين أنني أعرف ـ من بعض الثقاة ـ أن عنترة قال هذه القصائد وهو جالس أمام الخيمة

يداعب وليده مالك الصغير، حتى تنتهي عبلة من قلْي البيض وتقمير العيش، كان يرتكز إلى سيفه الصدئ البارق المتثلم!

ويموج تاريخ العالم بالعشاق، ذوي التجارب الفاشلة جدًّا («نابليون» و«ديزريه») أو الناجحة جدًّا («كليوباترا» و«أنطونيو»)، حتى إنها من قوة نجاحها مارساها عدة مرات، غير أن عشاقًا آخرين وقعوا في مأزق تفسير انتحار «كليوباترا» بعد ذلك، والأمر بسيط، فـ«كليوباترا» كانت ـ في تكوينها ـ شاعرة معاصرة لا يشبعها إلا الفشل المتلوي في شكل ثعبان من نوع غير مأمون.

وقد نجحت وسائل التمثيل ووسائطه ـ من سينما وفيديو وتلفزيون ـ في امتصاص عمق مشاعر الحب، وحولتها إلى ألياف من المشاعر الصناعية تصلح للاستخدام عدة مرات دون أن تجرحك مرة واحدة، مثل مشاعر الأخوة والصداقة والأبوة أيضًا.

كلمات لها معنى

هذه هي النتيجة العصرية المؤلمة: فقد أصبح عدد الذين يموتون في فراشهم أكثر بمراحل من الذين يقضون نحبهم في الهواء الطلق.

*

أخيرًا رأيت حبيبتي الأولى، فقد وضعتني الظروف حكمًا في موضوع طلاق ابنتها الثالثة.

*

في دعوة عيد ميلادي:
رجاء عدم اصطحاب الزوجات والأطفال والكتب.

*

الزوجة كالجملة المفيدة، قد لا يكون لها محل من الإعراب.

*

تأخذ الأمهات وقتًا طويلًا حتى يصبحن ذكيات كالجدات، ساذجات كالبنات القاصرات.

*

يكفيها أنها قدمت لك مشروبك المفضل وكانت حافية القدمين، اسكت أرجوك!

*

هذا عصر ذوي المواهب المحدودة، وإلا فكيف كنت ستملأ هذه الصفحات ذات العدد الضخم في صحف كل صباح؟

*

أكثر إثارة من الفاتنة التي استحمت باللبن: الأرنب في الملوخية.

البؤس الجميل

هذا الإحساس الواسع الذي لا يترك أحدًا

البؤس حالة من الشقاء تصيب مخلوقًا، بصفة مؤقتة أو دائمة، تجعل من حياته تجربة للجحيم، ولا يعترف علماء النفس اعترافًا واضحًا بحالات البؤس، ولكنك في مؤلفاتهم تواجه ألفاظًا ومصطلحات مثل عدم التوافق، الإحباط، عدم التحقق، الآخرين، الاكتئاب، إثبات الذات، الفشل، الإفلاس النفسي أو الخواء، عدم الثقة، الجبن، التعسف، الإحساس بالظلم، حمى الانتقام، الإسراف، الفقر، والخوف من العناصر السابقة أيضًا يدفع للبؤس المبكر، ويقف الآخرون على الطرف المواجه لمعادلة الأنا أو الذات ليقيموا لنا معسكرًا من البؤس. وأي شيء في العالم يمكنه أن يصنع بؤسًا حتى لو كان تحقيقًا للأمنية الغالية، وكثيرون يخلطون بين الكتابة وكاتبها، الكتابة يمكنها أن تكون تشكيلًا متألقًا وضاء مع أنها تتعرض للبؤس، وكاتبها بائس أيضًا، رأيت البنَّاء الذي نفذ مقبرة أغاخان على تلال أسوان أوائل الستينيات، يداه، وأنامله، تتحكم بإتقان معجز في تشكيل

الرخام، عيناه تتلمسان السطوح الوضاءة باحثتين عما لن أراه ـ أنا وأنت ـ من عيوب، ومع ذلك ظل الرجل ضيق الصدر يدعو على الخلق بالخراب الواضح، وأثار هذا الأمر فينا اضطرابًا صغيرًا خشية أن يكون الرجل غير قادر على العمل تحت عيون الآخرين، لكن المهندس المختص أشار بألا نهتم، وأن الرجل هكذا، وأنه شخصيًّا يسمعه من بعيد خلال عمله منفردًا.

وكثيرون من كتاب التهكم والسخرية يعانون من البؤس، وقد رأيت المرحوم محمد عفيفي ـ صاحب التفاحة والجمجمة ـ وهو يتشاجر مع بقال وترك النقود وما اشتراه مزمجرًا، والبائع ظل مذهولًا يقول للواقفين: «أنا لم أفعل شيئًا». ومحمد عفيفي هذا هو أشهر صاحب أسلوب ساخر في الأمة العربية الحديثة. ولا يخلو عالم البؤس من ملوك: «هنري الثامن» ـ ملك إنجلترا ـ الذي داهمته رغبة بائسة في المتعة حتى قتل صديقه الأثير في صحن الكنيسة، الملك الضليل ويقال إنه الشاعر امرؤ القيس، والملك «أوديب» الذي أصبحت علاقته مع أمه عملًا مسرحيًّا باهرًا عن حالة بؤس مروعة، وهناك من كتب عنه ما يثبت أنه كان الملك المصري القديم «أمونحتب» الرابع ـ «أخناتون» ـ تأسيسًا على ظهور أمه معه في لوحات المعابد ـ وهي الملكة «تي» جنبًا إلى جنب مع زوجته الشهيرة «نفرتيتي».

ويصف الصوفيون أنفسهم بالبؤس في بدايات بحثهم عن الحقيقة المطلقة ثم لا يلبثون أن يركنوا إلى ما أراح وجدانهم ليستريحوا، وفي المقابل قامت المذاهب والمدارس الوجودية الفلسفية بإضفاء

البؤس على من لا يدرك حدود وجوده وقيام كيانه، وبدا «جان بول سارتر» و«سيمون دي بوفوار» سعيدين ـ مع أن البؤس كان يعشش في غضونهما السعيدة، وأشهر شاعر بائس في العصر الحديث هو عبد الحميد الديب، وأشهر مضحك بائس هو الممثل عمر الجيزاوي، وأشهر ممثل عبر عن البؤس المثير نجيب الريحاني، وكانت فاتن حمامة الشهيرة قد وقعت فترة في دائرة أفلام البؤس الطاحن مع حسن الإمام، وأكثر النهايات المعروفة بؤسًا: شاه إيران الأخير وهو يبحث عن ملجأ ينهي فيه حياته، وتعد الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ ذات بؤس مركز على الزعيم جمال عبد الناصر، وأقسى نهاية سريعة للبؤس: الطريقة التي قُتل بها الشاعر أبو الطيب المتنبي، ولم تكن الخنساء ـ شاعرتنا القديمة ـ بائسة مع أنها قدمت للاستشهاد ولدين في الجاهلية وولدين في موقعة القادسية، وكانت فرحة بذلك (هل هو قمة البؤس؟)، ولم تستطع كل الوسائل إنقاذ «جان دارك» من نهايتها البائسة احتراقًا على كومة حطب متهمة بالإلحاد ـ مع أهمية قيادة فرنسا المهزومة إلى شاطئ النصر، وكانت «تاييس» غانية بائسة في عصر الإسكندر بالإسكندرية، ثم وقع في هواها راهب سلمها إلى نعمة التوبة وسلمته إلى سعير البؤس تسولًا في الشوارع، ورحلت الجميلة الفاتنة «مارلين مونرو» انتحارًا بأقراص مهدئة لتلقي بظلال البؤس على حياتها ـ كان من عشاقها الرئيس «كيندي» الذي أودى به الحظ البائس للقتل في ولاية تكساس، وهو الحظ البائس الذي أنهى حياة الرئيس أنور السادات مع أنه كان محبًا للحياة المتألقة السعيدة. أما أكثر المشاهد بؤسًا في الوجود فهو اختناق القمر في ليالي الشتاء

الباردة، وآخر بيان يلقيه حاكم مخلوع، ثم ناهيك عن أن يداهمك بؤس وأنت غير مستعد له.

كلمات لها معنى

لا تحاول أن ترفع الغطاء المزخرف على الصبر
كي لا تكشف عجزًا.

*

حتى حبيبتي الأولى ـ كانت تحبو نحو القمر.

*

المشاعر مثل صوف الغنم، تحتاج إلى وقت كي تتحول من منبتها البدائي لتصبح ملبسًا راقيًا، وإنسانيًّا.

*

يمكنك تفسير الأمور لو أنك أضفت إلى دوار البحر، والحب، والطائرة، والفراغ، والارتفاع: دوار الحضارة.

*

من بين ضحايا الغرام، لا يوجد واحد عقره الكلب.

*

جياد السباق أو الجر أو كسح النفايات لا تصلح للحرب.

الحسد

يتمدد الحسد في النفوس ليتماوج ظاهرة واضحة في الشوارع، والبيوت، وغرف النوم، والأزياء، والعقائد، والمأكل، والمشرب، والتاريخ، والموت، والإنجاب، والمقتنيات، والزرع، والضرع. الكل يلمس هذه الظاهرة، ويحتك بها، ويستعيذ بالله من شيطانها، ويدرك مدى نشوب أظفارها في الجماعات البشرية ـ حتى تلك التي تتذرع بالعلم لترفضها، إذ إن العقل البشري لا يزال معاندًا يأبى الخضوع لهذه الظاهرة ما دام غير قادر على تفسيرها، ويغمض ـ هذا العقل ـ عيونه عن قيامها الواضح.

وأي واحد ـ مهما كان ـ داهمته نزعة الحسد ذات مرة: أي تمنى زوال النعمة عن شخص ما، ومن أدمن الحسد صار حسودًا، واتسم بهذه الصفة الشريرة التي هي محصلة لقوى الغضب والحقد والكراهية، تدمر راحة الليل وحركة النهار، وتغيب بسببها متعة الدنيا ليتحقق عذاب الدنيا والآخرة، حيث تنخر مخالبه وأنيابه في الفؤاد ليصبح ملائمًا لنفث هذا الوهج الشرير.

وأول حاسد كان إبليس ضد أبينا آدم فور أن خلقه الله، لتبدأ تلك الكارثة التي أودت بآدم وزوجته إلى الهبوط من الجنة إلى الأرض، والتي نعاني منها حتى الآن، ثم كانت ثانية حالات الحسد في واقعة قابيل وهابيل التي نعرف جميعًا تفصيلاتها، بعدها اتسعت نوازع الحسد باتساع العالم، ووصلت إلى درجة أن يتمنى شخص زوال النعمة ـ أي نعمة ـ من شخص آخر ـ أي شخص آخر ـ دون سابق احتكاك. إنه الحسد في حالاته الأقصى، إنه الشر المجرد، يحسدون الغجر على ظلال الشجر، والغجر ـ كما نعلم ـ أقوام رحل لا يقيمون في مكان محدد. ثم إن الأمر يصبح مدهشًا عندما يدخل الحاسد إلى ساحة ذات أضواء باهرة، فما يكاد نظره يطوف بها حتى تنفجر المصابيح واحدًا تلو الآخر في إيقاع مرعب. حدث ذلك أثناء تنفيذ مشروع السد العالي في أسوان، وكان العاملون يتابعون بعيونهم هذا الحاسد في توجس وقلق، أشعل النار ـ أعوذ بالله ـ في أثاث قاعة المطعم، استدعاه المدير الإداري وطلب منه أن يستريح في البيت دون عمل، فوقع سقف المكتب على المدير الإداري. ويوم تحويل مجرى نهر النيل في مايو ١٩٦٤ صدر أمر بترحيله عنوة من جميع مواقع العمل، لقد كان الموقع غاصًّا برؤساء الدول الضيوف القادمين من الشرق والغرب ـ عدا أمريكا وغرب أوروبا ـ وقيل إنه وقع صريع عملية حسد ضد مواطن صعيدي فقتله أهله سرًّا، إذ إننا لم نره، ولم نسمع عنه بعد ذلك. ولعل الحسد ـ في الجماعات البشرية الفطرية والبدائية والقبلية ـ أكثر قيامًا وتفاعلًا وانتشارًا، ونرى آثاره في طقوس ورموز إتقانه أو الحد من تأثير عيونه التي

تفلق الحجر، ابتداء من ليلة الفرح ـ التي تسبقها ليلة الحناء الشهيرة عندنا، وللحناء دور كبير في قطع الطريق على الحسد كي لا يصل إلى العروسين.

وفي معتقداتنا الشعبية أن شيطانًا معينًا يعمل نشيطًا في هذه المناسبات ولا يحد من تأثيره سوى الحناء، ولهذا السبب فقد كانت الطقوس تقتضي بألا تقترب الراغبة في حلقة الزار من تضميخ أطرافها بالحناء تسهيلًا لترويض الشيطان الذي يرافقها، ثم بعد ذلك مباشرة تتم عملية تضميخها بالحناء، وفي موقف مضاد يهتم الناس في بلادنا ـ أو كانوا ـ بالحناء تطهيرًا للولد قبل الطهور ـ أي الختان ـ حماية من الحسد. كما أن الخرزة الزرقاء ـ كعنصر من عناصر اتقاء الحسد ـ تزين جبهة العروس، كما تختفي تحت إبط العريس التحويطة، وهي تميمة تحوي كتابات غامضة، ومن باب المغالاة يضعون هذه التميمة مع خليط من الكمون والحبوب والملح في حرز متين، وبذلك تكون التحويطة أكثر فاعلية في إحاطة العريس بالحماية المناسبة خشية تدمير هذه الليلة الحساسة. ثم لا تنس الحجاب المدسوس تحت الوسادة، والحرز المعلق فوق دورة المياه، والكف المشغولة من سعف النخيل والمعلقة على الحائط المواجه للفراش السعيد، ولا يخلو الأمر من سنابل القمح المنسوجة والمنمقة في تكوينات المثلثات البديعة، التي تزين أول حائط مواجه للباب. وتتمتع الحيوانات ـ أيضًا ـ بطقوس اتقاء الحسد، حيث يقوم أصحابها بنشر الدقيق على جبهات الأبقار والجواميس عند دخولها لبيوت أصحابها الجدد لأول مرة، كذلك فإن الأمر لا يخلو من حجاب يعلق في رقابها، ويغلف

حجاب هذه الحيوانات بالجلد المانع لتسرب المياه، كما يلقى بالملح مع خليط الشبة تحت الإناث فور تواصلها مع الذكور. واتقاء الحسد يكمن وراء تعليق جثث التماسيح المحنطة فوق أبواب بيوت القاهرة القديمة، وتقوم معارك كثيرة بسبب ما قد يحدث لها من عبث بالحراب والأسياخ، كذلك فإننا رأينا ـ بالضرورة ـ إحدى الجدات المسنات وهي ترش الماء المالح أو بذور الفول النابت في عرض الطريق المؤدي لبيتها ـ وفي الفجر بالذات. وبعد كل ذلك فللحسد نصيب معروف في الأغاني الشعبية، (يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس)، وفي الأمثال أيضًا ـ وبشكل وافر، ابتداء من حسد العريان على شراء الصابون، وانتهاء بعينهم الصافية ما خلت عافية ـ أي لم تترك لنا القوة اللازمة، وعليك أن تتلو في إيمان: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» والله هو الصادق العظيم.

كلمات لها معنى

حتى الغربان على أطلال الخرائب يمكنها أن تكون مشهدًا بالغ الجمال.

*

بياناتك العصرية الواجبة في بطاقة هويتك: الجنسية، الديانة، الحالة الاجتماعية، العمل، عنوان الإقامة، عنوان المقبرة.

*

لماذا يتمرغ الشعر في الأكاذيب؟ لأنهم قاموا بتدليله مبكرًا وزعموا أنه الابن البكر للغة، وأضاعوا حق القصة.

*

الأخلاق الكريمة تبدو أكثر تألقًا

حين تطل من بين الأحجار الكريمة.

*

مؤامرة: جدتي، ثم أمي، ثم زوجتي، هن الخير والبركة على التوالي، فماذا عني أنا؟

*

تتساويان عند مواجهة التاريخ وجراب الحاوي: الفطنة والغفلة.

*

ظلت الأسماك مدهوشة لقدرتي الفائقة على الغوص في الهواء.

*

الشراهة لا عفة لها.

السحر

ذلك الغامض المرعب المثير للخيال والشر والقلق

أثناء إعدادي لهذه المادة، كاد عقلي يسوخ في عالم السحر دون عودة، تماثيل رابضة أمام الأبواب تحرس من بالداخل إلى الأبد، وتحيل المداهم إلى حجر، سطوح منقوشة بنصوص غامضة تشعل النار وتثير الأعاصير لتلتف حول من يقترب. أبقار ـ في جنوب شرق آسيا ـ تُعبأ بأدعيات لتنطلق كالصواريخ ـ أو كالطوربيدات ـ لتدمير الهدف، ثعابين مرعبة تستجيب للموسيقى ولنصوص (التعزيم) لتستنيم تحت كف اليد عاجزة أو ساكنة ـ وهذا أخف أنواع السحر وقد شاهدناه جميعًا. واحد في المكسيك انتقم من زوجته الخائنة عن طريق إطلاق تمساح في أثرها مع أن القرية بعيدة عن كل الروافد والجداول والأنهار، وقد سعى الناس في أعقاب التمساح فلم يجدوا له أثرًا. واحد في غابات أفريقيا الوسطى طارد أحد خصومه حتى أوقع به بجوار الشجرة التي يلوذ بها أحد السحرة فانفتحت طاقات في جذعها لتبتلع الخصم. قبائل البوشمن ـ في أفريقيا أيضًا ـ تُجل

ساحرها إلى حد العبادة ـ أعوذ بالله ـ هذا الذي يشعل نار التبريك حول المواليد كي ينالوا الإذن بالحياة. في أستراليا ترقص القبائل في كهف مليء بالأبخرة والصياح والتهليل والحرارة الشديدة، والذي يمكنه أن يواصل ذلك حتى تهترئ ملابسه ثم تعود ـ هذه الملابس ـ فتظهر من جديد على نفس الجسد، يصبح سيدًا عليهم. حالات سحرية متعددة وكثيرة في الشرق والغرب وفي السهول والوديان وفي الغابات والصحاري، قام بحصرها أدباء ورحالة ومستشرقون ومغرمون بحالات السحر والشعوذة، أي كل تلك المشاهد والرؤى التي لا يستطيع العقل البشري الاقتناع بها أو تفسيرها لغموضها واحتوائها على (ما دق وخفي) وما يفعله الإنسان من حيل وألاعيب (بما فيها من إخراج الباطل في صورة الحق) كما تصفه كتب الدين، أو كما جاء أيضًا في حكايات ألف ليلة وليلة وما يوازيها من كتب حكايات التراث عندنا وعند غيرنا في أنحاء العالم.

وقد ورد ذكر السحر في القرآن الكريم ـ وخاصة في قصة موسى وفرعون، في مشهد السحرة الذين تحداهم سيدنا موسى. وكل الأديان السماوية تسلم بالسحر، وإن كان الإسلام يصفه بأنه تخييل يخدع الأعين، وهو الشعوذة أيضًا: «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ» صدق الله العظيم. وهو ـ السحر ـ من المعتقدات الشعبية من قديم، ويلازم العقل البدائي الذي كثيرًا ما يفسر به الظواهر الجوية المستعصية مثل البرق والرعد والمطر وقوس قزح، ومن المفروض أنه كلما تقدم العقل في طبقات الإدراك العلمي، يتراجع السحر بسطوته، وهو ما يحدث بالفعل إن كان الأمر يتعلق بالشعوذة.

أما السحر الخالص فلا يزال منطقة مغلقة على كثير من العقول العلمية المعاصرة. يرصد «جيمس فريزر» في كتابه «الغصن الذهبي» حالات عديدة يبدو ـ من حماسه في صياغتها ـ أنه مقتنع تمامًا بها. وهناك الساحر العصري الشهير: «هوديني» الذي أربك العلماء في عواصم عالمية عديدة، وهو الذي قال إنه كلما اتسع المجال للروح وسلطانها فُتح للسحر باب فسيح. وقد كتب كثيرون من العرب المسلمين عن السحر، ابن النديم في «الفهرست»، ابن خلدون في «المقدمة»، وغيرهما، كانوا قد أشاروا إلى أن هناك سحرًا محمودًا لا يضر، وآخرين قدموا ما يسيء إلى الناس، لكن ذوي الإدراك العالي من الفقهاء والعلماء مالوا ـ بشكل عام ـ إلى تركه. ولعل سحر الثعابين هو الباقي الآن من ممارسات السحرة التي يمكن لنا أن نشاهدها بسهولة. جميعنا رأى ذلك، حيث يتم للساحر السيطرة على هذا النوع من الأفاعي ثم اصطيادها، وكان يمارس في بلاد الشرق منذ عصور موغلة في القدم، سواء باعتباره وسيلة من وسائل التسلية، أو طريقة لإبعاد الزواحف الخطيرة عن التجمعات البشرية، أو لإبراز القدرات الخارقة الباقية تحت سطوة الإنسان. إن مشهد ثعبان الكوبرا الناشر لحنجرته أو «درقته» ـ كما يقول أهل الصعيد في مصر ـ متماوجًا بها تحت إيقاع الموسيقى ـ في الهند بالذات ـ تمهيدًا لخضوعه تحت كف الساحر، لا يمكن إلا أن يهز الوجدان ويثير في الفؤاد وجيفًا وتوجسًا وخوفًا ووجلًا، كما يمكن أيضًا الهيمنة على الحية السامة ـ والتي ليست في حجم الكوبرا ـ بواسطة حركة إيقاعية تنبعث من جسم لامع أو عاكس كالمرآة. لكن الموسيقى

ذات الإيقاعات المتسقة (أي الشرقية) تظل عنصرًا يصلح لكثير من الأفاعي حتى تلك الثعابين الضخمة ـ العاصرة ـ في الغابات. المهم أن الأمر لا يتعلق بالموسيقى أولًا وأخيرًا، بل بقدرات العازف الساحر، والساحرة أيضًا، وهو ما يتوارثونه عن أسلافهم في كثير من الأحيان. ولعل وجود رسم الحية الفرعونية على واجهات المقابر المصرية القديمة وفي تيجان الملوك وفي مساند مقاعدهم يشير إلى عالم السحر الموغل في أنواع الثعابين.

كلمات لها معنى

هذه الفوضى الجميلة التي يتراقص فيها القطن خارجًا على اللوزة.

*

الفرق بين وجع الدماغ ووجع القلب: توقف الأول عن الفهم، وتوقف الثاني عن الحب.

*

هناك ـ على المدى ـ تتألق الجبال الشاهقة وتحت إبطها وأقدامها تتناثر البيوت، لا تقترب أكثر حتى لا يتوقف نظرك عند حوائط البيوت فقط.

*

الشكل الهندسي الجميل والدقيق لسنبلة القمح يحول بينها وبين أن تكون مجرد شكل هندسي يخلو من الخير.

*

الكلاب تهلك كثيرًا من قدرتها في النباح المجاني،
الذئاب لا تفعل ذلك.

*

بدأ الأسد يندثر خارج حدائق الحيوان لأنه فرحان بلقب الملك.

*

البؤس مثل الكلب، لو تعود عليك فلن يتركك، انتظارًا لأن يربض مخلصًا فوق قبرك.

*

سبب فشل مباحثات السلام أنها تُقام حول موائد صنعت في الأصل للالتهام.

العشرة الطيبة

يا معشر القراء.. كدت أتسلق أعلى ما في الأرض من جبال كي أخطب فيكم، فاتضح لي أنني لا أصلح لتسلق الجبال أو حتى التلال، ولا الهيمنة على معشر القراء، وأن كل ما أملك ـ رعاكم الله ـ مجرد العِشرة (رجاء كسر العين مع تسكين الشين)، أي المعايشة الطيبة الهامسة، والتي اضطربت بسرعة في عصرنا الحديث، حتى إن لفظ «العشيرة»، الذي كنا نلوذ إلى دفئه، مع إحساسنا بالتواصل الإنساني الراقي الرقيق، لم نعد نستخدمه الآن، فقد احتل لفظ الأسرة أو العائلة موقعه، ثم لم يلبث الرقم القومي أو رقم البطاقة الشخصية أن أزاح كل ألفاظ معجم العلاقات الإنسانية جانبًا.

إلا إن مسألة «العشيرة»، التي بدأت ألغيها، بسبب اندثار معناها، الذي أشرت إليه: بدأت تفح بمعانٍ أخرى، أثارت في نفسي الشر الكامن، فبعد أن كنا نسمع من يهمس في هدوء عذب: اللهم عشر خطاي، أي اكتب يا إلهي ـ لكل خطوة عشر حسنات، داهمت المعاني الراقية الموروثة أنواع أخرى مقلقة، فإذا ما الفعل «عشر» ارتبط

بالحمار، فيعني أن الحمار كرر النهيق في طلق صوتي واحد، وإذا ما ارتبط بالغراب، فيعني نعق، أما الناقة ـ أنثى الجمل ـ فإنها تعني عشراء، وفي اللغة العامية العربية: تعني الناقة العشار، وهو اللفظ الذي لا يزال قادرًا على الحياة الشعبية حتى الآن، مع أن الرقم، أو العدد إذا ما عشر، فيعني مباشرة أنه كان تسعًا، ثم أصبح عشرًا بعد زيادة واحد إليه، فإذا ما عشر فلان القوم: أخذ عشر أموالهم ـ هذا ما في المعجم اللغوي، ولا دخل لي فيه، لأني كنت ـ منذ سطور عشرة ـ أحاول أن أعتشر العشرة فينا ـ وفي أي قوم ـ في حدود التخالط والتصاحب والتصادق، لكي نصل معًا إلى تلك الجلسة الحميمة بليلة العاشوراء، في اليوم العاشر من شهر محرم، والذي لا يزال بعضنا يحتفظ بقدرة طيبة كي يقدم في هذا اليوم إلى ضيوفه طبق العاشوراء ـ أو العاشورة ـ المجهزة من حلوى مقشور القمح، ذات الطبيعة الشعبية الساحرة، والتي ـ مع الأسف ـ سوف يحاصرها الاندثار العصري، بالرغم من إضافة اللبن والزبيب ومكسرات الجوز واللوز.

وقد أفرزت العشرة القديمة ألفاظًا، ما زالت تسعى بين مصطلحاتنا وأسماء ذوي الشأن من أعلامنا، مثل الكاتب المسرحي نعمان عاشور، ونقيب المحامين المصريين سامح عاشور، لكني ـ بقدراتي المحدودة ـ فشلت في العثور على حاكم طوال التاريخ العربي، احتوى اسمه أي عاشور، وكانت المفاجأة أن الذي لقب بالعاشر، كان الموظف الحكومي في الموانئ والمطارات، الذي يقدر المكوس والضرائب، ويقوم بتحصيلها على السلع الواردة، وقداِندثر هذا اللقب الآن، إلا أني كنت في «دراو» ـ التابعة لمدينة

كوم أمبو بأسوان ـ وتعتبر إحدى محطات حركة درب الأربعين في الصحراء الغربية بين مصر والسودان ـ ففوجئت ببعض من كنت جالسًا معهم يتحدثون عن صديق لهم بصفته عشارًا، فاعتقدت أنهم يقصدون واحدًا له دراية بطريقة «عس البهائم»، أي يعس في بطن البقرة أو الجاموسة ـ ليحدد إن كانت حاملًا. أقصد: عشارًا، وهذا ـ لفظ العس ـ ولا ينطبق على الأنواع الأخرى، مثل الجمال والغنم والماعز، لكنهم كانوا يقصدون واحدًا يقوم بتحصيل ما يراه مناسبًا من نقود على العابرين في درب الأربعين، مصطحبين أي حيوان، نعم: عشَّار قاطع طريق.

لكن اللغة العربية مفعمة بالعاشورات ـ أي الجمع الخاص بولائد لفظية العاشوراء، فإن عشر فلان مبلغًا من المال أخذ العشر ـ أي واحد من عشرة، وأن عشر التسعة: جعلها عشرة، وأن عشر قومًا صار عاشرهم. فإن جاءت جماعات من البشر، أو المخلوقات الأخرى عشارًا: أي جاءوا فصائل متوالية، وكل فصيلة عشرة، وإن قبض على لص استولى على عشارة من متجر: أي أنه سرق من كل نوع بالمتجر قطعة ـ دون الاهتمام بنسبة هذه القطعة إلى ما في المتجر، فإن صار قوم عشرات، أي أنهم أصبحوا متفرقين في أماكن متعددة، أما العشاري، فتطلق على الثوب الذي طوله عشرة أذرع، والغلام العشاري، هو الذي بلغ عمره السنوات العشر، والعُشْر ـ كما هو معروف لنا جميعًا ـ فهو جزء من عشرة أجزاء، ثم أطلقت على ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها، والوحيدة التي يصل الحمل فيها إلى عشرة أشهر هي الناقة أنثى الجمل: العشار، إنه لفظ يستخدم

حتى الآن في بلادنا بشكل عام، على أي أنثى لأي كائن حي بمجرد التأكد من أنها حامل أو حبلى. أما العشير فهو الصديق، كما يطلق ذات اللفظ ـ العشير ـ على الزوج، وعلى الزوجة، وعلى أي واحد من الأقارب أيضًا، أما المعشر، فهو كل جماعة أمرهم واحد، وفي التنزيل العزيز: «يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي»، ثم المعشار، ويعني جزءًا من عشرة، ثم لم يلبث أن أصبح مصطلحًا للتحديد التقريبي: لقد حصل فلان على المعشار، ونحن ـ المصريين بالذات ـ أطلقنا العاشر من رمضان على مدينة حديثة احتفاء بذكرى اقتحام الجيش المصري لشبه جزيرة سيناء، تحريرًا لها من إسرائيل، كما أن عشري ـ أو العشري ـ من الأسماء المنتشرة في البلاد العربية، اسمًا لأفراد أو عائلات. ويصبح مناسبًا ـ نتيجة لما أعانيه من معاشرة هذا الموضوع ـ أن أذكر لكم أن سيد درويش ـ الموسيقي المعروف ـ قدم مسرحية «العشرة الطيبة»، وكنا نتكلم عنها فنفتح العين والشين: العَشَرة الطيبة، وكانت تعني بذلك دورة في ألعاب النرد كما نفهمها نحن، وفي جلسة كان فيها الراحل المرحوم عبد الفتاح مصطفى ـ صاحب أغانٍ عدة لأم كلثوم ـ نبهني بصوت حازم: اسمها العِشْرة الطيبة، بكسر العين وتسكين الشين، فتغيرت المعاني، التي كنت أضمرها لاحتياجي الشخصي للعشرة، أي الصداقة، دون العشرة الخاصة بالألاعيب أو الألعاب، أو السياسة، التي تحتل العالم كله الآن، وبسببها كدت ـ يا معشر القراء ـ أتسلق أعلى ما في أيديكم من أوراق، كي أخطب فيكم، وأتمنى أن أستطيع ذلك مرة، أو عشر مرات إن أمكن.

كلمات لها معنى

الحمل والثور والسرطان والدلو والعقرب، وعدد كبير من تلك الأسماء تطلق على مدارات السماء في أبراج، لا نعرف عن عصورها ما نعرفه عن أبراج الفيديو والدولار والكومبيوتر والإنترنت والأشعة والبؤس الملون المعاصر، فلماذا لا نعيد النظر فيما لا نفهم لحساب ما نعتقد أننا به نفهم؟

*

لا يمكن لجائع أن يستمتع بمشهد غروب الشمس ذي الشجن الطبيعي الجميل.

*

أخطر ما في لفظ الذهول، أنه ـ حين يداهمني ـ يحتوي ذهني بين عضلاته.

*

حرب ضارية بين الأفكار المنطلقة في الفضاء، والمعادن الثمينة، التي لا تزال تحت أقدامنا في عمق الأرض.

اللصوصية

عالم الاستيلاء على الأفكار والقصص والأموال وتكنولوجيا التزوير

كان من المفروض أن أصبح لصًّا، لكن ظروفي ساءت فأصبحت كاتبًا، واسترخت هذه «الاعترافة» في مدخل واحد من كتبي لتثير حولي - وضدي - جدلًا، مع أنه لا يوجد على ظهر الأرض من لم يكن لصًّا ذات مرة، ولا سيما في العصر الحديث الذي ابتكر وسائل جديدة لأي نشاط إنساني. ومع أن المعنى الابتدائي، أو التعريف الأولي للصوصية هو الاستيلاء على أشياء الآخرين دون رضاهم، أو في غفلة منهم، إلا إن العصر الحديث توسع في المعنى حتى ظهر أنواع من اللصوص يمارسون ذلك الأمر بالرضا ودون أي غفلة: لصوص العواطف وابتزاز المشاعر، مثلًا، في العشق، وفي العلاقات الأبوية، وفي صياغة الأغاني استعمالًا لحالات لا يعيشها أصحاب الأغاني. وفي حالات كثيرة يستعير ذوو الشأن تجارب الآخرين لتبدو وكأنها تجاربهم الخاصة، ونادرًا ما يردونها لأصحابها. ذات مرة قصت

النجمة المعروفة فاتن حمامة ـ في حوار صحفي ـ حكاية حبها الأول الذي نشب مبكرًا بينها وبين صبي الجيران، والذي كانت تقف أمامه بالساعات، هي في شرفتها، وهو في نافذته، ثم اكتشفت بعد ذلك أن غرامها كان مع «قلة» مياه الجيران. والتمحيص السريع سيريق نوعًا من التلفيق على هذه الحكاية المثيرة للمرح، أهمها جمود القلة وثباتها دون حركة فترة طويلة، لكن هذه «الأملوحة» مستولى عليها من قصة مبكرة لأمين يوسف غراب. وقد انفصلت بعد ذلك أيضًا ـ ليرويها أديب كان وكيلًا لوزارة الثقافة المصرية أيام يوسف السباعي، وقد ظهر أنه أديب بعد أن تولى المنصب مباشرة، وكثير من الهياكل الأساسية للأعمال الأدبية الشامخة المعروفة مستعارة سرًّا من آخرين. هيكل «الإخوة كارامازوف» لـ«ديستوفسكي» يقف وراء الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ: «بين القصرين»، فالسيد رب البيت الشهير يجمع بين نوعين متناقضين من الحياة: الحزم والسطوة والتدين والمحافظة على البيت والدكان والشرع، ثم التحلل والنزق والتلهي بالسهرات الفاجرة مع الراقصات ليلًا بعيدًا عن البيت والدكان والشرع، فماذا كان الأب «كارامازوف» غير ذلك؟ وعليك أن تقارن بين اتجاهات الأبناء المحدودة عند نجيب محفوظ، والمتعددة عند ديستوفسكي. هناك أيضًا رواية «البيت والعالم» لـ«طاغور» الهندي التي تنام وراء ميرامار، «مرارة الأرز» ـ فيلم إيطالي ظهر أوائل الخمسينيات ومثلته «سلفانا مانجانو»، قارنه برواية «الحرام» ـ الجميلة والمؤثرة ـ ليوسف إدريس. سوف تجد، كمثال للسلب غير المرئي، عنوانًا فرعيًّا في الرواية القصيرة «حادث النصف متر»

لصبري موسى نصه، من التاريخ السري لرجل عادي، وقد أوحى لي هذا العنوان أن أكتب رواية كاملة عن شخص أقل من عادي، واستأثرت بالعنوان الفرعي ليصبح عنوانًا أصليًّا: «من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ». انظر لروايات الصديق صنع الله إبراهيم: «تلك الرائحة» ـ و«اللجنة»، وآمل أن تكون قد اطلعت قبل ذلك ـ أو بعد ذلك ـ على أعمال الزميل «فرانز كافكا». رواية «الأرض» الشهيرة لعبد الرحمن الشرقاوي تأتي من رحم «فونتمارا» للروائي الإيطالي «إينادزيو سيلوني». ولو كنت ذا إلمام بتفاصيل النص الروائي أو المسرحي في البلاد العربية، لنجحت في الوصول إلى أمثلة متعددة لهذه الاستعارات التي لا يردها أحد لأصحابها ـ إلا في النادر، لكن هذا لا تتحقق فيه اللصوصية بالمعنى الذي نرومه بالطبع، ولا سيما أن الأمور تتم بحسن النوايا. ذات مرة دعاني أصدقاء في سوهاج للمشاركة في ندوة حول مجموعة قصصية لواحد منهم تربطني به علاقة ود، ولأن المسافة من العاصمة إلى سوهاج تتجاوز الساعات الست في القطار السريع، فقد قررت أن أقضيها في قراءة المجموعة، كان الكاتب جميلًا وأسلوبه مريحًا، قرب نهاية المجموعة كانت ثمة قصة ما كدت أبدأ فيها حتى اضطربت، وبدا الاضطراب مؤثرًا في هدوئي. قصتي، نعم هذه قصتي، لم تكن منقولة (نقل مسطرة)، لكن أحداثهما متطابقة، وكانت هذه القصة قد احتوتها مجموعتي «القصص الأخرى»، وما كدت أصل سوهاج حتى سألت عن نسخة من مجموعتي القصصية هذه، وأعطيت المؤلف قصتي المتطابقة مع قصتِه ليقرأها، قال: إنها هي هي، لكنه أقسم أنه لم يقرأ لي هذه القصة،

وعندما اطلع على تاريخ نشرها لأول مرة في الصحف، قال بالحرف الواحد إنه ـ في تلك الأيام ـ كان مجندًا بالجيش، ولم يكن يكتب، ولم يكن أيضًا يعرف شيئًا عني، كان الموقف قد اضطرب بيني وبينه. الواقع الظاهر ينفي عنه الاستيلاء، لكن الأمر كان واضحًا، لقد قرأ قصتي هذه ـ في استرخاء، وتحوصلت داخل مخه في هدوء، لكنه ـ بعد سنوات ـ حين بدأ يكتب، أخذت القصة تتحرك من قاع المخ طالبة الخروج، وعندما خرجت استقبلها ـ هذا الذي أصبح كاتبًا ـ بمعزل عني دون أن يدرك أصول قيامها.

وعلماء النفس ـ ومعهم المتخصصون في تحليل الجريمة ـ يعرفون كثيرًا من اللصوص يستمتعون باللصوصية المجردة دون اهتمام كبير بالعائد منها (داء السرقة)، لنا قريب في قريتنا كان يستمتع بالاستيلاء ـ في منتصف الليل ـ على كيزان الذرة أو سنابل القمح، ثم، وبعد كل الجهد المبذول، يلقيها في الطريق عند عودته. وثمة ممثلة شهيرة في هوليوود كانت مصابة بهذا الداء الذي وصل إلى حد إلقاء القبض عليها أثناء إخفائها كيس شرائح بطاطس تافه القيمة. كما أن حالات لصوص الكتب معروفة: سواء من مكتبات البيع أو مكتبات الاطلاع العام، ومعظم هذه الحالات لأناس بعيدين عن حمى الثقافة، وكانت روايات اللصوصية ذات شأن كبير في القرون الماضية حتى النصف الأول من القرن العشرين، وخصوصًا قصص هؤلاء الذين يسرقون من أجل الفقراء وعلى رأسهم: «روبن هود»، وهو شخصية خيالية من القرون الوسطى.

إنني أخطأت حين فكرت في موضوع اللصوصية، فقد تذكرت

أمورًا ترهقني، وترهق غيري إذا ما كتبتها، ويكفينا الآن مشهد «اللص اليمين» الذي يقال إنه صلب على يمين السيد المسيح، ووعده السيد المسيح بأنه سيكون معه في الجنة يوم وصوله إليها، عليه السلام.

كلمات لها معنى

الفنان الحقيقي هو الشخص القادر
على الإنصات طويلًا لشخص مفلس.

*

يرهقك أن تمعن في الطرق التي يموت بها البشر، يقتلك أن تنظر: كيف يعيشون.

*

الصبر والمر والحنظل وأبو شوك أسماء لنباتات، وعندما تفشت الأمور ـ استولت على أسماء الناس.

*

حتى الكلاب التي بلا ذيل، دربت عيونها وآذانها على البصبصة المنافقة لأصحابها.

*

الفرق بين الكتاب والمرأة، أن الكتاب لا يبحث عمن يقرأه إذا ما هجره صاحبه.

*

مرعبة تلك الجمجمة التي تخلو من أجهزة الاستماع والرؤية والتذوق والمخ والجلد أيضًا.

*

الباطل يعشق الثرثرة، أخطر أسرار المسلسلات التلفزيونية.

السعادة

هبة من الله تنبعث في الروح مهما كانت الظروف والملابسات

منذ بواكير التفكير الآدمي، والإنسان مشغول بالسعادة، مهموم بوسائل تحقيقها: قفزًا، وسلبًا، واحتكاكًا، ومنافسة، وابتسامًا، ونهمًا، وعناء، وسطوة، وتدليسًا، وتضحية، ورقصًا، وقلقًا، واكتنازًا، وخبصًا، ومضاربة، ومقامرة، ومقاومة، ومداهمة، وفروسية، وشعرًا، وقناعة، وطمعًا، ونفاقًا، وعزلة، وشدوًا، وتهليلًا، ومرحًا.. مع أن أخطر ما في السعادة أنها ـ في المقابل وبشكل متلازم ـ تطرح البؤس، والعذاب، والتعاسة.

ولقد كان نيرون ـ الإمبراطور الروماني ـ سعيدًا وهو مستغرق في عزف الجيتار أثناء احتراق روما، سعادة طافحة يحس بها المنتقمون خلال قطع الأعناق والأرزاق ودهس الزهور. والدين الإسلامي يفوق كل الأديان الأخرى في الأمر بالتعفف والتسامي والعفو، والتطهر، وعدم الانسياق في إشباع الرغبات ـ كمًّا وكيفًا،

والسعي للوصول إلى النرفانا ـ أي الرضا الروحي والنعيم الناجم عن التأمل في غبطة وحبور ـ حيث تطمئن النفس، لتقوم سعادتها على الأمن الباطني، والابتعاد عن كل ما يسبب الألم والقلق والخوف، وهو أمر واسع، فيه ـ مع الأسس الدينية ـ كلام فلسفي وتربوي كثير، والدخول فيه قد يقودنا إلى ما يغرقنا: سعادة، وتعاسة أيضًا.

والمدينة ـ أي مدينة معاصرة ـ تحتوي على النواتج الجميلة في تدمير السعادة خلال كل العصور: والضجيج والفردية وصوت الإذاعات والمسجلات والآلات والمركبات (ولصوتها إقلاق يختلف عما يحدثه الضجيج)، وإنها لمتعة كبرى ـ سعادة لا توصف ـ أن تترك كل ذلك خلفك، وتخترق هذه الدنيا لتصل إلى الاتساع المذهل في آفاق الصحراء الساكنة الوديعة الصامتة. فإذا كنت في حاجة إلى صوت ناعم هامس، فعليك أن تستند بظهرك إلى الصحراء، وتضع قدميك على مشارف ماء البحر، عذرًا، فأنا لا أضمن لك الحماية من الأعاصير والأمواج الهادرة، أو أن يكون أقرب المخلوقات إليك: أسرة ذات ضجيج، أو حارسًا يبتزك، أو ذئبًا يمعن في جلستك السعيدة ويُقعي على مؤخرته قريبًا منك، إنه بالغ السعادة ـ هذا الذئب ـ كلما أمعن في وجهك المبتسم.

والسعادة تحب الصداقة، وتسري نغماتها الساحرة في مجال الحركة المغناطيسية التي تنطلق من أفراد ذوي قدرة على إشعاع الارتياح حولهم، ودون كلام، فكثيرًا ما يكشف الصمت عن قوى غامضة تبث السعادة في الجوانح، ولعل الضجيج ـ تعبيرًا عن الفرح ـ

يعني الخوف من السكون، والسكون يتيح التأمل، الذي هو ضد ضجيج الفرد والجماعة أيضًا.

ولقد كان جحا على رأس الأحرار الذين يملكون حق المتعة بما يحدث ولو كان مقلوبًا، وما نقل عن شخصية جحا ثم ما فعله الآخرون لحساب شخصية جحا ينم عن تغلغل هذه الرغبة في إذكاء روح المرح والسخرية لدى الناس، إذ يكاد يكون لكل شعب جحاه الخاص، ثم كل موقع، وكل جماعة بالتأكيد. وشريحة الأدب الساخر، أو فن القول المكتوب، قادرة على إثارة الابتهاج، لا يمكن أن تظل تعيسًا حينما تقرأ إبراهيم عبد القادر المازني وأبو نواس ويحيى حقي و«برنارد شو» ومحمد عفيفي ومحمود السعدني و«مارك توين» والجاحظ، وغيرهم كثيرون، يحول جهلنا الخاص دون أن نتذكرهم ودون أن نسعد بقراءتهم، إنهم منتشرون في أنحاء الدنيا: الماضي والحاضر.

ولا تزال السعادة أمرًا غامضًا، ولا سيما في الحالات التي تقوم فيها دون أساس مادي ملموس، أو سبب متوائم. وهي ـ في قمتها ـ تتساوى مع البؤس في أوجه، ذلك أن علماء النفس يرون في الغارق سعادة حالة مرضية، الإغراق في قراءة علم النفس والفلسفة يصنع عوائق تحول دون المتعة التلقائية، ولا يحقق دائمًا ـ من كثرة التحليل ـ ما نصبو إليه. وهو أيضًا ما تفعله الموسيقى ـ الراقية بالذات ـ أي الخالية من الضجيج، والتي في الشرق تمنحك متعة وجدانية، وفي الموسيقى الكلاسيكية: تمنحك متعة عقلية، غير أن الإغراق فيهما يخرجك من اللعبة كلها.

ونسبة السعادة في الملوك والعواهل والأباطرة والحكام والولاة ليست في صالح السعادة، ولا في صالح هذه الشريحة ـ القادرة ـ من البشر، فالبؤس والتعاسة يسعيان في نشاط كي يحتلَّا أكبر مساحة من هذه النفوس، لكي نكتشف أن الإنجاب واتساع الهيمنة واحتياز الأموال والصداقات ليست هي السعادة ـ برغم اعتقاد الكثيرين.

يبقى أمر لا بد من الإشارة إليه في سعادة، أن السعادة مثلها مثل التأليف والإبداع والرسم والرقص وإلحاق الهزيمة بالخصوم: موهبة، نعم: موهبة تحتاج إلى رعاية، كي لا تدمرها تلك الأمور التي استبعدناها خلال كتابة هذه السطور، أرجوك أن تظل صامتًا بعض الوقت حتى تتهيأ لمواجهتها.

وكم نحتاج إلى ذخيرة من الفرح والمرح والبشاشة والهدوء، كي نمتلك جزءًا يسيرًا من الحبور الوجداني الذي يخفف عنا ـ وعمن حولنا ـ كل هذه الضغوط.

كلمات لها معنى

القلب الجميل قادر على التصالح أسرع من الوجه الجميل.

*

الصداقة مثل الزبد: تفسد إذا ما استمر الجو حارًّا.

*

كلهم من الرجال: الطباخون، ومصممو ملابس النساء، والخطاطون، والخبازون، ومثيرو الشغب، وقادة الانقلابات

العسكرية، وبناة القصور والمعابد، والمقامرون، وأطباء التجميل، وقباطنة السفن، وموزعو البريد، وأفضل كُتَّاب الخطابات الغرامية، وجياد السباق ـ من الذكور أيضًا.

*

إذا ما انحنيت لمساعدة أنثى في حمل أثقالها: عليك ألا تنسى نظرة الامتنان التي لن تجدها في موقع آخر.

*

نصرخ من المكائد التي ينسجها الأقارب والأصدقاء، مع أنها تمنحنا وقتًا مؤلمًا ـ وجميلًا ـ لنقصها على الغرباء.

*

موائد المباحثات تميل إلى الاهتزاز، حيث تخلو من أطباق طعام نحرص عليها.

*

الذل ليس معاكسًا للكرامة، إنه ضد الإنسانية أصلًا.

*

مشغول بأمر بالغ الأهمية: كيف يتسنى لي تنفيذ عملية شنق زرافة؟

الاغتيال

هذا الإبداع الدموي الذي لطخ التاريخ والجغرافيا

في آخر نهار يوم مبكر من التاريخ - وربما في الوجود كله - تحرك السيد قابيل خارجًا من كهفه الخاص، وانتحى جانبًا وراء التل حيث كمن بين عدة صخور مترقبًا، وحين اقترب أخوه هابيل عابرًا في طريقه ليتنسم الهواء الطلق، داهمه في غيظ وحنق، ليصك رأسه بحجر، وقيل إن قابيل استخدم في ذلك هراوة غليظة، ليقع هابيل صريعًا. وخلال الخطوات الحثيثة بحركة البشر: إلى نشاط يمور به العقل في أكثر حالاته مكرًا واندفاعًا وأداء وجبنًا وتألقًا، تجاوز الحجر والهراوة ليكتشف الحربة، والسيف، والسهم، وأصابع اليدين، والنار، والحبال، والسكين، والشفرة، والمزراق، وسموم التعفن والتأكسد ودم الحيض الأنثوي، والاختناق، وتمزيق الأوردة والشرايين، والغازات، ودس الحشرات في الفراش، والبارود، والرصاص، والجراثيم، والقنابل، والأشعة، وعشرات من الوسائل والطرق والعناصر التي أنتجت - موازية لها - أنواعًا من المكائد والجرائم والخطط والحيل والقوانين والتفسيرات والعلوم.

وقد سال دم كثير تحت أعقاب الأبواب، وفي الفراش، وعلى المقاعد، وفي القطارات، وتحت ظلال الشجر الرومانسي الحالم، وبين سطور الكتب الموروثة وما تلاها من أسفار، وفي كبائن التلفونات ومحطات الإرسال التلفزيوني وحتى في المحاكم أثناء الانهماك في محاكمة قاتل عنيد: يترنح القاتل أمام القاضي ويسقط مغتالًا.

وتعج الذاكرة الإنسانية المكتوبة والشفاهية بهؤلاء الذين أفرزتهم واقعة قابيل وهابيل، ليكونوا فاعلين أو ضحايا، إذ لا يزال الباحثون يدورون حول جمجمة توت عنخ آمون إثباتًا لاستنتاج كسر في مؤخرتها: بالبلطة أو الساطور أو الشاكوش، كما أن علامات استفهام تحيط برقبة والد زوجته أمحوتب الرابع الملقب بأخناتون، والذي اصطرع مع كهنة آمون تعصبًا لآتون.

رئيسا وزراء مصريان ـ وكانا صديقين في حزب سياسي واحد، اغتيلا بطريقة واحدة في دار البرلمان: أحمد ماهر سنة ١٩٤٥، وفي وزارة الداخلية ـ بجوار البرلمان ـ محمود فهمي النقراشي سنة ١٩٤٨. وبعد هزيمة ١٩٦٧ انتحر القائد المصري عبد الحكيم عامر ـ وقيل إنه اغتيل، وتم تسهيل وسائل إنهائه حياته ولو بيده. وجمال عبد الناصر نفسه هوجم في مارس ١٩٥٤ في أولى محاولات اغتياله، لكنه رحل في آخر سبتمبر ١٩٧٠ إثر إجهاد معروف، ثم أشيع أن نوعًا من السم قد دُس إليه بشكل ناعم. ولعله من المهم أن نشير إلى أن ما جاء في كتاب لعبة الأمم للأمريكي الضالع في المخابرات «كوبلاند»، والذي صدر قبل رحيل عبد الناصر بثلاث سنوات، تضمن تصميمًا واضحًا على اتخاذ أي وسيلة أو مكيدة للتخلص منه، وكان

مقتل «كيندي» قبل ذلك واقعة مؤثرة في التاريخ ـ وتلاه اغتيال الذي اغتاله: «أزوالد». «داج همرشولد» ـ أمين عام الأمم المتحدة، والذي كان منهمكًا في محاولة إنقاذ الزعيم الأفريقي «باتريس لومومبا» في الكونغو: سقطت به الطائرة في الأدغال، حدث ذلك أيضًا للرئيس العراقي الأسبق عبد السلام عارف ـ سقطت به الطائرة دون أدغال بعد أن تم الفتك بعبد الكريم قاسم بسنوات قليلة، ولا تزال الطائرة الهليوكوبتر التي انفجرت في الجو بعدد من ضباط نصر أكتوبر على رأسهم القائد أحمد بدوي تثير اللغط، اعتمادًا على بديهية موروثة استنها الرومان: القادة المؤثرون لا يقيمون في موقع واحد ولا يتحركون في جماعة واحدة. وبين دقائق وشهور وسنوات وقرون الماضي يتم اغتيال عمر بن الخطاب والإمام حسن البنا، والضابط عبد القادر طه، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسين بن علي، والسير «لي ستاك»، والسلطان الغوري وغاندي، والملك عبد الله ـ جد الملك حسين ـ وكليب وجساس، وأبو الطيب المتنبي، و«أنديرا غاندي»، و«راجيف غاندي»، و«كليبر» (بيد سليمان الحلبي) و«راسبوتين» والأب عبد القدوس (المماثل الصعيدي لـ«راسبوتين» الروسي)، وكليوباترا (انتحرت)، والحاكم بأمر الله (وضعوا جثته على حماره وتركوها هائمة كما كان الحاكم يهيم حيًّا)، وهناك أمور غامضة في اغتيال «لورانس» (حادث موتوسيكل في لندن)، وأحمد حسنين صاحب السطوة على أسرة الملك فاروق (حادث سيارة على كوبري قصر النيل)، وأسمهان (غرقت في سيارة اندفعت إلى مياه مصرف مائي بالدلتا)، وكاميليا (احترقت بها الطائرة)، كل هؤلاء ـ

من باب التنبيه ـ وقعوا في مجال التعامل مع الألمان أو الإنجليز في الحرب العالمية الثانية، ثم هناك الأسقف «بيكيت» الذي اغتاله «هنري الثامن» ملك انجلترا.

وأما المشهد المروع الذي فاق في إبداعه الفني مقتل «جون كيندي» فهو مشهد اغتيال أنور السادات بعد الفتك بـ«كيندي» بثمانية عشر عامًا، وقتل هابيل بثلاثة وتسعين ألف سنة وثمانية شهور وتسعة أيام على أدق الفروض.

كلمات لها معنى

المدن تستدرج البشر من الوديان والوهاد والجبال والصحاري لتحميهم، ثم تقوم بتنظيم قتلهم.

*

حتى السلم الموسيقي وجد من يصعد عليه للاستيلاء ـ خفية ـ على ألحان الآخرين.

*

فور أن تنتقل الأنثى من حالة الحب إلى الزواج: تتوقف عن الإمعان في عينيه.

*

والجراد أيضًا: يداهم الخضرة في ضجيج، ثم يتوجه إلى الصحراء ليستمتع بالهدوء الجميل.

*

ليت الشباب يعود يومًا ليصيبه الذهول بسبب ما في جيبي من نقود.

*

الجوع يؤثر بعض الوقت في المعدة، لكنه يظل مؤثرًا في العقل مهما عالجته بالطعام.

*

ظلت تحاورني دون أن أقتنع، لكنها ـ حين اقتربت مني ـ اقتنعت بسرعة مدهشة وبسيطة.

البريد

هذا الذي يحتوي النشاط الإنساني من عصور الحمام الزاجل حتى مرحلة الفاكس.. وأمورًا أخرى

البريد ـ في اللهجات العربية المتأثرة بالوافد من لغات أجنبية: البوستة، والطاء أكثر صدقًا من التاء.. البوسطة. وفي حقبة الأربعينيات من هذا القرن انتشرت أغنية شهيرة على كل الألسنة حيث كانت تشدو رجاء عبده «البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي»، أي أن عمال البريد أرهقوا إرهاقًا قاسيًا ـ إلى حد التشكي ـ من كثرة مراسلاتها إليه ذي القلب الجامد، أو القاسي. ولعل شكري سرحان ـ الممثل الراحل ـ أدى أجمل أدواره في فيلم يحيى حقي الرائع: «البوسطجي»، هذا الذي كان قدره في صعيد مصر في عصور مصادرة العواطف وأحاسيس الغرام كما يعتقد كثير من الذين لا يفهمون الصعيد ـ حيث أودى به السأم والملل إلى التسلل لمضمون بعض الرسائل، والتي كان من بينها رسالة تكشف عن أخطر ما يمكن أن يحدث في هِذه النواحي: الغرام، لتكون النهاية المتوقعة: ضياع طرفي العلاقة.

وأقدم نص لغوي وردت فيه لفظة البريد كانت فيما روي عن الرسول الكريم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا أبردتم إليَّ بريدًا فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم»، ولعل البريد هنا تعني ـ كما هو واضح ـ حامل الرسالة ـ شفوية أو مكتوبة، وجاء في الموروث من الأقدمين أن الحُمَّى بريد الموت، وهو ما يوازي قولهم الآن: جوابك تحت جلدك، والجواب هو الرسالة كما هو معروف، وسيظل الحمام الزاجل مرتبطًا بالبريد المبكر في التاريخ، عرفه الملوك والجيوش والأفراد، وظل نشطًا حتى بعد استخدام اللاسلكي وانتشاره في الحرب العالمية الثانية، وقد أودى بالبريد المنقول عن طريق الحمام الزاجل التطور المروع في التخابر العلمي الذي شاع في (الفاكس) أخيرًا ـ وهو النوع المعلن منه حتى الآن.

وفي كل التجمعات العربية التقليدية يصعب التراسل الغرامي عن طريق البريد، فنشأ نشاط لم ينتبه إليه أحد، وهو حامل الرسالة السرية ـ أي الغرامية ـ بين الطرفين، وفي العادة يكون هذا الوسيط امرأة لسهولة اتصالها بالطرفين، وكثيرًا ما وقع العاشقان في حالة ابتزاز من حامل ـ أو حاملة ـ الخطابات، وهو أمر لم ينتبه إليه كثير من ذوي الاهتمام بمثل هذه الأمور الاجتماعية، وهم «مراسيل الغرام»، والذين تجد صداهم في كثير من الأغاني والمواويل، لقد وقعت ـ أنا ـ في هذا المأزق في أسوان.

وكل النظم والدول تراقب بريدها، مع أن الأقمار الصناعية والتصوير عن بعد قطع أبعادًا ـ واخترق أغوارًا ـ لا يصلها البريد العادي، لكن دولًا عديدة تعتبر الخطابات مسألة شخصية لا يصح

الاطلاع عليها إلا بإذن قضائي، وهناك وقائع عن أفراد رفعوا دعاوى للحصول على تعويض بسبب اطلاع السلطات على رسائلهم الخاصة، بل إن القانون في بعض الولايات الأمريكية والمقاطعات الأوروبية يبيح لأصحاب الرسائل المطالبة بالتعويض لو أن رسائلهم تعرضت للتلف أو التمزق دون ثبوت الاطلاع عليها. وهناك واقعة نشرتها فيما أظن مجلة المختار (ريدرز دايجست) الأمريكية الشهيرة عن زوج فتح رسالة قادمة لزوجته، فاتضح له أنها مليئة بما يثبت إثباتًا قاطعًا خيانتها له، فتقدم بالرسالة إلى المحكمة التي استجابت إلى طلباته بطلاقها دون أي حقوق للزوجة، وفي إجراء متوازٍ قامت الزوجة بإقامة الدعوى ضد زوجها لقيامه بالاطلاع على رسائلها دون إذن منها، وحكمت لها المحكمة بالتعويض المناسب.

ومن قصص العصور الوسطى التي كنَّا مغرمين بها في السنوات المتألقة بالبريد الغرامي النادر ـ أي منذ ما يقرب من أقل من نصف قرن، كانت حكاية ذلك الشاب الذي جاءته رسائل تهديد إن لم يدفع ما يطلبونه من أموال، وارتاع والده ـ الذي كان ثريًّا ـ مما يحيق بابنه، فدفع مرات لابنه ما يقوم بتسليمه لهؤلاء المبتزين الغامضين، ولاحظ الأب أن ثمة تغييرًا أصاب ابنه في الشهور الأخيرة، كثرة الانتقال والسهر في المدينة القريبة مع ارتداء ملابس ليس سهلًا الحصول عليها دون معونة مباشرة منه، ثم تطورت الأحداث ليكتشف الأب أن ابنه يكتب الرسائل بخطه ويسلمها لصديقته التي تقوم بإعادة كتابتها بخطها، ليعيش الاثنان في ترف ما يحصلان عليه من الأب.

ويمتلئ الأدب ـ بعيدًا عن أمور المغامرات ووقائع القصص البوليسية ـ بفن كتابة الرسائل، أشهرها ـ في الأدب العربي ـ «رسالة الغفران» ثم «رسالة إلى أهل روما» التي أرسلها القديس «بولس» في العهد المسيحي المبكر طالبًا نشر المحبة بين الرومان، وهناك رسائل الإمام الشافعي وهو مؤلف وضعه الإمام الشافعي في أصول الفقه الإسلامي، وقبل ذلك رسائل تل العمارنة والتي تحمل أنواعًا من الود السياسي بين أخناتون ـ فرعون مصر ـ إلى حكام الشام وأمرائه، في القرن ١٤ قبل الميلاد، وهي منقوشة بالخط المسماري الشهير، وعليك أن تضيف المجلدات التي ظهرت في نصف القرن العشرين ـ النصف الأخير ـ والتي احتوت على كثير من مراسلات «هيمنجواي» و«نيتشه» و«أينشتاين» ويحيى حقي.. وآخرين.

غير أن أخطر رسالة في الشهور الأخيرة كانت هذه البقعة المرسومة بأناقة وتلقائية من السيدة «مونيكا» إلى الرئيس «كلينتون» ـ وكان «كلينتون» لا يزال على عرش الولايات المتحدة حين كتابة هذه السطور.

كلمات لها معنى

المذهل ليس فيما تعرفه أو تجهله، إنه ـ هذا المذهل ـ يظل خارج دوائر المعرفة والجهل أيضًا.

*

لا أعرف لماذا يتوافق المعنى المباشر لكلمة «الواقع» مع أول معنى للانهيار.

*

لا صوت يعلو فوق أي سوط.

*

إننا أمة مجاهدة، ومجهدة.

*

لا يقتل القلب فقط، إنما يدمر العقل أيضًا: ملل الانتظار.

*

والدليل على أن الإنسان كان حيوانًا ذات عصر، أنه لا يزال يعود كل ليلة إلى نفس المكان الذي ينام فيه، زوجته بالتحديد.

الرسم.. والتصوير

عالم المتعة الراقية المتناغم مع دفء وارتياح العيون

كان من المفروض أن أصبح خطاطًا، أسجل بالفرشاة على واجهة البيوت القروية خبر زيارة صاحب المكان لمكة المكرمة والمدينة المنورة، مع إشارة للتكريم الذي حباه به الله، ثم ـ بعد أن تنتهي الكتابة ـ أرسم جملًا، أو باخرة، أو طائرة، حسبما يكون قد استخدمه صاحب الحج المبرور. غير أن الركود الذي واجهني بعد موسم الحج جعلني أحاول تنشيط رسومات أبي زيد الهلالي وهو يشج رأس دياب بن غانم، كان القرويون مغرمين بها، لكن انتشار كل أنشطة أبو زيد الهلالي وعنترة بن شداد في لوحات ورقية مطبوعة وواسعة وبقروش زهيدة حال دون استمراري، فقضيت أول خُمس قرن في حياتي متسكعًا معطل الطاقة الفنية. ولما داهمتني كارثة الحب الأول عدت إلى نشاطي الفني: أكتب الخطاب بخط جميل تتخلله رسومات لبعض أجزاء الجسم ـ القلب أكثرها وضوحًا ـ وقد اخترقتها السهام، وكنت ـ في الأسلوب ـ مغرمًا بمصطفى لطفي المنفلوطي الذي كان

ينوح طالبًا من الناس الاتسام بالشفقة والتراحم. وانتظرت طويلًا أن يصلني خطاب واحد من محبوبتي كي أستمتع بقدراتها الفنية، وعندما التقيت بها ليلة اندلاع حريق في القرية: لم تعترف بأنها لم تفتح خطاباتي لأنها لا تعرف القراءة والكتابة، الخادمة التي كانت تسعى بيننا هي التي أخبرتني، لكن الرحلة المرهقة إلى العاصمة فتحت باب فنون الرسم والتصوير عن آخره.

ما كدت أدخل متحف الآثار المصرية بالقاهرة حتى داهمني إحساس آخر كاد يفقدني وعيي، كانت التماثيل الضخمة تعبر عن جبروت الفراعنة، ثم إن الرسومات الدقيقة ـ حفرًا أو بروزًا ـ أسفل هذه التماثيل ـ تمثل إحكامًا تعبيريًّا متقنًا يسهل وصوله لذوي الثقافة المحدودة، كما أن التشكيل الفني الدقيق لمشغولات توت عنخ آمون الذهبية تثير أسئلة مدهشة عما وصل إليه هذا الفن. وكانت اللغة الهيروغليفية قد انتظمت صفوفًا علوية ورأسية وأفقية وتحت الأقدام من بط وإوز وثعابين وصقور وتماسيح وتكوينات أخرى عديدة ومتباينة تخبرنا عن أحداث وتواريخ لا أعرف عنها شيئًا. بعدها بأيام اخترقت منطقة سقارة، وزرت منف ـ أولى عواصم العالم، بعدها ولجت إلى سرداب العجول المقدسة في ظلال الهرم المدرج، وكانت جدران السرداب قد احتفظت ببقايا رسومات هذه اللغة الغامضة (بالنسبة لي). كان واضحًا أن الفنان الكاتب على الجدران قد استخدم أنواعًا من الطلاء المصنع الذي يحتفظ بلونه إزاء كل تقلبات العصور، ثم إن الرسوم التي تناثرت على أطلال المعبد القريب من الهرم تشير إلى قدرات فذة لتقدم فنون الرسم والتصوير

حينذاك، وهو الذي أحسست به ضاغطًا ودافقًا: حين اخترقت ـ بعد سنوات ـ سراديب وممرات مقبرة رمسيس السادس في وادي الملوك بالأقصر، إذ إن اللغة وما يجاورها من رسوم ملأت الحوائط والسقوف في نظام وانتظام يصنعان للمقبرة إيقاعًا ساحرًا، إنها بقايا عصور الوثنية، لكنها أيضًا بقايا تاريخ إنجاز الفن التشكيلي عند الإنسان، تكشف أيضًا عن قدراته العقلية، وعن تطور الأداء لديه إزاء استيعاب حركة الكون. لكن استغراقي وسط الآثار المصرية القديمة لم يدم طويلًا، فقد توقفت عن رسوماتي (المعبرة) والتي كانت تتضمن نخيلًا وأشجارًا ومراكب وبناتًا وبعض الحمير والماشية، ذلك أنني بدأت أتردد على مقتنيات السفارات وقاعات العرش والمتاحف لأسعد بمشاهدة فن التصوير على اللوحات، ورأيت ـ مشدوهًا ـ لوحات محمد حسن، ويوسف كامل، وراغب عياد، وعلي حسن، وأحمد صبري، وفوجئت بأن الريف والجدران والزروع والحيوانات تنفث جمالًا آخر مع أنها لا تنطبق على ما أعرفه عنها تمام الانطباق، كما أن الظلال تتمدد وتتفاعل مع اللون لتصبح تعبيرًا يحول بينها وبين أن تظل ظلالًا. إن العيال في ريف يوسف كامل يفحُّون بالجمال ـ أقصد بالموسيقى. ثم كانت رسومات حسن فؤاد وجمال كامل وجمال قطب في الصحف والمجلات تعطي للعين ارتياحًا يصل إلى تشابك العين مع المشهد، كانت مصر كلها قد تحولت تحت نظري وفي مجال حركتي إلى حالة فنية قصوى، مفعمة بأنواع الفنون التشكيلية المثيرة للخيال، حتى تصميمات أبو العينين في الأزياء التي تستخدمها الفرق المسرحية الشعبية، كانت ساحرة، وكان محمود مختار قد تحول

إلى عدد جميل من المنحوتات التي تشمل غرامه بالقرويات يملأن الجِرار أو يواجهن الزوابع أو يوقظن أبو الهول رمزًا لمصر الحديثة.

لكن أمري بدأ ينداح خارج مصر، ذلك أن الفنون التشكيلية خطوطًا ورسومات وتصويرات تكاد تكون وشمًا على كل جسد العالم، قد يزدحم بها بلد ـ مثل مصر في الآثار القديمة، لكن بلادًا أخرى تحظى بنصيب وافر من أنواع فنون الرسم والتصوير: إيطاليا وألمانيا وفرنسا. ومن السهل أن تجد الصور المناسبة للوحات في كتب تاريخ الفن، أو التي تبحث في فلسفة الفن، لكن كثيرًا من السفارات الأجنبية تحتفظ بمستنسخات تكاد تقارب الشبه بأصول لوحات فنانيها القوميين، ولا سيما ما يتعلق بإنجازات عصر النهضة الأوروبية. وقد ظللت سنوات أسعى بينها مستمتعًا بالمنسوخ من لوحات: الأخوين الشقيقين «هوبرت» و«جان فان إيك»، و«ليوناردو دافنشي» (العظيم) و«ميكل أنجلو» (أعظم فناني العالم نحتًا وتصويرًا) و«رفائيل»، و«كوريجو»، و«جوفاني»، و«لورنزو»، هذا في إيطاليا ـ المفعمة بعدد مهول من كبار الفنانين. أما في هولندا فهناك «روبنز» و«فان ديك» و«رمبرانت»، وفي إسبانيا: «فيلاسكويز»، و«موريلو»، ثم «جربا» الشهير الذي عشق الكونتيسا وظهرت عنه أفلام سينمائية عديدة، وفي فرنسا: «كلود»، و«بوشيه»، و«شاردان»، ثم هناك عدد واسع التوزيع والانتشار في أوروبا، تلك التي سحبت جماليات الفن التشكيلي الرومانسي الكلاسيكي إلى المدارس الحديثة من تأثيرية وسريالية وتجريدية وتكعيبية: «جوجان» و«فان جوخ»، ثم «ماتيس» و«براك»، و«سلفادور دالي»، و«بيكاسو». وهي المدارس التي أدت إلى

إمعان النظر، والتدقيق بالعقل، وتحريك الرأس بالإيماءات لكي تبرز إعجابك الشديد بها ـ وإعجاب الآخرين بثقافتك، لكنك حين تتاح لك الفرصة أن تقتني لوحة تساعدك على النظر إلى الأفق الجميل، فإنك سوف تبحث عن «رفائيل»، أو «دافنشي»، أو يوسف كامل، أو أي فنان آخر يبدع لك مشهدًا مريحًا، حتى تستطيع ـ إذا جاءتك الفرصة ـ أن تكتب خطابك الغرامي وقد اكتنفته بعض الرسوم المعبرة.

كلمات لها معنى

لا يمكن أن تكون كل الأبواب مغلقة، أنت الذي تدق ـ يا سيئ الحظ ـ على الحوائط.

❊

نقيق الضفادع لا يشبه صوت النقاد فقط،
بل إن قفزاتهم تتشابه أيضًا.

❊

كل الأمواج تبدو ـ وهي تسحبك للغرق ـ وكأنها تبتسم وتداعبك.

❊

الأنثى في اللحظات الأولى ـ ترهقنا بما يعتمل في فؤادها من رومانسية نبيلة، ثم لا تعود إلى ذلك أبدًا.

❊

الحزن الذي لا صوت له ولا دموع: قاتل.

❊

حتى الأطباء وأصحاب الوصفات لا يريدون أن يحترموا الأخوة العميقة التي قامت بيننا وبين زوجاتنا.

*

كل الأدباء الممتازين سوف يدخلون الجنة، عذاب سعير الكتابة يمحو من النفوس كل الأدران.

*

انحناءة الشيخوخة: جواب على قرار معاندة الشباب.

*

الجدير بالحسد: صاحب الأنامل التي تسعى على خدود نجمات السينما لتسوية ملامحهن.

الحرث

بين شق التربة، والاستزراع، وعملية العشق المرهقة أيضًا

الحرث عملية شاقة تعني شق الأرض واختراق بطن الأدب والفن تقليبًا للتربة وتمهيدًا للبذر والإنبات، وحتى النار لها نصيب في الحرث حينما تحرك جمرها بالبشكور لتستعيد أوارها. والبشكور: قضيب من حديد معقوف يستخدم في تقليب النار ويجر به الرغيف من الفرن. وقد اعتقدت أن البشكور لهجة عامية واسم مصري خالص وموروث من أيام الفراعنة، لكنني فوجئت به في المعجم الوسيط ـ شعرت بسعادة. وليس من قبيل المجاز فقط استخدام المادة اللغوية للحرث وأداتها المحراث في مختلف أنواع حياتنا، إذ إن حرث الشيء: بحث فيه، وحرث الدابة: أنهكها وأضعف قواها (وهو ما قد يجري عليه في أمور أخرى تحرثه حرثًا)، والحارث: كنية الأسد ـ دون أن تكون اللبؤة حارثة، والحارث بن حلزة اليشكري: شاعر جاهلي عاش في بادية العراق، وكان مصابًا بالبرص الذي

يترك بقعًا مزعجة في الجلد، له قصيدة من المعلقات ارتجلها في جلسة صلح بين قبيلته بكر مع قبيلة تغلب. والحارث البكري حكيم جاهلي ـ أيضًا ـ وشجاع، وكان المهلهل ـ بطل حرب البسوس ـ قد قتل له ابنًا ـ مع أنه كان قد اعتزل الحرب، فأنشد قصيدته المعروفة ـ وشديدة الشجن: «قربا مربط النعامة مني...» إعلانًا للثأر وبداية لتطور جديد في حرب البسوس المروعة، والنعامة ـ هنا ـ يعني بها الحارث حصانه الأثير. أما الحارث بن كلدة الثقفي فكان طبيب العرب في عصور الإسلام المبكرة، وأحد الحكماء المعروفين من أهل الطائف، كان يجيد الضرب ـ أي العزف ـ على العود، ولد قبل الإسلام وعاش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عصور الخلفاء الراشدين وبقي حتى أيام معاوية. وتحت اسم حارثة ثمة عدد من ملوك النبط أصحاب بترا ـ أي سلع قديمًا ـ وكانوا ملوكًا على دولة شمال شبه الجزيرة العربية، ومنهم جاء الشعر النبطي ـ أي العامي ـ في المنطقة، ومن أشهر هؤلاء الملوك حارثة الثالث (حوالي ٦٢ قبل الميلاد) الذي بسط نفوذه على دمشق، وحاول أن يوقف امتداد النفوذ الروماني إلى المنطقة، مع أنه تواصل ثقافيًّا بالحضارة الرومانية اليونانية (ويبدو أن هذه المسألة عريقة عويصة منذ ذاك الوقت، والتي لا نزال نعاني منها الآن)، ثم الحارث الرابع الذي حاول نائبه أو عامله في دمشق القبض على بولس الرسول النصير المبكر للمسيح عليه السلام، غير أن الحاكم الروماني المجاور له تزوج من ابنة حارثة ثم طلقها بعد أن انهمك في مؤامرة قتل يوحنا المعمدان، حيث تزوج من الراقصة «هيروديا س»، وهي غير سالومي

التي قدمت رأس يوحنا على الطبق الراقص على وقع الموسيقى. ولا أستبعد أن يكون الأمر مختلطًا عليَّ لتكون الراقصتان واحدة، أما الشجاع الباسل الذي كان الثاني في ترتيب الذين أسلموا من الذكور ـ أي بعد سيدنا علي بن أبي طالب، عرف بالشجاعة والجسارة والإمعان والإدراك، وهو أبو المقاتل التاريخي أسامة بن زيد. وأخطر من حرث تربة الفكر الإمام محمد عبده، والدكتور طه حسين، كما أن يحيى حقي حرث أرض النص القصصي وجذبه من التحليق التيموري ـ أي الذي تسيده محمود تيمور ـ ليضعه على الأرض، وعملية الحرث تأخذ من الجهد ما يفوق الإنبات والزرع الذي حظي به يوسف إدريس، مع أن عملية الحرث ـ في المعنى الأوسع ـ قد تأخذ لصالحها الاستزراع أيضًا، حيث جاء النص القرآني على التشبيه: «نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ» في سورة البقرة، لأن الزوجة موضع الإنتاج ومكمن غرس الأبناء. وفي سورة البقرة أيضًا: «قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ»، ومن هذا المعنى المحتوي على شق الأرض والإنبات، وما يسري إلى المسائل الإنسانية تحتها، ينتشر اسم الحارث وعبد الحارث ـ في الصعيد بالذات، والذي كثيرًا ما يكتبونه «الحارس» في خطأ لا يتم تصويبه عادة، وهو ما اكتشفناه حينما كان لنا صديق يعمل مدرسًا ويحمل اسم الحارس، وحاولنا مرارًا تصويبه إلى الحارث دون جدوى، ثم سافر إلى ليبيا وعاد بثروة محاذرًا ألا نقترب ـ أيامها ـ منه، فوافقناه اعتماد اسمه الحارس فقط، وفي آخر رحلاته ـ بعد استكمال الأمن في الثروة: اصطادته الأقدار في حادثة تلتهم الحارس دون الحارث، وهو الأمر الوحيد

الذي أسجله هنا دون الدخول أكثر في المعاني المتعددة للحرث، والتي قد أفشل في إيوائها تحت غطاء الأسلوب ـ مهما كان ماكرًا، مع أهمية الإشارة إلى أن العامة ـ في معظم البلاد العربية قد تستبدل الثاء بالتاء، حيث تقول عن الشخص الأكول شديد الالتهام: إنه حرات ـ بالتاء، وفي المعجم ـ تأكيدًا لذلك ـ سوف تجد أن لفظ حرت بالتاء ـ تعني الأكل قضمًا، وقطعه قطعًا مستديرة، والحرت أيضًا: ينسب للأنثى حين تقوم بتدليك رجلها، دعوني أتوقف عن هذه المادة اللغوية ـ الآن.

كلمات لها معنى

وإذا قالت: فعلت، مع أن الأكثر صدقًا ـ وجمالًا، أن يحدث ذلك دون أن تقول، لا تمعن طويلًا في عيونها.

*

كل الطرق تؤدي إلى روما، مع إسقاط أفريقيا وآسيا والأمريكتين، وأستراليا أيضًا.

*

استكملت الأفيال كل عدتها دون أن تنتبه إلى أهمية الحوافر والمخالب، دعك من الأنياب التي تثير المرح واللهو وهي تتحرك نحو الانقراض.

*

الجوع كافر، والشبع المتضخم أعظم كفرًا.

*

الفائدة الكبرى التي جناها عجوز «هيمنجواي» بعد أن فتك السمك الصغير بسمكته الضخمة في البحر، أن امتلك حكاية ذات شأن يرويها في سهرات المشارب.

*

الظلام لا يبدأ في المساء، إنه يبدأ في القلب.

الفَصلُ

بين الخديعة والأدب والمناورة

أشد الأمور صعوبة في حياتك ـ دعك من حياتي الآن ـ تلك المحاولة الدائبة كي تنفصل عما يحدث حولك بعض الوقت، ثريًّا كنت أو فقيرًا، بسبب هذه الفصائل المداهمة ـ أو المحاصرة ـ لك: عيال وأصوات ومسلسلات تلفزيونية وفصول باردة من أصدقاء ذوي نوايا حسنة دائمًا. غير أن الأمر لن يكون بالغ الجودة إذا ما انتحيت جانبًا ليغمرك السكون الهادئ، على ضفة نهر أو بحر أو محيط أو كتاب أو موسيقى أو إمعان في لوحة بالغة الرواء، أو وجه ذي عيون متألقة لأنثى تود أن تسمع رأيك ـ وهي تتراقص ـ في تفصيل فستانها أو فصلها الدقيق بين حركة أهدابها، وما يدور في ذهنك. وهذا الفصل الدقيق هو نوع من الشحن الإنساني الحيوي الذي يصل أوجه الفن في انتقال حركة الحياة أو المسرحية ـ أو الرواية ـ أو الأمنيات من فصل إلى فصل، ولا تستطيع الجيوش ـ بأساطيلها ومدافعها وقنابلها وصواريخها وقدراتها المروعة أن تأخذ من الفصل: سوى الفصيلة ـ

بعدها يمكن استخدام الفصل المتعسف ـ حين تريد القوى المسلحة ـ بين الشعوب وأمنياتها، أو حين يجد قائدها نفسه معزولًا أو مفصولًا يسعى لكتابة مذكراته بعد ذلك بعدة قرون، لتتحول الفصيلة ـ إلى فرقة أو لواء أو أي حشد عسكري من هذا القبيل.

وأول من وقع في مأزق الفصل (البارد) أبونا آدم مما أودى به ـ مع زوجته أمنا حواء ـ إلى الهبوط من الفردوس الجميل إلى عالمنا الدنيوي المرهق، ثم ما كان بعد ذلك من فصول توالت ساخنة ـ ودموية أحيانًا: فصل دماغ هابيل بيد أخيه قابيل حسدًا أو حقدًا أو غيظًا (وتفصيل الأمر لا يزال مركزًا في فعل القتل فقط، مما يعطيني حق التصور الأكثر عنفًا أو دموية، ولا سيما أنني من أبناء صعيد مصر)، وهناك الفصل التاريخي المؤثر ـ والذي ما زالت أمة المسلمين تدفع ثمنه حتى الآن ـ حين قام عمرو بن العاص بدوره الماكر في التحكيم الذي خلع فيه أبو موسى الأشعري سيدنا علي بن أبي طالب، لكن ابن العاص قام بتثبيت معاوية بن أبي سفيان. وربما كان هذا الفصل هو جوهر كثير من العلاقات الدولية وموائد المباحثات، فقد كان السفير الياباني ـ في أواخر الحرب العالمية الثانية ـ يقدم حسن النوايا للرئيس الأمريكي في واشنطن، في الوقت الذي كانت الطائرات اليابانية تدمر ميناء بيرل هاربور. كما أن إسرائيل ظلت تصرخ في أنحاء العالم طالبة إنقاذها من عبد الناصر، حتى إنها أقامت مجموعة من الخيام في بعض الأقطار الأوروبية ـ والأمريكية ـ أشهرها مخيم كندا في أوتاوا ومونتريال، في الوقت الذي شنت فيه قواتها المسلحة هجومها

الشهير على مصر ثم سوريا في ٥ يونيو ١٩٦٧. وقبل ذلك يظل مكر «شيلوك» المرابي الشهير في «تاجر البندقية» إشارة إلى إدراك «وليم شكسبير» لمعنى المؤامرة الأوسع من مجرد التحايل، وهو ما استفاد منه الألماني العظيم «جوته» في ملحمته «رينار الثعلب» ثم في مسرحيته الشهيرة «فاوست». وربما كان كل ذلك راجعًا إلى هذا الفصل الذي مارسه يهوذا في العشاء الأخير الذي أتاح لكل أعداء سيدنا عيسى القبض عليه كي تصل فصول العذاب إلى أقصى درجات الألم العظيم. علينا أن نوقف هذا التيار اللافح من تلك الفصول الآن، كي نستنشق الهواء ـ أو النسيم ـ في فصول «فيفالدي» الموسيقية، والتي تحملنا إلى أطياف الربى بين الخريف والشتاء ثم الربيع المتألق، فالصيف الذي قد لا يتيح لك السباحة، فتكتفي بأن تضع قدميك على حافة تيار البحر قبل أن يصبح موجًا على نغمات الكمان العاصفة ـ رغم رقتها، حينئذ نتذكر مجلة «الفصول» التي أصدرها محمد زكي عبد القادر أوائل الأربعينيات، وكان من كتابها الراحل فتحي غانم، أما «فصول» التي تصدر الآن والتي يترأس تحريرها الدكتور جابر عصفور، فإنما هي حديثة تواكب الاتجاهات الأدبية الفكرية المعاصرة، وقد بدأت في الصدور عام ١٩٨٠، رعاها الله وحال بينها وبين ما يحدث من فصول للمجلات التي من هذه الفصيلة عادة، وفي البلاد العربية بالذات.

وأمور الفصل بكل أنواعها تخترق تكوينات عالم الأحياء في العهود الحالية، الفصل من الخدمة أو الوظيفة أو بين الأطفال وآبائهم ـ بالواقع أو بالأحكام القضائية، ثم «القرقرة» ـ والتي قد

لا تجد لها أثرًا في المعاجم اللغوية وتعني الفصل بين حبوب القمح أو الفول أو الشعير، وبين الشوائب بعد عملية التذرية (بالمذراة) التي تفصل بين التبن والحبوب، وفصل الأقاليم عن الأوطان بالحروب أو الثورات أو المباحثات التي تخضع لسياسة المفاصلة، تلك المفاصلة التي تعتبر جزءًا من المساومة الشهيرة بين البائع والمشتري ـ حيث لم تستطع أوامر تحديد الأسعار وقفها حتى الآن. أمي ـ مثلًا ـ لا يريحها أبدًا أن تشتري ما تريده دون الفصال الذي تمارسه مع الباعة المتجولين، فيحقق لها إحساسًا بالفوز والانتصار، في القماش بالذات الذي تقوم بعد ذلك بتفصيله ثيابًا لها دون اهتمام بالمحلات التي يلجأ إليها الآخرون المعاصرون: تفصيلًا وتجهيزًا وخياطة، ثم هناك التفصيل الذي يعني التبيين والتوضيح: «وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ»، ثم: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ»، والفاصل هو الحاكم: «إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ»، والفصال يعني الفطام: «وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ»، ويوم الفصل هو يوم الحساب ـ أي يوم القيامة: «هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ». والمفصلات هي المبينات الموضحات، كما أن المفصلات ـ في حياتنا الآن ـ هي الرابط بين جزأين أحدهما أو كليهما متحرك كما هو معروف في مصاريع الأبواب والنوافذ، وربما جاء لفظها من ربط المفاصل أو الفصول. لاحظ أن بعض فصول المسرحيات كانت تحتوي على نوع من الأداء الموسيقي أو التمثيلي القصير فور انتهاء فصل والتمهيد لفصل جديد. أما المفاصل، فلا تخرج كثيرًا عن المفصلات، إلا

أنها كادت تتركز في التكوين المرن الذي يربط الأعضاء العظمية في الأحياء، مع أن كثيرًا من ترع مصر ـ في الصعيد بالذات ـ يطلق عليها المفصل، وربما تكون وظيفتها تحديد ما بين أسماء الأحواض الواسعة في الحقول ـ وهي غير الأحواض الصغيرة، وهو ما يدفعنا إلى الانتباه الحديدي لمعنى الفصيلة في أنواع الأحياء، حيث تنقسم البرمائيات ـ مثلًا ـ إلى فصائل التماسيح والضفادع وسمندل الماء. رجاء عدم التدقيق في ذلك حتى لا ترتعد مفصلاتي من عدم الإلمام الجيد بهذا الموضوع.

وسوف ترى أمور كثيرة ـ ومناقضة ـ إذا ظللنا واقعين تحت سطوة مادة الفصل: جمعًا أو تقسيمًا أو تحديدًا أو متابعة لمعانيها الشعبية أو التراثية أو المعجمية. فالفصل ـ في مثل هذه الأمور ـ يحتاج إلى دقة فصل الجلد عن اللحوم، دعك الآن من فصل فروة الرأس عن الجمجمة.

كلمات لها معنى

أجمل ما في هذا العصر أنه يسمح لك بأن ترفع صوتك بما تعتقد أنه حق، وأنك شجاع أيضًا.

*

ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، بعدها يفترق الاثنان لتتاح للثالث فرصة النوم العميق.

*

المسألة ببساطة أن كبار السياسيين يحاربون السحالي بقواعد مواجهة الثعابين.

*

ليست الفروسية بقادرة على الظهور في عالم ضجيج العجلات، لقد بدأت في الاندثار.

*

إذا صعدت الجبل وآن لك أن تستريح، فعليك أن تتعلم الهمس والإمعان في الوجود، إنها بداية الفلسفة والإبداع، وخفة الوزن.

*

لا تحاول أن تسرع باستخدام عقلك في هذا الزمن، حتى لا يُستهلك بسرعة.

*

مهما كان الفرد منا عملاقًا، فسوف ينحني كي يأكل.

التجريد والجراد وهلم جرًّا

ما كدت أجرد نفسي من أهوائها كي أطير في عالم الجراد، حتى فوجئت بأن الجو يستلزم الانتباه للجرائد أيضًا، فإذا أردت أن أستريح، فسوف يكون مناسبًا الاسترخاء على جريدة نخيل تمهيدًا لجولة طيران جديدة. لكن الفخ الأخطر هو أن أقع في مأزق التجريد الذي يسلب العمل الفني ـ والأدبي أيضًا ـ حواسه وقدراته الوجدانية كي يدرك معناه بالذهن فقط، وهو ما يؤدي إلى محاولة إدراك أو فهم معنى التجريدية بصفتها مذهبًا لا يزال سائدًا في أنواع الإبداع. إنه الاتجاه الحديث الذي يقوم على تصوير فكرة الفنان ـ أو شعوره ـ تصويرًا لا يعتمد على المحاكاة لموضوع معين مع استخدام الألوان أو الأشكال الهندسية أو الأنغام الموسيقية. لاحظ أن ذلك التعريف يضع في الاعتبار اللوحة التشكيلية، مع أن التجريد استشرى في القصيدة والقصة بشكل طافح يحتاج إلى أن نتوقف هنا بحثًا عن الجراد أو الجرادتان، (رجاء عدم التصحيح)، وهما ـ الجرادتان ـ جاريتان كانتا تتغنيان في الجاهلية ـ قبل عصر الإسلام ـ في قصر

عبد الله بن جدعان، وذات ليلة متأججة مجردة من الانتباه العقلي: قام الشاعر الشهير أمية بن أبي الصلط الثقفي بإلقاء قصيدة امتدح فيها ابن جدعان الذي رآه ينظر إلى الجاريتين في نهم يكاد يصل إلى حد الافتراس، مما أدى بسيدهما ـ ابن جدعان ـ لإهداء «الجرادتان» الجميلتين إليه، أود أن أشير إلى أنني ظللت شديد الحرص كي لا أخضع «الجرادتان» للإعراب، إنه نوع من التجريد أيضًا.

وأزعم أن الأجيال الجديدة من أهلنا لم يروا الجراد إلا مرسومًا في كتب الحشرات أو أسيرًا ـ في حالة تحنيط ـ على لوحات المتاحف، أو في مشهد تصويري خلال جحافله التي تغزو كثيرًا من المناطق في هجمة مفاجئة ـ أثناء النهار المضيء ليتحول المشهد إلى ظلام. شاهدت ذلك وأنا صبي سائم في حقول وبراري قريتي ديروط الشريف وسط صعيد مصر، وفي لحظات يداهم الجو نوع من الالتياع أو الحزن الصارخ على دقات الصفائح، العيال والرجال يتصارخون على الإيقاعات المقلقة مطاردين لأسراب الجراد الكثيفة التي ـ وقبل أن تنتهي من قراءة هذا المقطع ـ تكون قد جردت كل مزروعات الأرض من خضرتها، لتصبح المساحات المترامية بلقعًا أو يبابًا قاحلًا. الإحساس نفسه الذي يداهمني خلال إمعاني في لوحات أو قصائد عدة من الفن الحديث، لكني لا أعلن ذلك كي أظل مثقفًا عصريًّا.. وذكيًّا أيضًا.

غير أن الأثر الذي تتركه جحافل الجراد في الجو والأرض والنفس يتساوى في كثير من المعاني بعد كل تجريدة يقوم بها رجال الشرطة ـ سرًّا أو علنًا ـ على ديارنا أو تجمعاتنا بحثًا عن

أعداء لهم لا يعلن عنهم عادة، وربما تكون من باب النشاط الوظيفي إثباتًا لقدرتهم الفائقة على السهر حماية لشؤوننا، دون الاهتمام بالمعنى اللغوي الخالص للتجريد. يقولون ـ في اللغة ـ جرده من ثوبه: أي عرَّاه ـ ويعني تركه عاريًا، وجرد الجلد: نزع عنه الشعر، وجرد السيف من غمده ـ أو المسدس أيضًا ـ استله، ثم هناك بعض التخفيف في المعنى حينما يرتبط التجريد بالقطن ليصبح محلوجًا. وهناك استخدام للتجريد ـ لم يعد يستعمل الآن: جرد القوم: سأل القوم فرفضوا منحه أو أعطوه كارهين. لقد حل «الابتزاز» مكان هذا النوع من التجريد، والذي عاد ليصبح «جردًا»، أي إحصاء ما في المخزن أو المتجر أو الحانوت أو المزرعة من أدوات وآلات وبضائع، موظفو الحكومة وشركات التجارة والمصانع والورش يعرفون ذلك آخر كل سنة مالية.

أما المجرود فهو الذي اشتكى بطنه من أكل الجراد، أو انتفخ من قراءة الجرائد، فإذا جاءت كلمة المجرود صفة للنص أو الكتاب فالمقصود: عرَّاه من الضبط، أما إذا انجردت السنبلة: خرجت من لفائف قمحها (والمعنى: ـ بالنسبة لي غير واضح)، فإذا انجرد شعر الفرس: أصبح قصيرًا، أما إن كان هذا «الانجراد» خاصًّا بالسير يكون المقصود أن الفرس جد في سيره وامتد وطال أو تقدم الحلبة مصممًا أن يخرج منها. وهو ما جعل للفرس الأجرد أو الجرداء قدرة على الفوز في السباق أو أي أنواع من الصراع ـ سلمًا أو حربًا، واللبن الأجرد: لا رغوة فيه، وربما يقصدون به اللبن الخالي من الدسم، أما القلب الأجرد فهو ـ مثل قلبي وربما مثل قلبك أحيانًا ـ ليس فيه غش

أو غل أو حقد، مع أن ورود هذا النوع من الجرد بصياغة الجارود يؤدي إلى معنى المشؤوم، والعام الجارود هو المقحط شديد اليباب والقفر. رجاء عدم التوسع في هذه المسألة حتى لا نجد أنفسنا ـ تحت وقع ما يجري ـ مطالبين بالمعنى الواضح لـ«جارودي»، الفيلسوف الفرنسي المعاصر والمناضل الذي أوقف فكره للدفاع عن الإسلام وحضارته، ويحول بيننا وبين المساس به ارتباط اسمه باللغة الفرنسية التي تجردنا من إدراك معناها لجهلنا المطبق بها (أتكلم عن نفسي)، مع أنك لا تعرف ـ من ناحية أخرى ـ أن الجارودية فرقة زيدية تنسب إلى أبو الجارود زياد بن المنذر.

ومن باب الهروب ـ إزاء كل ما ورد ـ فإن التجريد يفضي بنا إلى الجريدة: إنها غصن النخيل المعروف، والذي تصنع منه الأقفاص والمقاعد (الخاصة بالشرفات والمنتديات والشواطئ) والأسرَّة ـ جمع سرير ـ الفقيرة. وكانت الجريدة تعني ـ ذات عصر ـ دفتر أرزاق الجيش في الديوان (أي كشوف المشاملة لبيانات استحقاقات الجنود)، وهو ما أدى بالجريدة أن تهبط من فوق النخيل لتعيش فترة في أرزاق الجنود لتصبح ـ بعد ذلك ـ الصحيفة اليومية التي تنشر الأخبار والمقالات والفضائح والتعبير عن العدل والدفاع عن الفقراء. دعك من الابتزاز الآن حتى لا أكشف لك أن تجمعًا أدبيًّا ظهر من فترة قريبة أصدر مطبوعة هزيلة بعنوان «الجرادة»، وعليك أن تقرأ الموضوع من الأول مع تجريد نفسك من أهوائها: أو بعض أهوائها.

كلمات لها معنى

إنها الجبال الرواسي، فماذا عن السفن؟

*

كل حواس السمع والتذوق والنظر والشم تتراجع مرتجفة إزاء ما ينتج عن حاسة اللمس.

*

بعد أن اطمأن أصحاب تأكيد قانون «الخلع»، تحقيقًا لأمنيات الزوجة البائسة ضد زوجها، لم ينتبهوا حتى الآن إلى أن «الخلع» يعني المكيدة أيضًا، في اللهجة المصرية.

*

المساواة الحقيقية التي تجمع بيننا، أن كلينا يزعم للآخر أنه يفهمه جيدًا.. فقط.

*

حتى السحب تمعن من عليائها إلى الأرض باحثة عن المعادن النفيسة.

*

الفرق بيننا وبين قبائل الإسكيمو في المنطقة المتجمدة الشمالية، أن بيوتهم تخلو من الثلاجات، ومع ذلك فهم قادرون على الحياة الطيبة الهادئة بطريقة مذهلة.

*

تهتم المدارس بتنمية العقول، ولم تنتبه إلى مطالب القلوب.

الدَّق.. الدقيق

أثناء تجولي بين كثبان الثقافة والكتب والأعراف والتقاليد، مع قليل من الاسترخاء تحت ظلال أجمات المعاني:

كادت النيران تدق، والجملة ـ هنا ـ مكتومة، تحت سطوة هذا الدق الذي يميل العامة إلى التعامل به، متجاوزين بذلك المعنى المعهود في دق الطبول والدفوف وأجراس المعابد والإنذارات ـ في عصور ما قبل الرادار ـ حتى ينتهي الأمر إلى دق الوشم في معاصم الأيدي وذقون العذارى ـ وخدودهن أيضًا، لكن الذكور استخدموا فن دق الوشم ليصبح معبرًا عن انتماءاتهم وقدراتهم الخاصة والتي جعلت كثيرًا من الأسود والنمور تمرح فوق الأذرع والصدور وبعض الخطوط في المناطق المرتفعة من الجبهة: أسفل منابت شعر الفودين مباشرة، لكنك ـ إن استخدمت اسم المرة من الدقة: دقة ـ فسوف يسعدك أن تتذكر أيام كفاحك عندما كنا نتحايل على تنوع الغذاء الفقير بالدُّقة ـ رجاء ضم الدال، والبعض يفتحها ـ وهي الخليط المعروف بالخل والفلفل والشطة والنعناع الذي يثير الرغبة في الالتهام ولأنك ـ عزيزي

القارئ ـ من دقتنا، فإنني أعني أنك من نوعنا أو من أترابنا أو من نفس الفرقة البشرية التي تدرك المقصود بهذا التعبير. ومع ذلك فإن المجيد في صناعته يطلق عليه: الدِّقى ـ بكسر الدال، ثم لم يلبث النجارون أن استحوذوا على هذه الصفة فأصبحت علمًا عليهم، بل على نوع خاص من النجارين الذين يجيدون صناعة الصنف الراقي من الأثاث والتحف والمشغولات التي من بينها «الأرابيسك» الشهير، وهو ما لا يخضع له نجارو السواقي والأبواب والطبالي والموائد العادية، ولعل حي «الدقي» الشهير في الجيزة بمصر يحمل اسمًا لواحد من هؤلاء النجارين ذوي المهارة، حتى ولو كان «الدُّقي» قد اشتهر بضم الدال ليفصل الحي عن صاحبه.

فإذا ما خضع الدَّق لتكرار المقاطع (مثل جر ـ وجرجر)، لتنشأ «الدقدقة» فإنها تعني الذكاء الفطري والقدرة الفائقة للشخص «المدقدق» في مواجهة الأمور الصعبة، ويطلقون عليه «دقدق»، كان ذلك منتشرًا في الأفلام المصرية التي تتعامل مع البيئات الشعبية، ولا يزال البعض النادر من ذوي القدرات يحظى بلقب المدقدق، مع أن المتخصص في مراجعة الحسابات، أي الذي يرقى عن المحاسب العادي يطلق عليه ـ في بعض البلاد العربية ـ المدقق. وهذه الصفة غير المعروفة في مصر وإن كانت حيثيات كثير من الأحكام القضائية تميل نحو استخدام صفة «المدقق» لمن يتولى التحقيق بدقة وذكاء في الأمور القانونية الغامضة. وبالتالي يصبح الإنعام والإمعان في البحث والتمحيص يعنيان هذه الدقة، ولو كانت في النظر المتأني للعيون الجميلة بالذات، حتى لو كان ذلك خلال دقيقة أو دقيقتين

بصفتهما الصفة الملازمة للوقت العصري الدقيق قبل أن تتجمع ستون دقيقة منها لتصبح ساعة كاملة. أما الدقاقون فهم جماعة تخصصت في بواكير العصر الحديث في دق سنابل القمح وكيزان الذرة، وأحيانًا دق الغلال ذاتها ـ ومنها جاءت زقاق المدق لكاتبنا نجيب محفوظ.

ومن الغريب أن الدقيق صفة مطلقة لطحين الحبوب، ويحظى باحترام يصل إلى التقديس المعروف، يقسم عليه البعض إثباتًا لصدقهم أو لبراءتهم، لكن المعجم لا يلبث أن يجعل الدقيق صفة للرجل قليل الخير، أو الأمر التافه (المعجم يستخدم لفظ الحقير)، أو الغامض، وهي معانٍ مهجورة لا نميل إلى التوسع فيها، إذ كثيرًا ما نتشاءم إذا ما دخل ضيف علينا فتساقط الدقيق من الجوال أو الوعاء، كما لا نميل ـ بالمرة ـ أن نرى قطة أو كلبًا يحتك بأجولة الدقيق. وربما رش أو نثر الدقيق فجرًا في طريق الأعداء كان أمرًا يفوق رش الملح رغبة في الانتقام الشرير. وقد كنا نتفاءل ـ أيام الصبيانية ـ حينما نجد فراشة «أبو الدقيق» ذات الأجنحة البيضاء تحوم حولنا ناشرة إحساسًا بالأمنيات العذبة ـ المعلنة أو السرية!

أما الدق ـ بمعنى استخدام القوة ليس في الطبول فقط ـ بل وفي العقاب أو الفعل الجسيم، فإن الأمور سوف تصل بنا إلى دق العنق، بدلًا من أن نحاول أن نتذكر شاعرنا القديم ـ ابن دقيق العيد ـ الذي فشلت في العثور على أي ذكر له بين آكام دوائر المعرفة أو الموسوعات التي بين يدي، والتي لا تميل إلى التدقيق في كثير من الأحيان.

كلمات لها معنى

الدموع التي تجري في أشعار اللوعة والتباريح لا تترك للعيون فرصة التحليق في النسيم الرقيق.

*

يميل الحق للجدية والتجهم تاركًا المسرح واللهو للباطل.

*

الذهب يفقد بريقه إن ظل في جدول العناصر بين النحاس والحديد، إنه يسعى كي يتألق وحده في الرقبة والمعصم.

*

كثير من حوائط البيوت شديدة الصلابة كالغباء تمامًا.

*

دع طفلك ـ ابنًا أو حفيدًا ـ يتقافز كي يترك لذاكرتك استعادة فرصة السعادة المفقودة.

*

مشكلة الجوع تصبح كارثة حينما تعالجها على مائدة من لا تحب، لا أقصد المسائل الزوجية التي داهمت خيالك الآن.

*

حتى العقارب تنتظر ضحاياها في الأماكن الظليلة الهادئة.

الطبُّ.. والتطبيب

منذ وارى قابيل جثمان شقيقه هابيل، في أول حالة اغتيال في تاريخ البشر، ظهرت بواكير الطب، فمن المؤكد أن القاتل ـ فور اندفاع نار الندم في أعصابه ـ ظل يأمل أن تعود لشقيقه أنفاس الحياة، أو أن يستمر الجثمان سليمًا دون أن تتلفه عوامل العطب. وهو ما أدى ـ في الأحقاب المرهقة التالية ـ إلى قيام الطب على الإسعاف السريع، ثم فنون التحنيط التي ارتبطت بقدماء المصريين، وخلال ذلك كان الطب ـ دون أي كلية أو معهد أو دراسات سوى الخبرة ـ قد تفرع إلى اجتهادات مذهلة في تجبير العظام، ومعالجة كسور الجمجمة، وتلبيط العيون الرامدة بالمساحيق، وقد عوملت ـ أنا ـ من هذا المنطلق علاجًا لعيني اليمنى التي أصابها حسد المنافسين لي حين كنت أول الناجحين، (وقد ضاعت عيني هذه تحت وقع الجهل، أما عيني اليسرى فهي في طريقها للضياع الآن تحت وقع الثقافة). وكان علاج العيون بمسحوق الشليشم المكون من نيترات الرصاص والنحاس فيما أعتقد ـ يطلقون عليه آنذاك: التلبيط، وقد اندثر ذلك

بعد اكتشاف القنبلة الذرية والصواريخ الفضائية بانتشار قطرة العيون بأنواعها المتعددة دون أن تدري أمي بذلك حتى الآن، حيث لا يزال الطب في جميع المجتمعات ـ حتى التي تبدو على قمة التطور العصري في الغرب الأوروبي والأمريكي: مرتبطًا بالسحر والدجل والخرافات والابتكارات الفردية. مع أن هذا العلم تفرع إلى أنواع من الطب استقل كل نوع عن غيره: طب العيون أو الجلد أو الأذن أو القلب أو الأسنان أو المخ أو الأعصاب، ثم هناك الطب النفسي أو الإخصاب ومعالجة العقم والبيطري (الخاص بالحيوانات)، أما الطب العقلي فقد أصبح موضوعه تشخيص الاضطرابات العقلية وعلاجها ليتواصل مع الطب النفسي (وكلاهما ـ مع ذلك ـ مستقل)، ثم الطب الشرعي الذي يجمع اجتهادات وإنجازات كل أنواع علوم الطب السابقة لتطبيقها على مشكلات القانون والقضاء كإثبات البنوة وحالات العته أي الجنون (من أجل التمهيد لتعيين أوصياء في أغلب الحالات) والموت الناجم عن عوامل العنف وصولًا إلى حقوق قد يكون من بينها التعويضات للورثة والأقارب.

إلا إن أختي الكبرى تحملني فوق أكتافها صبيًّا ـ أكبر من كوني طفلًا لتذهب بي إلى شيخ اشتهر في ذلك العصر بقدرته الفائقة على إسباغ الشفاء في أجسادنا الكليلة، وكانت خلال المشوار المرهق بين المزارع التي تفصل قريتنا عن مقر الشيخ المعالج ـ تضطر إلى أن تستريح في ظلال المستشفى الكبير دون اهتمام بما يقوم به هذا المستشفى (لاحظ أني لم أرغب في تأنيث المستشفى)، وكان باعة الحناء وسفوف الشفاء من دود

البطن، والذين يعالجون وجع الدماغ ـ أي ارتفاع ضغط الدم بالحجامة، وخالعو الأسنان، وأخصائيو تجبير العظام، وناقشو الوشم، ومرممو فقرات العنق، ومانحو العرسان الجدد حبوب التزود بالثقة ليلة الزفاف، ومدخلو العويل في الأذن التي تعاني من الصفير المزمن، وتسليك انغلاق الأنف والبلعوم بالسوائل الطيارة ذات الرائحة النفاذة، والقادرون على صياغة التمائم والأحجبة لفك أسر الرغبات الشاحبة أو تنشيطها، كل هؤلاء يجوبون القرى ليقطعوا الطريق بين أهلي والأطباء الذين انتشروا في عصر جمال عبد الناصر ـ أي في مصر ـ يعالجون الناس مجانًا: علاجًا جادًّا وصادقًا. دعني أشرح لك بعض ما جاء في هذه السطور من ألفاظ أو تعبيرات لم يجربها أو يسمع بها كثيرون من الأجيال الجديدة:
السفوف: أنواع من المساحيق ذات الأصول المعدنية أو النباتية.
الحجامة: كوب فارغ يتم تسخينه بحرارة شديدة ثم توضع مقلوبة على منطقة يتم تجريحها في جلد الرأس، وتظل مضغوطة على الجروح حتى تبرد جدران الكوب فيتقلص الهواء فيها ليسحب ما يراه القائمون بالحجامة: دمًا فاسدًا. ونقش الوشم تجريح في الجلد بالوخز والتلوين، وقد مارسته الجماعات الإنسانية منذ العصور القديمة لأغراض ترتبط بالمقدسات وطقوس التقرب منها. وقد يقترن بالحجامة ـ أو التشريط ـ تعبير الحزن على مفقود أو طلب الحماية من عين الحسود، أو لإبراز امتياز خاص بالفرد أو الجماعة التي ينتمي إليها. ومن المهم أن نشير إلى أن الوشم والكي بالنار ـ وهو غير الحجامة ـ استعمل من زمن طويل،

ولا يزال معمولًا به ـ علامة على المجرمين أو المسجونين أو الأسرى من الأعداء تحقيرًا لهم، لكن الوشم بدأ يضمحل الآن، بل وقد اندثر في كثير من المجتمعات المعاصرة.

ومن السهل أن نذكر أول طبيب عُرف في التاريخ ـ أي مارس الطب وأصبح مهنته وليس مجرد هواية له ـ كان ايمحوتب المصري الذي عاش في عصر الملك «زوسر» ـ رأس الأسرة الثالثة الفرعونية وصاحب الهرم المدرج (٢٧٨٠-٢٧٦٠ قبل الميلاد). لكن الأخطر من الأطباء الذين لم يكونوا أطباء: كان «راسبوتين» الروسي، والذي قُتل في الخامسة والأربعين من عمره على يد فريق من النبلاء ـ راهبًا ذا سطوة على كل من يقترب منه، مع أنه كان فلاحًا أميًّا جاهلًا، إلا إنه سيطر على القيصر والقيصرة عن طريق علاجه الخارق لولي العهد المصاب بنزيف الدم، ثم استفحل أمره في الهيمنة على نساء القصر وزوجات النبلاء. ويعد «راسبوتين» رمزًا عصريًّا للعلاج ذي السطوة الشريرة، وهو منتشر ـ بنسبة قدرات أقل كثيرًا ـ في سلوك شخصيات مشابهة تخترق التجمعات البشرية ثم تصبح أسطورة فيها ـ ولا سيما بعد اغتيالها، ولعله من المناسب أن نتذكر أن مواليد المنطقة الروسية في سنوات شهرة «راسبوتين» الكاسحة قبل عام ١٩١٦ ـ حملوا اسمه، الذي لم يلبث أن اندثر من دفاتر المواليد بعد ذلك.

وسوف أكون واقعًا تحت تأنيب الضمير الطبي الحديث لأني بدأت موضوعًا عن الطب بقابيل قاتل أخيه هابيل ثم أنهيه بـ«راسبوتين» الذي يقول عنه التاريخ المحايد إنه «الفاجر اللعين»، دون أن نمر على

داود الأنطاكي، وجابر بن حيان، وابن أبي أصيبعة، وابن الأحنف (بيطري)، وابن الجزار، وابن جزلة (وكان يدرك فضل الموسيقى على شفاء الأبدان)، وابن جلجل، وابن خاتمة (وضع كتابًا عن وباء الطاعون الذي وقع ببلدته)، ومحمد بن دنيال، والعالم الشهير ابن رشد صاحب الاجتهادات الفلسفية المبكرة والرائعة، وابن طفيل، وابن ميمون، وابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية وعلاج ما يصيب الشرايين والرئة)، وابن الهيثم البارع في الرياضيات وعلوم الطبيعة ثم الطب. وعلينا أن نأخذ أنفاسنا حتى لا ندخل العصر الحديث بأطبائه العرب ـ في كل أنواع الطب حتى ـ وعذرًا ـ المتخصص في علاج السموم وعلى رأسهم المرحوم محمد سليمان، مع إشارة سريعة إلى طبيب متخصص في البايولوجي هو مصطفى إبراهيم فهمي، وقيمته عندي ترجع إلى أنه أصبح صديقي، مع إعفائي من ذكر باقي أطباء العصر.

كلمات لها معنى

من كثرة استخدام تعبير الجبهة في الحروب، لم أعد قادرًا على الإمعان في المسافة التي تكلل رأسها من منطقة عيونها حتى استواء شعرها.

*

أخطر ضحايا الجوع: إحساسك بالجمال.

*

أرجو أن تقترب أصابعك من صنبور المياه بنوع من الرفق، لا أقصد ما توقفت حبيبتك عن الإفصاح حوله قبل أن تهجرك بعدة دقائق.

*

الحاقدون: الاسم الصحيح للجيل الذي أنتمي إليه بعد أن فوجئنا بأننا أصبحنا ـ مع الأسف ـ أجدادًا لهم أحفاد.

*

الجبال التي تقترب من الحفرة تزداد بهاء.

إضاريات

الإضارة نوع من تطوير الإدارة، أي هي الدرجة الأعلى حينما يصبح التين طينًا والقدر كدرًا والسوق سوءًا (ويظل الجبن جبنًا).

والإضارة ـ بطبيعتها ـ تحتضن الإدارة في قلبها الأسود، وتتولى بدلًا منها التقييم والتقويم ومصادرة القدرات وتمييع المواقف ومحاصرتها بالقوانين الأصيلة، فهناك جريدة عربية يومية تدفع مكافآت مالية للمواد الإبداعية التي تنشرها، لكن الإضارة ترى أن (المواد الإبداعية التي تنشرها) هي المقالة والبحث والرسم والدراسات والخطب فقط، حيث ترى هذه الإضارة بعد عشرين قرنًا من ميلاد السيد المسيح، وخمسة عشر قرنًا من ظهور الإسلام وانتشاره في أرجاء المعمورة وبعد المواثيق المتعددة حول حقوق الإنسان والحيوان والحفاظ على الممتلكات، وبعد إقرار حقوق الجار والحكومة والعرف والتقاليد وأبناء السبيل والأدباء واليتامى، وبعد مائة وواحدة وعشرين حربًا: ثلاث منها عالمية (هابيل وقابيل ـ حرب ١٩١٤ ـ حرب ١٩٣٩م)، بعد كل ذلك ـ وغير ذلك ـ ترى

إضارة الجريدة أن القصة والشعر ليسا من فنون الإبداع، وإنهما لذلك ـ لا يستحقان أن يكافأ صاحبهما، وعندما تلجأ إلى رئيس التحرير، بصفته ـ بشكل من الأشكال ـ مبدعًا، يقول إن هذا من شأن الإدارة والإضارة ـ يا حبيبي ـ مجموعة من أصدقائنا هواة المسلسلات التلفزيونية ولعب الدومينو والعوم في الملفات واللوائح والغطس في قاع محفوظات الورق (بعد السقوط المتوالي في محفوظات المدارس)، لا يعرفون ـ إحقاقًا للحق ـ الفرق بين القصة والقشة، والنثر والنشل، كما أنهم ـ من الناحية الإنسانية الخالصة ـ يعانون عذاب الدنيا حينما يكتبون لك صكًا أو شيكًا ـ بثلاثمائة دولار مكافأة قصائد لم يقرأوها ولم يتعرفوا على العناء الذي تتكبده لتكتب هذه الأبيات، التي تحصل بموجبها على نصف مرتبهم الشهري (وأضعاف المرتب الشهري في بلاد أخرى) وفي عصر يمسي جهدهم الأول والأخير أن يصبحوا أعضاء إضارة تبحث لها عن جحر تكمن داخله كل أنواع الضواري، رفقاء العمل والأمل والحزن البهيج.

الكرم

أطمع أن تتسع جوانحك معي ـ يا صديقي ـ كي تظل كريمًا مبتسمًا، وأن تفتح صدرك للهواء البري الطلق الذي تراقصت «كارمن» على أنغام الموسيقار الجميل «بيزيه» تحت سطوته لتخترق الآفاق الممتدة بين ثنايا جبال البرانس، بين إسبانيا وفرنسا على إيقاع طبيعتها الساحرة. وسوف تظل الابتسامة الإنسانية هي الإشارة العذبة لمعنى الكرم الذي جعل من حاتم الطائي رمزًا للإحساس النقي الراقي للجود العربي التاريخي، ليصبح مثالًا للكرم الأصيل فيما روي عنه، حتى إنه قام بذبح حصانه الأثير تضحية لإكرام ضيوف عابرين، ولقد حظي حاتم الطائي بمساحة من التواصل الحيوي الراقي في كتب المدارس والقصص المتوالية في الآداب العربية والفارسية والتركية، ليظل شعره يدور حول الأخلاق الكريمة من جود وتضحية وإيواء ومساعدات بالغة الدفء الهادئ دون ضجيج.

وكان المخرج المصري كرم مطاوع منبهرًا بحاتم الطائي، يسعى للتعبير عنه في نص مسرحي أو تلفزيوني، لكنه رحل دون أن يتحقق

أمله، وقد شاءت ظروفي السعيدة أن نتقارب معًا، حيث كان يتألق في ليالي السمر، فيلقي لنا ببعض أشعار هذا الفارس الكريم، كل ذلك محاولة من كرم مطاوع كي يواجه الاختناق العصري الحديث الذي لا يكاد الكرم يجد فيه مستقرًّا إلا داخل حفلات التكريم المنتفخ بالشعارات والأغاني.

إلا أن الكرم انبثق من مصدره الأخلاقي الخاص بالجود التاريخي، ليبدو شديد العذوبة في صوت كارم محمود، ذلك الذي أثار كوامن شجن عصور مراهقتي إزاء «أبو العيون السود» وترجمتها ـ أو صياغتها الفصيحة: ذات العيون السوداء، مع أهمية أن الغزل عندنا ـ أي في البلاد العربية ـ يتطارح لغويًّا بصياغات المذكر في حالات عدة مشهورة، الحبيب المجهول لعلي محمود طه وغناء محمد عبد الوهاب، وما يتوالى على فنون التعبير عن العشق: حبيب الروح، يا عزيز عيني، وفي اللغة الدارجة: «كل ده كان ليه لما شفت عينيه». وكان المخرج السينمائي المصري المبكر محمد كريم يعشق الحب عنوانًا لمعظم أفلام محمد عبد الوهاب: يحيا الحب، وممنوع الحب، ولقد ظللت ـ بناء على جهلي القروي ـ أتساءل عن علاقة محمد كريم المخرج ومحمد كريم قائد الإسكندرية ضد الحملة الفرنسية وكريم خان حاكم فارس ـ إيران حاليًّا ـ في القرن الثامن عشر الميلادي، وكل من حمل اسمه صفة الجود الكريم: بالكريم الذي ينتشر عنوانًا لأنواع من المراهم الخاصة بترطيب البشرة وإزالة خشونة ملمس الجلد، حتى عرفت ـ من المعاجم ـ أن الكريم المقصود يعتمد على أنه المعنى الإنجليزي، ثم في باقي اللغات

الأوروبية: الزبدة والقشدة، وما يقابلهما وما ينتج منهما من صياغات تقابل المعنى اللغوي العربي: أزبد وأرغى، في حال الانفعال... أو الدسامة وقد تتواصل هذه الصفات الناجمة من الكريم ـ دون الكرم ـ ليحملها في اسمه: «كرومويل»: رئيس الجمهورية الإنجليزية في القرن السابع عشر الميلادي، وهي الفترة التي لم تزد على خمس سنوات (١٦٥٤-١٦٥٩)، لتعود انجلترا إلى نظامها الملكي القائم حتى الآن، ودون أن ننتبه إلى إنسان الدور الأعلى أو الأرقى في العصر الحجري القديم الذي يحمل اسم «كرومانيون»، وهو ذات اسم الموقع الذي اكتشفت فيه بقايا هيكله العظمي بمنطقة الأليزيه بفرنسا، ويعتبره علماء تاريخ البشرية السلالة التي ينتمي إليها الإنسان الحديث بقامته المنتصبة وطوله الفارع. أما «كرومر» الشهير في التاريخ المصري فهو إداري ودبلوماسي بريطاني ظل يمثل السلطة التي ينتمي إليها، وقيل إنه كان يحب مصر حبًّا يخرج من دائرة الاستعمار الغربي حيث قام بتأليف كتابين: مصر الحديثة (١٩٠٨)، ثم الاستعمار القديم والحديث (١٩١٠).

ولعل الفاكهة الوحيدة التي نالت جزءًا من صياغة الكرم كانت العنب، مع تسكين الراء (كرْم)، وبالتالي فإن الكروم ظل، حتى اليوم، يعتبر إشارة شعبية للكرم مع الضيوف، مع بعض اللحوم أحيانًا، وإني أعتذر الآن عن مقال لي عن حاتم الطائي ـ ذي الجود المشار إليه ـ والمؤثر في السلوك الخاص بنا حتى الآن، حينما قمت بتحريف اسمه من حاتم الطائي، إلى حاتم الطاهي، فقد كان يستمتع متعة رقيقة وراقية حين يقوم بتقديم الطعام بيده بعد إعداده وتجهيزه بمعرفته، فقد

واجهني أمر بالغ الشر: ماذا لو أنه نحر حصانه ـ أي جواده ـ كرمًا لي بصفتي مسافرًا مرهقًا، وأنا لا آكل لحم الخيول؟ حينئذ أحسست بهذا الشر يسحبني إلى الكرملين: تلك القلاع الروسية الشهيرة بخشونتها وعضلات أو جفاف أفكار من يقيم فيها، دعنا من الكرملين الأكبر في موسكو الآن، السفر في الصحراء أفضل.

وقد يكون مجرد تساؤل عن ممثلة مصرية اسمها كريمان ظهرت في عصر عبد الحليم حافظ، ولا أعرف عنها أي معلومات تبيح لي أن أعترف لها بموقعها في الفؤاد، إلا إن كريمة مختار تلك الأم الحنون الغاضبة وشديدة التأثر بما يجري حولها في أفلام ومسلسلات التلفزيون والمسرحيات، احتلت موقعًا مؤثرًا في العواطف العائلية المضغوطة في العصر الحديث، لتصنع انفراجًا بعيونها، واهتزاز نظراتها، فتفتح شفتها العليا في ابتسامة بالغة الدفء والبساطة، إنها تتكارم: أي أنها تؤدي دورًا تعلو فيه عن الأمور غير المريحة، وتتنزه عنها، وهنا يمكن أن نقترب قليلًا من الكرامة، والتي تعني اختزالًا خالصًا ـ ونقيًّا ـ بامتزاج الكرم مع العفة والشرف والانتماء عائليًّا ووطنيًّا ودينيًّا ـ أي إنسانيًّا أيضًا. ومن أنواع هذه الكرامة تلك التي يحملها في أرواحهم وسلوكهم أولياء الله، إنها الأمر الخارق الذي لا يمكن أن تقوم أنت ـ بصفتك شخصًا عاديًّا ـ بإبرازه دون استعراض للتحدي أو الادعاء، إنها أمر خاص وطبيعة استثنائية غير الكرامة التي نعيش في ظلال معانيها السلوكية، وإن كانت الكرامتان تلتقيان دائمًا، مع النظر إلى ما قد يريحك حينما تخترق الصحراء الشرقية المصرية في طريق الكريمات إلى البحر.

ومع أني لا أود أن أستدرجكم إلى مسائل أخرى نابعة من الكرم، فإني أود أن أبدي ملاحظة حول من يحمل اسم كريم، ففي الأرياف والواحات يتم نطق هذا الاسم بتشديد الياء مع ضم الكاف وفتح الراء: كُرَيِّم، وبمجرد أن ننتقل إلى المدن نتخلص من هذه الصياغة ليصبح الاسم كريم فقط دون تشديد أو ضم أو صيغة التصغير، فيكون كريم على وزن فعيل أو سليم أو عزيز أو نبيل، دون تشديد يجعل من كُرَيِّم لحنًا صوتيًّا بالغ الروعة خارج المدن والمواقع المؤثرة.

إنها فرصتي أن تتسع جوانحك ـ مرة أخرى ـ كي تظل كريمًا ومبتسمًا ليس مع الأصدقاء ورفقاء الجلسات الممتعة، بل في بيتك، مع أسرتك، ولو بعض الوقت.

كلمات لها معنى

لماذا ـ حين ترفع وجهك للسماء، وتمعن بعينيك فيها بعض الوقت، ينزاح القلق والتوتر والخوف من كل كيانك؟ عليك أن تبعد عينيك عن الأرض ـ بعض الوقت أيضًا.

*

أخطر أنواع الهمس: الوشاية والنميمة، حتى إن الحب يجد حرجًا حينما يحتاج إلى درجة من الهمس.

*

كان ضيفي من الدانمرك ـ أي شمال أوروبا، ظل طوال الوقت

لا يهتم بالمأكل والمشرب، عيناه تتابعان الشمس شروقًا وغروبًا، لم أكن أعرف أن الشمس عندهم نادرة، وأنواع الطب والعلاج لا تعرف هناك ما نصاب به: ضربة الشمس.

*

مع كل العوائق التي تحاصرني كي أبدو إنسانًا عصريًّا لا يجوز له أن يزور صديقًا أو قريبًا دون اتصال وتمهيد سابق، سأظل مصممًا أن أطرق بابك دون اتصال أو تمهيد سابق، متعة لا حدود لها.

السفر

إنه السفر: هذا الارتحال من مكان لآخر، بالأقدام أو على جمل أو فيل أو حوت أو سيارة أو سفينة أو طائرة أو صاروخ، أو حتى ـ رعاك الله ـ على الأكتاف، من بيت لبيت أو من خيمة لخيمة أو من بلدة لبلدة أو من قارة لقارة، وقد بدأ يزحف على السفر الارتحال من كوكب لآخر، ولن يكون مدهشًا أن تكون أنت من كوكب الأرض وأصهارك ـ أهل زوجتك ـ من زحل. وربما يكون مرهقًا أن يكون ابنك الأكبر يعمل في المشترى بعد أن واجه بعض المتاعب في كوكب نيبتون. ولذا، فسوف يظل السفر وراء الخيال الخصب في الشعر والرواية وشجن الموسيقى المتوائم مع تداخل خيوط القماش واستدارات القباب وشموخ المآذن وأوار النار، شواءً لحمل أو جدي أو حتى أرنب، وما يكاد هذا الشواء ذو الرائحة المثيرة للاشتهاء ينضج حتى يتحول السَّفر إلى سُفْرة: تلك المائدة اللذيذة التي أخذت اسمها ـ السفرة ـ من التحية الكريمة والهانئة من الإحساس الغامر بما يعانيه المسافر. لكن أمر السفرة يتسع حتى يشمل ما على المائدة من طعام،

وكلما ازدادت أنواعه تألق الكرم دون أن ينتبه إلى أن السفرة هي الجزء الخلفي أعلى الثوب في الزي القروي بالجلباب. وهو ما بدأ يندثر تحت سطوة أزياء وافدة تتلاءم مع الحداثة ومع الأغاني الراقصة الضاجة المتقافزة دون ثبات شكل معين ـ ولو بعض الوقت.

إلا إن السفر ـ بمعنى الارتحال ـ ظل منذ فجر الحركة الإنسانية الحيوية في الانتقال وراء لقب السفير: ذلك الشخص الذي يمثل الجماعة البشرية لدى جماعة أخرى، ليتطور الأمر به ليصبح الدبلوماسي في العالم العصري المتسع في الدبلوماسية، أو السلك الدبلوماسي، والذي يدرس في قواعده وأعرافه وتقاليده والصفات الخاصة لمن يعملون داخل مجاله في أرقى أنواع الكليات والمعاهد، وربما يكون ذلك وراء اختباء السفر وراء السفور، والمعنى المعروف للسفور هو أن تكشف المرأة عن وجهها. ويقال: سفر الصبح: أضاء وأشرق، وسفرت الشمس: طلعت وبدأت تضيء الكون بأشعتها في وقت مبكر، وأسفر وجهها ـ أي وجه الأنثى حُسنًا: أشرق وعلاه جمال، أما إذا أسفر الرجل فهذا يعني أنه خرج للارتحال، فإن قامت الريح يسفر الغيم عن وجه السماء فإنها تكون قد كشطته وكشفت عن الصفاء، فإن حدث هذا السفر للبيت فإن السفر هنا يعني الكنس والتنظيف، ومنه جاءت السفارة: أي الكناسة. وإن ارتبط فعل السفر بالكتاب فيعني أنه تمت كتابته، ومن هنا جاء السِّفر، والذي منه تقسيمات التوراة ـ كتاب اليهود المقدس ـ إلى أسفار: سفر التكوين وسفر الرؤيا وسفر الخروج... إلخ. لكن مقدم الرأس ـ إذا انسفر من الشعر فإن صاحبه يصبح أصلع، أما السافر ـ اسم الفاعل من السفر ـ فهو

المسافر، والكاتب، كما أن السافر هو الملاك المكلف بإحصاء أعمالنا تمهيدًا للحساب في الآخرة، وفي التنزيل العزيز: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ». أما إذا جاءت سافر صفة لكائن مثل الخروف فإنها تعني نحوله ونقص اللحوم في جسده، والسافير: الياقوت الأزرق، أي معدن «الكوراندوم» المركب من أكسيد الألمونيوم، ويُعد من الجواهر النفيسة. وأنا شخصيًا ـ الذي يكتب الآن ـ أسمع وللمرة الأولى عن هذا الياقوت الأزرق الملقب بالسافير، والذي موطن تعدينه: سيام والهند وبورما وأستراليا، إلا إن أنواعًا جديدة من فعل السفر تدخل الساحة متجاوزة هذا المعدن الغامض المشار إليه، فقد تجاوز لقب السفير الرسول بين قومين، والمصلح بين مجموعة متخاصمة، ليعني: السمسار (أليس السمسار وسيطًا في التسويق؟)، ثم: السفير هو العالم بالأصوات والحاذق في إدراك قدراتها وتكويناتها، والسفير ـ أيضًا ـ هو الظريف العبقري، ولعل ذلك يدفعنا إلى أن نمنح لقب سفير لهذا النوع من الظرفاء العباقرة الذين لا أميل إلى ذكرهم ـ الآن ـ هنا، لكن السفير لا يلبث أن يصبح معناه: أسافل الزرع، أو ما سقط من ورق الشجر. ولعل ذلك وراء إطلاق كلمة السفير على ما تحمله سنبلة القمح من قش يحفظ حبوبها قبل أن يتم حصادها، فإذا تم تأنيث هذا السفير بمعناه المتوالي، فإن السفيرة تعني القلادة العارية دون أي غطاء زخرفي ـ وتكون عادة من الذهب أو الفضة.

ومع كل ذلك فسوف يظل للسفر أرقى ثلاثة معانٍ بين كل هذا الحشد، المختصر، السفر بمعنى الارتحال وهو متعة عصرية يفتقدها ولا يدركها كثيرون ممن يسافرون من أجل المهام العسرة والقضايا

المرهقة، ثم السفر الذي يتوالد منه معنى الأسفار ليصبح فاعلها سفيرًا، لكن السفر يعلو حين يصبح ـ بعد تسكين الفاء ـ كتابًا راقيًا يكون سلوانًا لك في عالم معاصر بالغ الضجيج والعداء لكل ما هو هادئ. والذي نصبو إليه ـ هذا الهدوء ـ بتناول ثمر السفرجل كي يتم تنظيم الهضم وتسهيل عمل الأمعاء، أو أوراقه التي يكون غليانها على النار هو التمهيد لنوع من الاستشفاء من أمراض عديدة في الجهاز الهضمي والأعصاب ودورة الدم، لا يمكن لنا أن نقوم بالسفر ـ أو القراءة ـ أو الكتابة ـ أو الإمعان في الكون إذا ما وقعنا فريسة له. أما السفرجل ذاته فيمكن لك سؤال أهلك وذوي التجارب من قومك عنه، إذ إن المخ الحديث يسعى ـ جادًّا ـ نحو عالم مضطرب لا يصلح فيه جمال السفر، أو متعة احتساء شراب السفرجل.

كلمات لها معنى

الوحيد الذي أتغاضى عن وجهه العبوس: الصرَّاف الذي يبدأ فيجهز لي مرتبي.

*

الذئب لا يعوي لمجرد المرح.

*

انظر إلى عيون القناطر حين يتوقف وميض الماء فيها وتسعى للسكون، أنا لا أقصد الأنثى.

*

القيمة الأساسية للذهول تعني أن ثمة مخًّا يعمل قد أصابته بعض العوائق، كثيرون يبتسمون دون أن يذهلوا ولو لمرة واحدة.

*

النجيل أكثر ذكاء من النخيل، يكفيه أن يظل مستفيدًا من ظله الممتد دون أن ينتبه إلى أن النخيل يظل يفتخر بشموخه في الصهد الحارق، دعك من أنه يتعرض للدهس بالأقدام.

السمر

كنت مشغولًا بموضوع أسامركم به في أمسية قراءتكم هذه السطور، أحاول أن أستدرجكم بعيدًا عن القلق والتوتر والضجيج المتراقص مع مشاهد الدم الصارخ في شراسة العنف الحديث على شاشات التلفزيون، فإذ بي أتسمر أمام وجه بالغ العذوبة السمراء: سيدة ـ امرأة أفضل ـ تتسلق بعينيها أرقام بيوت الشارع، فتحركت نحوها مبتسمًا، وبعد أن أشرت لها على المنزل البعيد الذي تبحث عنه، ودون أن ينطلق من فمها حرف واحد: انبثق إشعاع من عينيها السمراوين ـ لم أقل السوداوين ـ في امتنان. بعدها أحسست بانشراح صبياني يسعى بين جوانحي بحثًا عن سمر قديم ـ مفقود ـ كنا نسترخي نحن الأصدقاء تحت عذوبة ضوئه الخافت، والرقيق، والهامس، والمفعم بالمرح والحبور.. أيضًا.

وأهم عناصر السمر: مسك السيرة، أي الكلام المرتبط بالغائبين، وهي مسألة مكروهة أخلاقيًّا ودينيًّا. إلا إن إثبات المقصود هنا على النحو الشرير يفسد علينا أنواعًا تخرج من مجالس السمر إلى

صفحات الجرائد والمجلات والقصص والأغاني، مسك السيرة على النحو الطيب يخرجنا من الإحساس بالذنب. مع أن ثلاث مدن دخل السمر في خلايا تكوينات أسمائها: ـ أسمرة عاصمة إريتريا على البحر الأحمر، والتي كانت في اتحاد مع إثيوبيا ـ الحبشة قديمًا ـ ثم انفصلت، وسامراء العراقية على نهر دجلة ولا تزال بها أطلال مدينة سامراء العباسية التي أنشئت زمن الخليفة المعتصم، ولا يزال باقيًا من أطلالها ـ أو من آثارها ـ دار الخليفة المتوكل، والمنارة الملتوية على مسجدها، وفيها ضريحا الإمام علي الهادي وولده حسن العسكري، وعندها يقع سد سامراء. أما الثالثة التي تخضع عنوة للسمر فهي السامرة: منطقة بفلسطين تكثر بها التلال المستديرة، ويغلب عليها المظهر الجبلي رغم أن كثيرًا من السهول تتخللها بوديانها الصغيرة، وفور الخروج من السمر الجغرافي فسوف نقع في تاريخ السامري: ذلك الإسرائيلي الذي أضل قومه في غياب النبي موسى، وأمرهم بأن يلقوا بما يحملون أو يحتفظون من حلي في النار، وصنع لهم عجلًا من ذهب تصدر منه أصوات غريبة بفعل الرياح، ودعاهم لعبادته فعبدوه. ولما رجع النبي موسى من غيابه كشف عن حيلة السامري ونفاه: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ»، ولا يزال اليهود ـ حتى اليوم ـ يسعون في العالم بحثًا عن العجل الذهبي ليعبدوه، والذي يراجع التاريخ القديم، والعصور الوسطى ـ في أوروبا بالذات ـ سوف يجد السامري لا يزال مهيمنًا، والذي كان «شيلوك» الدموي في «تاجر البندقية» عند «شكسبير» رمزًا مكثفًا وبسيطًا وجميلًا له.

وبحثًا عن سمر آخر أقل ضغطًا على الأعصاب، فإن الأسمر كان شاعرًا مصريًّا عرفنا قصائده الجميلة ونحن تلاميذ، ولم أجد تعريفًا له فيما أملك من كتب ومراجع. أما الأسمر والسمراء ـ صفة للمحبوب، فقد امتلأت بها القصائد وإن غلبتها الأغاني منذ تغنى بأنواعها فايزة أحمد وعبد الغني السيد وعبد الحليم حافظ (سمراء يا حلم الطفولة)، أما الأسمران فهما الماء والبُر ـ أي حبوب القمح، ويقال: سمرت الماشية النبات: أي رعته وأكلته، وسمر اللبن أي أصبح سمارًا صفة للبن المخلوط بالماء، ويطلق أيضًا على لبن الظبية لأنه خفيف الكثافة، كما أن السمار نبات رقيق بأوراقه وسيقانه الممتدة طولًا تصنع منه أنواع من الحصير والسلال في مصر. وكان هذا النوع من حصير السمار يغطي أرض حجرات ومصاطب السمر ذات عصر ـ وقد بقي منه في بعض البيوت الحديثة قليل، وبين سمار الفرش وسمَّار الجلسات في مجلسهم كان اللفظ أيضًا يطلق على ضوء القمر ـ هل رأيت ما هو أكثر رومانسية من ذلك؟! وأليس ذلك وراء انتشار أسماء سميرة وسمير في أهلنا؟

لكنك إن ضممت ميم السمر فإنه يعني نوعًا من شجر الطلح الذي ترعاه الإبل دون المواشي، وينبت في السهول وبعض التلال تلقائيًّا، أما إذا وصفت العام بأنه أسمر فإنه يكون جدبًا شديد الفقر من الجفاف، فإذا تدخل المسمار ـ هذا المصنوع مدببًا من الحديد كما تعرف ـ في المسألة فإنه يستولي على السمر ليصبح تسميرًا، وسمَّر الخشب وغيره: شده بالمسمار المشار إليه وثبته بالدق على رأسه.

وفي الأعوام الأخيرة بدأت أشواقنا بالسمر تطرف في عيون

الشوق إلى الماضي، فظهرت كلمة السمر في برامج التلفزيون التي تسعى إلى أن تكون هادئة هامسة، ثم مسرح السامر الذي يروم تقديم الأمسيات ذات الصدى الشعبي في مسرحياته وتمثيلياته، مع أنني لاحظت أن معظمها يبدأ سمرًا ثم لا يلبث أن يقع صريع ضجيج الطقوس والطبول ورغبة المسامرين أن يقلقوا أمثالنا، مع أن السمر نسيم عليل يرتاح العقل المتعب في وجدانه الهادئ، هذا الذي أراح شهريار الدموي ليغفو في الحلم الجميل الذي احتوته به شهرزاد.

كلمات لها معنى

عندما يتلاشى الذيل تبدأ الحيوانات في البربشة ـ أي النظرات المتوالية بعيونها، «دارون» صاحب نظرية التطور لم يقل ذلك.

*

اختراق الجمجمة مستحيل إلا بالشاكوش أو طلقات الرصاص، العنف يستخدم هذه الطريقة ثم بعدها يندهش لمشهد الجثث.

*

حتى حفيدتي تظل تستثير دعاباتي المرحة لها انتظارًا لأن يفتح أحدنا التلفزيون.

*

ما زلت حتى اليوم أحاول أن تصل أصابعي إلى جرس باب أسرتي دون أن أطرقه بكفي.

*

كلمة «الباطل» لها حروف مشرعة إلى أعلى، انظر إليها جيدًا، ثم انظر إلى «الحق» سوف تجد كلمته مرسومة في هدوء يتيم.

*

أول من يستيقظ مبكرًا الغراب، لكن العصفور هو آخر من ينام.

*

انتبه، ولا تيأس، فإن العيون المتفائلة تستطيع أن تخترق السحب لترى القمر.

حوافظ

ظلت حفيظة ـ بنت عم أمي ـ تحتل موقعًا متميزًا في حافظتي ـ أي ذاكرتي ـ كانت نحيفة ضعيفة لها أصابع طويلة ذات بروز في عظمة المفاصل. وقد هالني ـ فيما بعد بسنوات عديدة ـ أن هذه الأصابع النحيفة غير مستوية التضاريس، تفوق في طولها أصابع عازفي البيانو والجيتار والعود، وفي تقوسها أصابع النشالين ومستنزفي خلايا عسل النحل وجامعي ثمار التوت، كما أن عيونها كانت تلمع في وميض عيون الثعالب ونقاد الأدب لحظة اقتناص الدواجن ومقاطع نظريات السرد في إبداع الأصدقاء فقط. ومع ذلك فإنهم جميعًا ـ حفيظة والثعالب ونقاد الأدب ـ لم يثيروا حفيظتنا، ولا سيما أن بنت عم أمي المشار إليها تتميز بعشقها الواضح للآخرين: تعاطفًا وكرمًا وخيالًا دافقًا، لا تتورع أن تسألني ـ في جدية هامسة ـ أن أنقل لعبد الحليم حافظ تحيتها الشخصية زاعمة أنه قريبها ويعرفها جيدًا، دون اهتمام بأن المطرب المشهور بالعندليب الأسمر لم يكن ـ حتى ـ من الصعيد، وإنني لم أره في حياتي، لكن قاعدة كونه يحمل اسم «حافظ»، ثم:

ولأن اسمي يرد في الجرائد والمجلات ـ يحول دون حفيظة والخروج من هذا الاعتقاد، والذي أكده أن شقيقها «نعمان عبد الحافظ» الذي لم تكن تحبه بالقدر الأخوي المعهود ـ أصبح بطلًا لأحد أعمالي الأدبية، وجاء اسمه في كلام الراديو والتلفزيون دون أن يرد اسم حفيظة بالمرة.

ودون تحفظ فإن أهل أمي كانوا ـ جميعًا ـ لا يعملون فلاحين، ويمتلكون قدرًا مذهلًا من التكبر إزاء أهل أبي، ويتصرفون دائمًا بصفتهم المحافظين على الأخلاق والمثل العليا والقادرين على النصح والإرشاد والإشارة إلى الطريق الصحيح، والتنبيه الدائم للمحافظة على المحارم ورعاية الأبناء وعدم تبديد الثروات. وهو أمر ظل يثير المرح ـ والسخرية أيضًا ـ لأنهم لم يكونوا ذوي ثروة أو عمل أو نشاط تجاري يبيح لهم ذلك. واحد فقط ـ هو خالي شقيق أمي مباشرة ـ ألقت به صدفة التعليم المبكر أن يصبح معلمًا في المدارس الإلزامية ـ التي اندثرت الآن ـ وبعدها وصل إلى منصب ناظر مدرسة، وكنَّا جميعًا ـ نحن وهم ـ نزهو به وظللنا نحتفظ به لنحارب ونباهي العائلات الأخرى. وقد استطاع خالي ـ الذي كان يقرض شعر المديح ترحيبًا بذوي المناصب ـ أن يحيل جميع من حوله من أهله إلى نوع من الخدم البائسين، الذين ينتظرون أي إشارة منه، وكنت واحدًا منهم، وما كدت أهرب حتى أفرغ حفيظته وحافظته ضدي، ليكتشف الجميع ما كنت أتميز به من صفات لئيمة ودنيئة، إنه السبب الأصلي الذي جعل الحافظ ينحرف بي كي أصبح كاتبًا بدلًا من قاطع طريق.

والحافظ ـ لغة ـ الطريق البين المستقيم، أما حافظ العين فهو الذي يظل يقظًا لا يغلبه النوم، أما إذا أصاب الحافظ تأنيث فأصبح حافظة فهي الذاكرة التي تحفظ ما تدركه القوة الذهنية من المعاني والمشاهد. وتأخذ الحمية وسخونة المشاعر حقها من هذه المادة اللغوية تحت سطوة «الحفظة». ويقال: هو ذو حفظة: غيور على المحارم ـ دعك من أهل أمي الآن. كما أن الحرز أو التميمة أو الحجاب الذي يعلق على صدر الصبي يستأثر بلفظ الحفيظة ـ أي التي يعتقد الناس أنها قادرة على استدرار الحفاظ على الولد الغالي، وهو ما لا تحظى به الأنثى في هذا المجال بالذات، وإن استخدمت الحفيظة حرزًا للوصول إلى أهداف أخرى. ولم يتورع عدد من ذوي النشاط السياسي أو المناصب الإدارية عن اقتناص نصيبهم: وأشهرهم حزب المحافظين في بريطانيا ثم المحافظ الذي هو أعلى موقع في الولايات المتحدة والمقاطعات والمديريات في جميع أنحاء العالم: كما أن المصارف والبنوك والمؤسسات المالية تعشق أن يكون على رأس إداراتها المحافظ ـ ربما هنا يرتبط ذلك بمحافظ الأوراق المالية التي تحمل أصغرها وأقلها حجمًا في جيبك الآن. ويرى أصحاب التحليل السياسي أن الاتجاه المحافظ هو ذلك الذي يرعى التقاليد والأعراف والقواعد الأخلاقية والسلوكية المستقرة، إلا إن لفظ المحافظ لم يلبث أن أصبح اتهامًا يصف به الذين يرون في أنفسهم أنهم «تقدميون» المناوئين لهم في الاتجاهات والأهداف والطموحات السياسية أو الإدارية.

ولعل أشهر من حمل اسمه مادة الحفظ أو المحافظة أو الحفاظ كان نجيب محفوظ الروائي المصري الشهير، إلا إن الطبيب نجيب محفوظ له شهرة راسخة في عالم الطب العربي المعاصر (ولد عام ١٨٨٢ ـ ورحل عن الحياة منذ حوالي أربعين عامًا) وكان متخصصًا في أمراض النساء والولادة، وحصل على الدرجات العلمية والزمالة الفخرية من الجامعات الأجنبية، وقد أنشأت له كلية طب القصر العيني ـ المصرية ـ متحفًا لمجموعته المشتملة على نماذج ولوحات مكبرة عن العينات والجراحات الخاصة في هذا المجال. كما أنه وضع عددًا من الكتب الطبية بالإضافة إلى موسوعته في أمراض النساء، إلا إن حافظتنا قد تجد واجبًا عليها أن تشير إلى محفوظ عبد الرحمن الذي يعد من أرقى كاتبي سيناريو التلفزيون، والذي لا تستدرجه المعالجات المثيرة للرغبة والنوازع.

مقطع مستقل

ومحافظة على ما جاء في السطور السابقة من قيمة لا نميل إلى تناول أي محفوظ أو حافظ آخر، حتى لا تضطرب الأمور فنقع في المحظور ويثير ما في القلب من حفائظ ضد كل ما هو محفوظ في القلب ضد عدد مذهل من الذين تحفظنا عنهم واحترزنا من الإشارة إليهم، ويصبح التحفظ ـ في معنى من معانيه المعجمية: الصيانة والقيد دون التحرر والانطلاق.

كلمات لها معنى

النسيم يغازل الأغصان والأوراق والزهور ونظرات العيون فتتمايل الحوائط والقلوب الجامدة والقرارات الإدارية تنتظر الزلازل.

❊

الكلاب فقط تهز ذيولها تعبيرًا عن رغباتها في الرضا أو الرفض أو الذل والاستكانة، مخلوقات أخرى تفعل ذلك دون أن تمتلك ذيولًا.

❊

تقرص في رفق خد الأنثى التي تحبها، وما تكاد آمالك تتحقق وتصبح زوجتك، فإنك لا تفعل ذلك مرة أخرى.

❊

أجمل ما في الاستغراق سماعًا للموسيقى الهادئة، أن أحدًا ممن لا تميل إليهم لا يستطيع الدخول في ساحة أفكارك.

❊

الفعل الجميل كالمعادن الثمينة: يبرق ويلمع دائمًا.

❊

رجاء ألا تحدثني في أي موضوع أثناء استمتاعي بحصر وعد الأوراق النقدية.

فرفور

ظللت أرى في كلمة «فرفور» لفظًا عاميًّا نستخدمه نحن ـ عامة الشعب: بعيدًا عن رصانة الفصحى، على أساس أن «الفرفور» وصف ساخر لذوي الدم الخفيف والحركات السريعة والتصرفات الطائشة ـ أو الحمقاء ـ التي لا خطر منها، إنهم أفراد يعبرون عما يجول في خاطر ذوي الرزانة الحكيمة ـ أو الثقيلة ـ بالتعليقات الذكية اللماحة ـ والتي تكون شائكة في بعض الأحيان، إنهم ـ هؤلاء الفرافير ـ الذين استخدمهم مباشرة يوسف إدريس ليعبر عما نتمنى أن نعلنه في مسرحيته الشهيرة، والتي قام فيها الصديق العزيز الفنان عبد السلام محمد ـ قبل أن نصبح صديقين بسنوات ـ بدور الفرفور. ولم يطرأ في عقلي خلال تلك الأحقاب ـ وبسبب ما أصابه من اتزان الثقافة ـ أن الفرفور يمكنه أن يحتل موقعًا ذا شأن في قواميس اللغة العربية، وأنني أستطيع استخدام لفظ الفرفور دون أن أحاصره بقوسين، وأنه يعني ـ مباشرة دون مجاز ـ الغلام الشاب (أي الذي بين مرحلتي الغلومة والشباب)، والعصفور الصغير (الزقزوق)، والفعل فرفر:

أسرع في خطوات متقاربة، ثم فرفر: طاش عقله، وسارع إلى الحماقة، وفرفر في كلامه: خلط وأكثر في اندفاع (ومنه جاءت كلمة فِرِفِر ـ بكسر الفاء الأولى والثانية مع تسكين الراء الأولى في اللفظ الذي يعني المدفع القصير أو المسدس الغليظ عند وصفنا لهذا السلاح سهل الحمل عند الجماهير، دون اهتمام بعدم إقرار هذا الفرفر في المعاجم أو صناعة السلاح). وفرفر الشيء شققه وحطمه، وفرفر الذئب الشاة: مزقها. كما أن هذا النوع من الفرفرة القاسية يمكن تخفيفه حينما نفرفر الشيء: أي ننفضه ونستبعده أو ننظفه من الغبار، أما إذا قام واحد ففرفر واحدًا آخر فإنه يكون قد نال من سيرته بما يشين العرض ـ أي عرَّض به، وتكلم فيما لا يصح عنه. وفي حديث نبوي رواه عون بن عبد الله «ما رأيت رجلًا يفرفر الدنيا فرفرة هذا الأعرج» أي يذمها ويمزقها بالذم والوقيعة فهو فرفار: أي يعلو على شأن الحياة الدنيا ضيق الصدر بها.

ويتسع أمر الفرفور إلى ولد المعزة والنعجة والبقرة بما يتسم به من تقافز طائش أخرق، وهو ما يتصف به أنواع من ذوي الدم الخفيف مثيري المرح: شيبوب أخو عنترة بن شداد كمثال، وجميع الأفراد الذين يعيشون في ظلال الأبطال ليكونوا الجواب الساخر في القرار الصادر من ذوي البأس: في المسرح والسينما والروايات المكتوبة أو المنقولة شفاهيًّا. لكن الأمر يتجاوز هذا المعنى حينما يصل فعل الفرفرة إلى الأسد ـ دون معاون له ـ لينفرد بصيده من الغزلان فيمزقها، دون أن يحس اللغويون بحرج حينما يضفون على الحمل ـ الخروف أو الجدي الصغير ـ صفة الفرفرة خروجًا على السلوك الطائش المتقافز ليعنوا أن

الحمل ـ في هذه المرة ـ فرفر: أي سمن واستكرش (أصبح ذا كرش) ووصل إلى مرحلة الإخصاب، لكن الفرس الذي يقع في الفرفرة، إنما تعني أنه قام بتحريك اللجام حتى نجح في خلعه عن رأسه.

بعد ذلك تصيب الفرفرة علم النبات ليصبح الفرفار اسمًا لشجر صلب قادر على تحمل النيران فتؤخذ من خشبه القصاع (جمع قصعة ولا تحاول التعالي عن اللغة الشعبية يا صديقي ـ فهي فصحى أيضًا)، كما أن الفرفار مركب من المراكب يخصص للنساء فقط، فإذا انكسر الفرفار أو الفرفور ليصبح فرفيرًا، فإنما هو نوع من الألوان الحمراء القانية جدًّا، ويمكنك ـ إن استطعت ـ أن تقتني الجوهر الفرفيري، الذي قد يقودنا إلى أنواع من الفرفرة تضيق بها الفصحى ونهمس بها في اللغات واللهجات الشعبية أثناء المطاردة المرحة والساخنة بين عاشقين قد تتاح لهما فرصة الفرفرة، والتي ننظر إليها بنصف عين، ودون أن نخفي ما في القلب من رغبة جامحة نتوقف عنها الآن، حتى لو فاتنا أن ننبه أن في مصر واحة الفرافرة ذات الهواء الجميل والنسيم العليل والسكون الرقيق الذي لا يحول بينك وبين مشاهد متوالية لفرافير المراعي من غزلان وماعز وشياه.

كلمات لها معنى

لا تمعن كثيرًا في السطوح الجامدة للحوائط والجدران، ضع فوقها بعض اللوحات الجميلة، ثم أمعن فيها كما تحب.

*

نلجأ إلى وضع أيدينا في جيوبنا أثناء إصدار الأوامر، فينتبه الآخرون إلينا جيدًا، وخصوصًا زوجاتنا.

*

أي سعادة تصل إلى الوجه ليبتسم ويصبح بشوشًا دون المرور على القلب، فإنها نوع من المجاملة - أقصد النفاق الهزيل.

*

الجوع قد يهدد المخ، لكن الشبع المتخم فإنه لا يهدد المخ: يفلطحه حتى يصبح بركة أو مستنقعًا راكدًا لا يصلح للتفكير.. أو حتى التدمير.

الفرسان والعشق

ما كدت أقترب من عالم الفرسان حتى شعرت بنشوة ـ يكمن في طياتها حزن حديث ـ وأنا أعود غلامًا إلى الفيافي أو الحقول أو الآفاق الممتدة، أركب عودًا ناشفًا من البوص وأتقافز به فارسًا مفعمًا بالغرام لعبلة أو ليلى أو رابحة. وكلهن معشوقات قامت بأدوارهن على الشاشة البيضاء كوكا ابتداء من عنترة أو بدر لاما أو سراج منير أو ـ في آخر الأمر ـ فريد شوقي: فرسان السيف والخيل وقصائد اشتعال القلوب. ثم لم ألبث أن أصابتني خيبة التصور عندما اتضح لي أن أعظم العشاق ذوي السيرة الغرامية الموروثة لم يكونوا من الصف الأول من الفرسان: قيس بن الملوح المشهور بمجنون ليلى بصفته العاشق المتيم بها ويكثر من ذكرها في حديثه وأشعاره (ويأتي دارها بالليل ـ كما ورد في الموسوعة العربية دون أي تدخل مني ـ وإن كنت سعيدًا بذلك)، فمنعه أهله من زيارتها ورفضوا أن يتزوجها، فذهب عقله وهام على وجهه شجنًا شعريًّا يتبخر في آفاق الصحراء: حتى مات، أما قيس بن ذريح وقد نجح

في الزواج السريع من معشوقته لبنى (وليست ليلى) على غير رغبة والديه (اللذين ظلَّا حتى الآن والدينا ـ في السينما والروايات والواقع والأقاصيص)، فألحا عليه إصرارًا منهما على تطليقها، وعذبا أنفسهما ليكرهاه على ذلك، وأثارا عليه قومه (لاحظ أنني ضيق الصدر بصيغة المثنى ولا سيما حينما يكونان والدين)، حتى أذعن العاشق لهما، وطلق زوجته المعشوقة. لكنه، لم يتحمل فراقها ومرض، فقاما بتزويجه أخرى، فلم يعاشرها، وتصاعدت الأمور عندما تزوجت لبنى الحبيبة، فلم يتوقف قيس عن الانهماك المستميت في حبها حتى نجح في تطليقها من زوجها، فماتت دون أن يستعيدها أو مات قيس نفسه، ولأن الأمر بهذه الطريقة المفرطة في التشاؤم المؤسف لا يشبعنا، فقد وردت أنباء عن استعادته لها، والحياة هنيئًا معها، ولعل ذلك هو العنصر الذي لا يزال فاعلًا ـ ولو كان مفتعلًا في النصوص الغرامية الحديثة الآن.

وقد اختلف الأمر قليلًا مع فارس آخر من فرسان الغرام، جميل بثينة، والذي عشقها وكانا يتلاقيان، فغضب قومها ورفضوه وحالوا دونه والزواج بها، فتزوجت من غيره فلم يكف جميل عن حبها والتشبيب بها (الإغراق بسيرتها) فشكاه أهلها إلى الوالي الذي أراق دمه بعد استنفاد النصح والتأنيب واللوم والتهديد، فهرب جميل إلى اليمن، ثم رحل إلى مصر، ومدح أميرها ثم مات بها (أين مقبرته في مصر؟ لا أعرف)، أما كثير عزة الذي اشتهر بعشقه لعزة بنت أبي بصرة، لقد عشقه العرب باعتباره واحدًا من فحول شعراء العصر الأموي، عاش بالمدينة لكنه ظل محبًّا للسفر في

الحجاز والشام والعراق ومصر، (مع أنه كان مفرط القصر دميمًا)، وهي صفات لم يكن العرب يميلون إلى الوقوف عندها، إلا إن قوة شعره استلزمت ـ فيما يبدو ـ أن يجعلوا من النقيصة أو العيوب تميزًا لصالح العاشق، مع أني لا أعرف إن كان كثير قد تزوج عزة حتى الآن.

وفي كل هذه الحالات فإن فرسان الغرام هم الذين صاغوا مقررات مواد مناهج مدارسنا بعد ذلك، فإن الدراسات ـ ولا سيما في الدرجات العليا مثل الدكتوراه ـ أخذت من هؤلاء الأبطال المرهقين مادتها البحثية في اللغة العربية، أو اللغات الأخرى، ولا سيما المستشرقون، إلا إن أبا الفوارس عنترة بن شداد هو الذي كان ـ وظل ـ رمزًا خالصًا للفضيلة العربية التي تتميز بها الفروسية: الشجاعة، وإجادة ركوب الخيل، ومرونة التصارع ـ مبارزة أو قتالًا، والأخلاق النادرة القادرة على عدم الاعتداء الشديد فتكًا بالأعداء الذين وقعوا جرحى مع التصميم العاشق للحصول على محبوبته، والتي كانت في حال عنترة استثنائية لم ترد في حال أخرى ـ في أي نص عربي أو غير عربي، ذلك لأن أمه كانت جارية حبشية (عائقان لا عائق واحد: كونها جارية ولأنها حبشية) في عصر ما قبل الإسلام الذي لم يألف التزاوج مع أمثالهن ولا مع أبنائهن. ومع ذلك، وبسبب ما تميزت به أخلاق ووقائع وسلوك وقصائد هذا الفارس في حروب قبيلته خلال داحس والغبراء، فقد تزوج من معشوقته عبلة ابنة عمه، ليخرج عنترة من وقائعه إلى سيرة غرَيرة متنوعة الأبعاد، اخترقت الوجدان العربي في كل العصور،

وأصبحت جزءًا دقيقًا واضحًا في الجهاز العصبي عندنا، مهما اختلفت الدول والأمم العربية، وقام الرواة ـ في الصحاري وعلى ضفاف الأنهار ـ ثم في طرق الأداء التمثيلي الفني في عصورنا ـ بإضافة التلوين الدائم وإبراز أنواع من العزف على تلك السيرة التي تجاوزت عشرة آلاف بيت، كل شاعر يرويها حسبما يكون باللهجة التي يتطلبها الناس، وبالطريقة التي يأنس ويحس برغبة الجمهور في تناول السيرة بها. وحتى حينما ولجت سيرة أبو زيد الهلالي سلامة المجال الشعبي وهيمنت على المجالس العربية في القاعات والميادين، وعلى المصاطب ومجالات السمر، وفي أسماء القبائل والعائلات، ظلت ـ سيرة أبو زيد الهلالي سلامة ـ خارج المنهج المدرسي (حتى لو كانت ذات أثر واضح في البحوث الجامعية والتراث الشعبي ـ في مصر بالذات)، والسبب في ذلك أن بطل هذه السيرة لم يكن يتصف بما اتصف به غيره من الفرسان في عنصرها الأول: أن يكون شاعرًا مبدعًا حتى ولو ظل الشعراء الشعبيون في حال هيام دائم بشخصه المغوار.

إن سمة الإبداع ـ شعرًا في هذه الحال ـ تصنع تميزًا آخر قد يعلو ـ في الاهتمام الدراسي على الأقل ـ على ما يلاقيه الفارس من عوائق وكوارث ولا سيما حين يستطيع الشاعر الفارس المبدع أن يحقق أمله في الوصول إلى معشوقته، ثم أن يحافظ عليها بصفتها زوجته إلى آخر العمر. وعليك أن تراجع ما حدث في السطور السابقة وأن تتركني أسترد وهمي الخاص بالحصول على فرس (مذكر ومؤنث) أمتطيها في عصرنا الحالي الذي قد يدفعني إلى البحث عن عود من

البوص الناشف، فأعود صبيًّا، أخترق ضجيج المدن بحثًا عن عبلة ـ أو عزة أو كوكا: يرحمها الله، مع أن الفروسية تطالبني بأن أكتب عنها مرة أخرى.

كلمات لها معنى

همس في حزن: لماذا تفعل بي ذلك؟ ألست صديقك؟! قلت في هدوء صادق: وهل تطلب مني أن أمارس الشر في واحد لا أعرفه؟!

*

عندما يعسعس الليل: يبدأ النهار في التثاؤب.. انتظارًا مملًّا.

*

أطالب بدار استشفاء ذات تخصص في مرضين: عدم الحصول على جوائز الدولة، أو الحصول عليها.

*

أشجار التوت تجذب دود الحرير، وأشجار السنط تجذب دود القرظ ذا الأشواك، والأزهار تجذب الفراشات، والأرض تجذب البشر.

الخبر والاختبار

لعل الأمر يصبح أكثر وضوحًا لو أنك هجرت الموقع الذي تقرأ فيه هذه السطور، وأن تترك خلفك ـ بعض الوقت ـ كل أنواع الوثير من المقاعد والفراش والمصابيح وأوراق المكتب ومجالات الدوائر الكهربائية المغناطيسية للإرسال التلفزيوني، وأن تنسى ـ بعض الوقت أيضًا ـ حبوب تخفيض ارتفاع الضغط الدموي ومخفضات الدهون ومذيبات الكوليسترول، مع تجميد ذاكرتك حتى لا تسحب خلفها زوجها وأنجالك وكل الورثة ـ رعاهم الله، دون الإشارة إلى وجوب طرد الأصدقاء والأعداء من هذه الذاكرة المفعمة بالقوانين والواجبات والأمنيات والأمور ذات الشجن ـ أقصد الحزن العميق. بعدها يمكن لك أن تحس بالحياة إحساسًا مختلفًا حينما تخترق بعض التلال أو الآفاق الخضراء، لتكتشف أن الأمر سوف يصبح أكثر وضوحًا أمام المشاعر القديمة الخالدة حينما تبدأ حواسك في دخول المختبر الواسع الرائق، لتستيقظ ارتعاشات دقيقة وناعمة في الشرايين والآذان والعيون

والوجدان. انظر ـ دون اضطراب أو قلق ـ إلى هذه السحلية ذات الألوان المتوازية الخطوط الذهبية وهي تنظر إليك وكأنها ترحب بك، وكأنك خبر في قواعد النحو العربي جاء متألقًا لمبتدأ غامض، أو هذا العصفور الذي تقافز ـ على الرمل أو في الهواء ـ عدة قفزات فطرية تجعلك تود أن تمد كفيك إلى صوته المتقطع الطفولي المرح، الاختبار أصبح يسيرًا ـ وعذبًا ـ الآن.

إلا إن كل هذه العذوبة قد تصادر فجأة من رنين قطعة التلفون ـ أو المسرة ـ التي في جيبك (وقد غاب عني أن أنبهك ألا تجعلها ترافقك)، لتحمل إليك خبرًا سوف يجذبك من كل اتساع الفيافي الجميلة ـ حتى ولو كان خبرًا يحقق لك أمنية أن تصبح عضوًا في المجالس الشعبية أو الوطنية أو الاستشارية أو الوزارية الكامنة في جمجمة العصر. ويستدعي هذا الخبر خبرتك في مواجهة الدنيا، وتضطر أن تبحث عن صخرة تلوذ إلى الجلوس عليها دون انتباه إلى هذا النوع من نبات الخابور ذي الرائحة الناعمة المزهرة الرقيقة بين قدميك، أو ذاك الخبار الترابي الدقيق الذي يتجمع حول أغصان الشجر ـ وأغصانك الآن: أقصد أعضاءك، وعيونك تبحث بين الآكام عن خبر آخر لا تدركه المدنية: فالخبر هو منقع الماء في الجبل أو وسط مناطق الزرع الجافة، كما أن الخبر هو ـ أيضًا ـ السدر والأراك (الذي يستخرج منه السواك المعروف في تنظيف الأسنان)، كما أن الناقة غزيرة اللبن يمكن أن تأخذ حقها في لقب الخبر، مع ملاحظة أن الخُبر مدينة حديثة بالمملكة العربية السعودية على الخليج العربي، وهي مركز تجاري

شهير. ويتقطع «الخبر» إلى عناصر عدة، هجرناها وتم طردها خارج الذاكرة الإنسانية العصرية، فالخبرة ما تشتريه لأهلك من طعام (حتى لو طلبته جاهزًا بالتلفون)، وما قد تحمله في أسفارك من زاد، والفطيرة ـ أو الثريدة ـ الضخمة الدسمة، والشاة التي تستحضرها بالشراء أو الإهداء وتذبحها مع كل أصدقائك كي تصل بالمتعة إلى حدود الامتلاء، لتصبح خبيرًا في الضيافة يشهد بخبرتك فيها عدد مذهل من أجهزة الهضم، وحتى لا ننزعج معًا: أنا وأنت، فإنني سوف أشير بسرعة إلى أن الخبرة قد تجرنا إلى التخابر، لنصبح أعضاء في تلك المؤسسات التي تقوم على مصالح المخابرات، دون مراعاة للمشاعر والأحاسيس ابتداء من الهمس أو الدس أو تشفير الأخبار، حتى مرحلة الخابور. والخابور لا أثر له في القواميس، مع أنه معروف بتكوينه الحاد الذي يجهز ـ أصلًا ـ لملء الثغرات في الحوائط والأرضيات، ثم لم يلبث أن استخدم في المهام المروعة للخازوق، ذلك العمود المدبب الرأس الذي يجلسون عليه المذنب ـ في الأزمان الغابرة ـ ليخترق جسده. القاموس اللغوي يقول ذلك معتقدًا أن عصر الخازوق أو الخابور قد انتهى، وما دمنا قد تورطنا في أمور لا يصح أن نفكر فيها ـ أو نتذكرها ـ في الهواء الطلق، فإن من الواجب أن أعتذر إليك، حيث لا بد ألا يفوتنا ما جرى للخبر حينما هيمن في الأحقاب الأخيرة الملونة والمزركشة على العالم الواسع الممتع للأخبار في المجلات والصحف والإذاعة والتلفزيون والفيديو والأقمار الصناعية. وتأثير الخبر في الفنون التشكيلية ـ وبالذات الرسم

الكاريكاتوري، والتعبير التخطيطي، والصور الفوتوغرافية على أغلفة الكتب والمجلات، ولعل أروعها ـ وعذرًا فهذه مشاعر خاصة ـ الاختراق الحي للطائرة الثانية للبرج التجاري الأمريكي الشامخ، لم أشهد الطائرة الأولى لأنها جاءت خبرًا دون تصوير من خبير ذي دراية ولماحية.

ولأن بعض ذوي الخبرة في صياغة الأمور لصالحهم قد يفسرون ـ لذوي الشأن ـ بعضًا من هذه السطور لتصبح اختبارًا قد أرسب فيه دون ملحق، فإنني أرى أن «نكفي على الخبر ماجورًا»، وهو مثل شعبي في الصعيد يميل إلى أن نغطي الأمور الرديئة بإخفائها تحت الماجور ـ وهو إناء فخاري بدائي يتم إعداد العجين فيه تمهيدًا للخبز ـ دعك من كون الماجور رتبة عسكرية أيضًا، فالمهم الخبر والخبرة والبعد عن الاختبار والخابور، وحتى نعود إلى بيوتنا ـ في المدينة ـ شديدي الإحساس بالسعادة، أو هكذا نأمل.

كلمات لها معنى

يتواءم اللون الأصفر مع الأخضر بسرعة مذهلة، وكلاهما يعاني ويختنق حينما يحتكان باللون الأحمر.

*

ليس خوفًا أو دفاعًا أو طلبًا للأكل: ينبح الكلب، بل كثيرًا ما ينبح بصوت شديد الإقلاق لمجرد إثبات وجوده فقط، بعضنا يفعلها طلبًا للشهرة.

*

يد الأنثى تظل تشع بأصابعها أنواعًا من الإشارات الإنسانية، ذات التواصل المأمول، وما تكاد هذه اليد تتعود على تقديم المأكولات وترتيبها لك، حتى تخفت أشعتها، وتبرد.

❋

الجبان لا يأتي من الجبن فقط، بل من انحناء الجبين أيضًا.

❋

تصبح النجوم زاهرة ما دامت ساهرة في دنيا الشجن الجميل.

❋

كل القصص التي أبطالها آباء تمور بالجحيم، والتي أبطالها أمهات تنفعل بالمسرة والعشق الحنون، مجرد ظاهرة.

العصر

وبمجرد أن أقترب من لفظ «العصر» يصطبغ معناه بالآية الكريمة: «إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ»، وتطوف عيناي في سماوات عصرنا المضطرب الملتهب ثم في أراضيه، ليزداد الإحساس بالاضطراب والخسران، حتى إن الوجدان الإنساني تعتصره شجون تفرز حزنًا غامرًا في القصيدة والقصة والذكريات والمذكرات والحوادث وأوراق التحقيق والمحاكمات والخوف والتوجس والارتجاف. ولولا التوازن الذي يحدثه الإيمان بالله لأصبح البشر عصارة تسيل على الخدود ـ إن كان للعصور خدود، الحديثة بالذات، وهو ما يجذبنا إلى أخطر المصادر التي توالد منها لفظ «العصر»، إنه تلك الحركة التي مارسها الإنسان منذ نشوئه حول ليمونة ليستنزف منها عصيرها، وهذه الأصابع بدأت تتوقف عن هذا النوع من العصر الخاص بالليمون، بعد أن انتشرت عصارات كهربائية حديثة. وبالتالي فقد تفرغت هذه الأصابع لاعتصار المخ استنزافًا لقدراته في النميمة والوشاية والشكاوى الكيدية وخلط الحقائق، رجاء عدم استبعاد فن الإبداع ـ شعرًا ونثرًا ـ من هذا النشاط

الذي تقوم عليه ميكانيكا العصر، وليس صدفة أن يستولي التعريف بالزمن التاريخي للنشاط الإنساني كله تحت لفظ العصر:

عصر الجليد وما تلاه من عصور حجرية وحديدية ونحاسية وبرونزية، وما يلي ذلك من عصور قديمة أو وسطى أو حديثة استطاعت ذاكرة التاريخ أن ترصد معظم حركتها وتطورها ـ فيما يعتقد المؤرخون ـ إلا إن شقائق أخرى من النظر إلى العصور تميل في إسنادها إلى حركة العقل الديني الذي يبدأ بعصر سيدنا إبراهيم ثم سيدنا موسى ثم سيدنا عيسى عليهم السلام، ويتوج آخر عصور الأديان بعصر الإسلام لنبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وقد مالت العواطف أن تستحوذ على بعض العصور لصالح القلب، فاستولت على مراحل في الشعر والفن التشكيلي: العصر الجاهلي في الإبداع العربي قبل ظهور الإسلام ليحتوي على قصائد من الفخر بالرضيع الذي إذا بلغ الفطام تخر له الجبابر ساجدينا، لكن الأمور أصبحت أكثر إنسانية عندما انتشر الإسلام ليظهر القيسان: قيس بن الملوح الذي اعتصره الوجد سعيًا وراء ابنة عمه ليلى طوال عمره دون أن يحظى بها، وقيس بن ذريح الذي أحب لبنى وتزوجها على غير رغبة والديه اللذين عذبا نفسيهما حتى يكرهاه على تطليقها حتى رضخ لهما. وبين هذين القيسين دارت عصور الإرهاق الوجداني التي أثرت في تكوينات النصوص العربية في المسرح والسينما والتلفزيون، دون أن ينفصل عصرنا هذا عما حدث في أوروبا من دراما عصور مماثلة في «روميو» و«جولييت» أو «مرتفعات وذرنج» أو غادة الكاميليا. وبالتأكيد فإن أدب الهند والصين واليابان ومنغوليا وأندونيسيا ـ

وأي بلد في أي موقع ـ لم يستطع أن يكون له عصر منفصل عن هذه الدراما الرومانسية.

إلا إن العصر الحديث، ثم الأحدث الذي نعيشه الآن: عبث في كل القدرات الوجدانية بعد أن هيمن العقل ـ بقدراته الذرية والتفجيرية والتحليلية ـ على شجن الوجدان، ولم يحس الفؤاد الإنساني بالوحدة والانعزال كما هو حادث له الآن تحت سطوة عصر الصواريخ والتدمير والاختراق والمشاهد المروعة التي تصنع المجد للعقل العسكري المعاصر. وأصبح من أحلام اليقظة، أن نعود إلى ليلى في الصحراء نمعن في القمر ونهوِّم في غيوم الليل، ونرتعب من مجرد خلو السماء من قوس قزح. ألم تنتبه يا صديقي إلى أن سماء العصر الحديث قد خلت من المشاهد الرقيقة الجميلة حينما تتطاير عصافير آخر النهار لتحوم حول مآذن وقباب المساجد في تشكيل قوس قزح الذي يكاد كثيرون من أجيالنا لم يستمتعوا بنظره أبدًا. ولتصبح ـ في المقابل ـ لوحات الجيوكندا ورحلة السيد المسيح إلى مصر مجرد تاريخ لعصر لم يعد ممكنًا له أن يتكرر مرة أخرى؟ دعك من محاولتي استبعاد ما يحدث في فلسطين خارج كل العصور.. الآن.

كلمات لها معنى

الغرام يملأ شاشات السينما والتلفزيون، فلماذا لم يستطع أن يتسلل إلى الوجدان الإنساني حتى الآن؟

*

أجمل امرأة في العالم هي زوجتي، أم أبنائي، وجدة أحفادي،
اتركوني أشم بعض الهواء خارج هذه السطور.

*

الصدق احتياط استراتيجي للكذابين، لا أقصد ما أشمه في
المذكرات السياسية.

*

البعد الرابع ليس مذهبًا في فنون المسرح فقط، ولا في قوانين الطبيعة،
إنه يتحقق في الكلاب حينما تهز ذيولها ترحيبًا بروائح الأطعمة.

*

أكثر تأثيرًا من الموسيقى والقنبلة الذرية والأحداث الدموية: الهمس.

*

أكثر الملابس صمودًا في الانتقال عبر العصور: الأحذية وأربطة العنق.

الربيع

حالة الخروج من برد الكمون تقافزًا في الكون الدافئ

ظللت أسعى بين كتب وأوراق، وأنصت إلى موسيقى، ثم لم يلبث الفؤاد أن انداح في الدفء القادم من بعيد منفصلًا عن عقلي، وكدت أهم بالقفز في العالم المتفتح الغامض الواضح، الذي يتلوى بين الألوان، وتناغم الأصوات، وسريان الحمية في الجوانح، مع جذب ناعم وشرس وسعيد لتجارب مبكرة يغلفها الاضطراب والحرج والحزن القديم، بعدها أحسست بتنميل - من النمل - يزحف مثل بقايا ضوء في أركان النفس، وجاءت أبخرة لتفاعلات أشعار مع أمنيات تتوافق مع الشدو، لتنضغط داخل تاريخ قديم يود أن يتسامى لحظة هذا التشكيل المتناغم: قوس قزح.

إنه الربيع..

أبناء الريف يعيشون حالة الربيع أكثر من الانتباه إليها، ففي شهر فبراير الميلادي، طوبة القبطي، تكون مسطحات المزروعات قد واجهت أقصى حالات الصقيع، هذا البرد البلُّوري المركز الذي يدمر

خضرة النباتات ـ حتى المزروعات الخشنة مثل نبات القلقاس تنزوي أوراقه العريضة الواسعة ثم تتقلص مسرعة نحو التجهم والجفاف والخضوع للصفرة الذابلة، حتى إنك تقترب منها كي تستبين نوعها من عروشها، مع أن حقول القلقاس تقدم لك رونقها من مسافات بعيدة، حتى لو كنت مستقلًّا لقطار أو سيارة تحول بينك وبين الإمعان اللازم، كما أن كثيرًا من الأشجار الوارفة تصل إلى ذروة الذبول لتبدو ملامح جافة لأنثى فقيرة مسنة، نبات واحد ناعم طيب يظل يهرب من الصقيع، يستقبله ليلًا وينفثه صباحًا، إنه البرسيم، يساعده على ذلك تعدد مرات جمعه في أكوام قبل أن تخترقه بلُّورات الأذى الثلجية.

نعم: البرسيم، ذلك الأخضر الذي يفترش أرض الشتاء، والذي يطلق الناس عليه في بلادنا «الربيع».

وما يكاد فبراير/ طوبة يزحف راحلًا للأفق، وتتسلل مويجات الدفء من الأماكن الغامضة، حتى تبدأ الطبيعة في إعداد نفسها لأجمل أيامها ولياليها، تنظف جسدها ومواطئ بهجتها من بقايا نوم وأعشاب ووسن وانطواء وكمون وجفاف، ثم التثاؤب المناسب في الأوصال سخونة ويقظة وخضرة، وكلما اهتزت الأغصان تطايرت رياح أمشير بالبقايا الناشفة، لتترك الفرصة الواسعة لانفلاق الخشب استشرافًا للبوادر الرقيقة الناعمة الخضراء. إنها الصوت الكامن الذي يصيبه التوتر في فيولينا (كمان) «فيفالدي» بعد اندحار برد الشتاء تحت سطوة دفء الربيع. إن اللحن يكاد يتقافز فور انسلاخ الجلد البارد والتقاء الجسد بالطبيعة دون فاصل في «الفصول الأربعة»، حتى تكاد، من أثر حدة نغمات الكمان المتراقصة، تتقافز معها، إنها ـ بعد

ذلك ـ تجتاحك اجتياح الطاقة الغامضة للعجول الصغيرة المتقافزة حول أمهاتها، ثم تتقافز أمهاتها في محاولة للانفصال بحثًا عن علاج يشبع الجوع الغامض الجديد، هذا الذي تلمسه ـ إن كنت تستطيع استقبال شروق الشمس يا ابن المدينة ـ في استغراق قمم الجبال إنصاتًا للمعابثة الحارة وهي تنظر في لذة إلى آفاق الوادي الأخضر.

حينذاك يصبح مناسبًا للطيور أن تشاكس، وتتنافر، وتتضارب، وللثعالب أن تخترق أسوار الأكواخ، بعدها سيكون الجو أكثر دفئًا لتنطلق كيزان النخيل بخضرتها الباهتة منبثقة من بين جُمَّار الجريد، وسوف تلتقي جلود ثعابين متناثرة وممزقة، غربانًا تحوم حول منطقة كتاكيت، ومشاجرة بين أب وابن تؤدي إلى الطرد، والأم تبكي في حياد ناصحة ابنها أن ينتظر الفرج في الموسم ـ الربيع ـ القادم، ثم بعض الهمس عن صبية تسللت آخر النهار إلى ما يدعو للقلق، وفي عزف سريع سوف تتأود أزاهير وورود في بقع متباعدة كأنها تخشى همس التقارب، ويظهر زهر الفول الأبيض بالنقطة السوداء في إيقاعات كسول لبطة تبحث عن مكان تبيض فيه، لكنها ومع اصطدامها بدوائر النسيم ـ تنتشي دلالًا على إيقاع أنغام «بيتهوفن» في الباستورال الريفية، ويقشعر جسد الكون ثم يتمدد فتنطلق الضفادع على سواحل البرك لتعزف نقيقها، ويبحث الخفراء عن موقع في النور، وتتصادم الجديان والكباش فتظل الماعز والشياه تنتظر، ويُقعي الجمل مصدرًا صوته المشابه لانسكاب المياه من القلة ثم يقف فيرغي ويزبد مطاردًا ناقته، وينطلق ذكر الجاموس عاصفة مخترقًا جماعات البهائم المندهشة، وتتلاقى رقاب حمارة وحمار في مداعبة

وتعانق رغم صراخ راكبيهما، وتبدأ الخنافس في التحرك خارجة من جحور العقارب، ويلامس النسيم وجه المياه فتشعر الترعة بالحرج، وتنشأ دورات من المطاردات بين تنظيمات الكلاب المثقلة بالرغبة والتوجس فتزداد كلوبتها، وتترنح الصقور في الأعالي مصدرة أصواتًا قلقة، وبعد منتصف الليل تغادر النساء الرجال كي تطمئن على عدم استحلاب العجول لأثداء الأبقار، وتمتلئ السراديب بالأرانب الصغيرة ذات العيون المشعة، ويصطاد المحرومون الهدهد ليذبحوه ويحمصوه فيكون رسالة وحجابًا لتقريب الحبيب المبتعد، لتظل الفراشات تداور الزهور المتراقصة في الشمس.

وخلالها تتواكب موجات الهواء الخارجة على النسيم لتصبح ريحًا، وتعلو أصوات أغاني العشق والحب الكائن والذي كان، ويصيب الرمد العيون، والعطس الأنوف، والحمَّى الأجساد، والشروخ الأصوات، حيث يتخلص الجو من بقايا السحب ومشائم الولادة والدوار الغامض.

فقد بدأ الربيع ـ سريعًا ـ يرحل، ممهدًا الكون لاستقبال الخماسين.

كلمات لها معنى

الكنوز لا تتأثر بقيمة المصابيح الكليلة التي قادتك إليها.

*

الذهول القاتل هو الابن الحلال للدهشة البريئة.

*

بعد أن جرفت السيول بيوت الأحياء، نظرت بخجل إلى المقابر.

*

الفضائح لا تفقد الطريق إلى أي أذن، حتى لو كانت صماء.

*

هذه الجبال الشرسة تراجعت إلى الخلف، ثم بدأت تنحني لتتشمم نباتات الوادي في وداعة.

*

النقود تجلب الصداقات في سهولة،
لكنها لا تستطيع المحافظة عليها.

*

السندباد البحري و«روبنسون كروزو».. محصلة قوى أحلام الجميع: الانقطاع عن هذا العالم في جزيرة بعيدة.

*

للعداء ثمن واضح، للصداقة ثمن باهظ.

الزمن

الحنون العطوف ذو الأنامل الشرسة الغامضة

الزمن هو هذا الامتداد السرمدي الواضح الغامض الساخر المبهج المرعب، تدور حوله علوم الفلسفة والطبيعة والأديان والطب والتاريخ والأساطير، علَّها تجد ثغرة تصل بها إلى معنى محدد أو إدراك واضح. ينام على الأرض فوق طبقات جيولوجية كما تستريح القشدة فوق الفطيرة المتقنة، يحب الحكايات والاختراعات والأكاذيب والدم والبساتين والدمار. يبدو حنونًا عطوفًا وأنامله تفصل الحبل السري للوليد عن والدته ليسحبه من بين الأثداء والأحضان ويلقي به إلى الدروب والمدارس والحقول والنساء والأولاد والمحاكم والمصانع، ثم يصنع من هذا الحبل السري كتلًا من غصون ذات ملامح مرهقة تسعى للنهاية الغامضة. أقام للتاريخ ممالك ثم أقام للممالك تاريخًا، وظل يضحك دون اهتمام بمشاعر علم الاجتماع. وليس صحيحًا أن المصريين القدماء ـ وغيرهم من قدماء ـ تحدوا الزمن بهذه الصروح العتيدة الشامخة، كما يحلو

للبعض أن يصف في كتبه وأحاديثه، إنما الصحيح أن الزمن ترك على الأرض نثارًا من فتات مائدة ضخمة يقيمها بين الحين والحين لأصدقائه وندمائه الذين لا أعرف عنهم شيئًا في هذا الكون الواسع المذهل. وقد تمدد الزمن في اللغة العربية ليصبح زمانًا، ولعلها اللغة الوحيدة التي تعاملت معه بهذين اللفظين، فالزمن يكاد يعطيك حقبة محدودة، أما الزمان فيخرج على كل الأحقاب. وظل العلماء يناورون الزمن أزمانًا طويلة حتى نجح «أينشتاين» في إدماجه داخل نظرية واحدة ليصبح البعد الرابع لأبعاد الفراغ الثلاثة، الطول والعرض والارتفاع (اختصار ضروري وشديد الإخلال لكن ما باليد حيلة). لكن العقل العربي العامي - ودون اهتمام بـ«أينشتاين» أو «نيوتن» - دمج الزمان في المكان حينما يدعو على عدوه: يخرب بيت سنينك، وعبقرية اللغة هذه جعلت البيت (المكان) يحتوي السنين (الزمان) لحساب الخراب، أي الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، وهو القانون الخاص الذي قامت على أساسه صناعة القنبلة الذرية، لتكون هيروشيما في اليابان هي المقصودة بخراب بيت السنين أولًا ثم نجازاكي ثانيًا. والقرآن الكريم هو الكتاب الزماني المكاني السرمدي الوحيد المعروف منذ خمسة عشر قرنًا وهو وعاء للعقل الإنساني.

وجاء الفلاسفة المسلمون ليجاهدوا تحليقًا وتطويعًا في الزمان، وكان منهم المتصوفة والزاهدون الذين حاولوا التخفف من الحركة والكتلة والرغبات لحساب الزمن، غير أن البشر العاديين توقفوا فيَ إدراكهم عند حدود الزمن التاريخي الذي تتوالى فيه الأحداث

والوقائع والنتائج لتحملها صفحات الكتب وسبورات المدارس وأناشيد الرعاة وأساطير الهائمين في الخيال الواسع، والذي أدى بالعالم المعاصر إلى فلسفة الوجود والعدم، تأسيسًا على الزمن الوجودي الذي دبَّجه الألماني «شوبنهاور» وترجمه العالم العظيم عبد الرحمن بدوي. وقد قرأته ولم أستطع أن أدرك ما فيه بعقلي المحدود القاصر، ذلك أن الزمن عندي تبلور في الزمن الأخير إلى زمن روائي: يتألق فيه التعبير اللغوي في ساحة الواقع المدرك وصولًا إلى الوجدان العام (هل فهمت شيئًا؟)، مع مراعاة تفادي التصادم مع السلطة الكريهة التي تضع توقيعها على كل الأوراق التي في جيبك، والتي تجيز لك حق الحركة والميراث والتوريث والاقتناء والزواج والاحتكام والسفر والمحاكمة، والحصول على الماء والهواء والنقود والأولاد، والبحث عمن يحمل المحفة التي ننام ـ قريري العين ـ على خشبتها، لنتيح للآخرين صراخًا يختبرون فيه الزمن الصوتي الذي تتطلبه فنون الموسيقى. وقد أثمرت المحاولات المرهقة التي قام بها المخترعون والمناضلون والأدباء والمفكرون إزاء الزمن عن سجادة ثمينة صغيرة يلعبون في ساحتها: سجادة الخلود، وقد رضوا بها ورضيت بهم وأشبعت فيهم تلك النرجسية المزمنة. لكنهم لم يتوقفوا عن استعداء الزمن وصب نقمتهم عليه، حتى اكتشف أحدهم ـ وهو عربي ـ أننا نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا، فظل الزمن يضحك حتى ظهرت أنيابه، فتوقف الجميع رعبًا من هول سطوته الباطشة.

الحناء والاغتسال بالكولونيا والدعاء بأن تكون الجنة هي المآل: عناصر أساسية في طقوس الزواج وانقضاء الأجل.

*

أقترح على الذين يعانون من دراسة الشعر العربي أن يرافقوا قافلة من الجمال ذات الإيقاع القائم على بحور الشعر، سيصبح الفهم سهلًا، بغض النظر عن أنهم قد لا يعودون إلى مقاعد الدراسة مرة أخرى.

*

كل أغاريد العالم تُختزل في ارتعاشة شفاه سوف تنطق بالاعتراف في لحظة حب دقيق ونادر.

*

ليس في العالم سرداب أطول وأكثر غورًا من الجحور الممتدة في الجماجم.

*

ما زالت أمي شديدة الفخر والاعتزاز بزواجها من أبي، حالة تاريخية عربية خالصة لمعنى البؤس.

*

التلفزيون استولى على منطقة المعرفة، كاتب قصة لم يشاهد في حياته الهدهد، ولا يزال يكتب.

*

هذا الجبروت الكامن في عيون أنثى لم تسأل، لكنها تنتظر الإجابة.

*

أفضنا في شرح السكون الذي يسبق العاصفة، فماذا عن السكون الذي يليها؟

التاريخ

طفل عجوز شديد النزق يقضي معظم وقته في ظلال الدبابات والصواريخ والحمقى

التاريخ علم مدلل عجوز صاخب يبدو ذكيًّا، مع أنه لا يزال يرضع من ثدي الاجتماع، ويعابث بطن الجغرافيا. يقضي معظم أوقاته على موائد الأقوياء ليمتعهم بعربدته ومظاهر حكمته، لكنه ـ وفي أوقات أخرى ـ يستجدي العلماء والذين هم بطبيعتهم مقترون شديدو الشح، ولذا تجد المساحة التي احتازها كل علماء وفلاسفة ومصلحي مختلف العصور من حديقته الوارفة أقل مما استولى عليه «الإسكندر» و«نيرون» ونصف «نابليون» وربع «هتلر». وقد فشلت بشكل ما كل النظريات والفلسفات التي حاولت إخراج التاريخ من تحت سطوة الحكام ليضعوه في مجال حركة الشعوب، إذ إن الأمر لم يتعد أن يذكر المؤرخ الواقعة الشعبية وعيونه على نوافذ الحاكم. وفي كثير من الأمور والوقائع ظل التاريخ نائمًا مرهقًا تحت ظلال الدبابات والصواريخ، لكنه ـ حين يفيق لنفسه ـ تراه رث

الملابس طويل الشعر زري السحنة يتعثر في مواكب المماليك، وعلى حافة مذابح كربلاء والنجف، وتحت طبقات أجواء آبار الزيت الكويتية المحترقة، وبين أجساد أطفال مذبحة دير ياسين، وبين جبال وممرات شبه جزيرة سيناء، وتحت سقف الأمم المتحدة، وفي أجواء نجازاكي وهيروشيما. لا يهتم بالعواطف والقصائد والأغاني، يتأرجح بين المواقع الدموية ويخوض في أشلاء المخلوقات والمكائد والمؤامرات والجدل والمواثيق والمعاهدات والخطب العصماء.

وقليلًا ما يسترد التاريخ شبابه فتراه نظيفًا وسيمًا له حلاوة وقسامة، حيث يفخر بأنه ارتدى ملابس العمال مرة أو مرتين وأطلق الحمام إلى عنان السلام ثلاث أو أربع مرات. تحس أنه بالغ الإنسانية وهو يفتح الطريق انتصارًا للأنبياء والرسل، ومع ذلك فستظل علاقته بالأديان والأنبياء لغزًا، إذ إن التاريخ المرصود لم يحتفِ إلا برسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يحفل إلا بالنبي عيسى عليه السلام، ولا تزال مجلدات معالم تاريخ الإنسانية الذي صاغه الإنجليزي «ويلر» تضم سيرتيهما تاركة الأمر للباحثين والدارسين يسعون لتعيين واقعهم التاريخي، بالتقريب كما ورد بالنسبة لفترة النبي موسى عليه السلام ومن كان يعاصره من حكام في الشام أو فلسطين أو تحديد الفرعونِ المصري الذي طارده نحو سيناء. ذلك لأن التاريخ لا يزال لم يفصح ـ حتى الآن ـ عن سيرة إبراهيم وصالح ونوح وهود وداود وسليمان ولوط ويوسف، وغيرهم منَ الأنبياء المؤكدين دينيًّا. ويرجع الأمر إلى الانشغال الدائم بذوي السطوة والبأس أكثر من اهتمامه بأصحاب الرسالات المهتمين بإصلاح حال البشر.

ومع كثرة المدارس المعاصرة في تفسير فلسفة التاريخ من «مادية جدلية»، إلى «نظرية التحدي والاستجابة»، إلى «باب الحرية الحمراء الذي بكل يد مضرجة يدق»، ثم إلى ما:

إذا الشَّعبُ يومًا أراد الحياة فـلا بد أن يستجيب القَـدَر

أو الأمر بأن تقيم من قبرك هرمًا كي تجد لك في التاريخ أثرًا، فقد أصبح لزامًا علينا أن نعترف بأن ثمة ثلاثة أنواع منه: التاريخ الديني المنزل من رب القدرة في الكتب السماوية، وتاريخ فولكلوري على ألسنة الناس يحوي حكايات أبطالهم وآمالهم وأحلامهم وأهازيجهم وخرافاتهم وأساطيرهم، وتاريخ يدرَّس هو الذي تحتفظ به في مكتبتك، وهو أبسط أنواع التواريخ، وأكثرها ترتيبًا وسذاجة.

كلمات لها معنى

طبيعي جدًّا أن تفخر امرأة بأن حقيبتها من جلد الثعبان.

*

وما الذي يمكنني - يا حبيبتي - أن أفعل إلا أن أعتبرك كتابي المفضل، بمجرد الانتهاء من قراءته سوف أجلِّده وأركنه على الرف، مع قضاء بعض الوقت في الكلام عنك مع الأصدقاء.

*

لا يزال نقيق الضفادع به ما يجذبني أكثر من مقالات النقاد.

*

كثرة الحفر لا تعوق عن السير إلا ذوي السنابك.

*

الباطل كالفئران يعيش في الشقوق حتى تجذبه يد أحد العلماء ليجرب فيه أمرًا إنسانيًّا.

*

الاستقامة أطول طريق شديد الملل بين نقطتين: الحياة والموت.

الحياة

هناك ـ خارج قريتي ـ كان بيتنا الواسع محدود الحوائط، ذو النخلات السبع، يقف طيبًا هادئًا وكأنه لا يخشى الزوابع، وأقدامه الموحلة استرخت على حافة المستنقعات السويسرية، وأذناه قد انفرجتا، واحدة تنصت لحركة الحياة المتوجسة في مزارع الأذرة والقصب والبرسيم، بما فيها من ثعالب ونموس (أنماس أفضل جمع للنمس) وجرذان، وأذن أخرى تصغي إلى همس القرية الناعسة النائمة ـ التي يوقظها صوت خاشع في شجن السَّحر القديم يمهد لصلاة الفجر، حتى يعلو معلنًا: حي على الصلاة، حي على الفلاح، بعدها تبدأ الحياة تدب في الناس والعصافير والكلاب والقطط والغربان، ما زال هذا الصوت ـ مع كل تغيير الأماكن والعصور وآلات التنبيه، يوقظني حتى الآن.

وربما كان ذلك وراء عشق يخصني وحدي ـ أو هكذا أزعم لنفسي ـ لحي بن يقظان الذي عاش حياته منذ بكور الطفولة في جزيرة نائية، وحيدًا متوحدًا مع كل ما ينتبه إليه من حياة، شديد

التوجس والانتباه كي لا يصبح ضحية لكل ما يحاصر حياته. كان مؤلف هذا النص الحيوي ابن طفيل في القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي) قد فتح أبواب انطلاق السليقة والفطرة والعقل كي تتحقق الحياة التي يميل بعض غلاة الأثرياء في العالم أن يمارسوها أحيانًا لمدة محدودة يستمتعون فيها بما لا يحققه الترف والإنجاز العلمي. الحياة الحية التي تتيح للحواس أن تعمل في يقظة واسترخاء ممتزج بالسحب والنسيم والمطر ـ والعواصف أيضًا، حتى لو لم يكن في بالهم حي بن يقظان وما أنجبه في فراش الفكر الإنساني من «روبنسون كروزو» للإنجليزي «دانيال ديفو» (القرن الثامن عشر) ثم تلك القفزات الرائعة المدهشة بين الحيوانات المفترسة فوق أشجار غابات السينما لمغامرات طرزان في العصر الحديث التي اقتحمت جماجم الجماهير في كل أنحاء العالم.

والحياة تظل ـ منذ نشوء الكون ـ هذا الفعل الساحر الغامض الذي ينبض بالنشاط في الأحياء من حيوانات ونباتات: تغذية ونموًّا وتناسلًا وتآمرًا وذكاءً وحقدًا وآمالًا وطموحًا ولذة وطمعًا ورغبة وسطوة وخوفًا واختفاء وتواضعًا وتكبرًا وازدهارًا وإزهارًا وإبداعًا وبؤسًا وحزنًا وظلمًا وتشكيلًا (لرسومات أو جيوش أو بحثًا عن أنيس). والعقل البشري لم يستطع ـ حتى الآن ـ أن يصل إلى هذا السر الساحر المعجز في الحياة، حتى لو اخترق ـ هذا العقل ـ الحجب والسحب والخلايا والجينات والذرة والسموم والانفجار وحركة الدم في العروق وأنسجة المخ والأشعار والطاقة والسرعة والوميض

والفيروسات، ولا يزال أخطر العلماء في أي عصر ابتداء من خروج آدم وحواء من الجنة واغتيال قابيل أخاه هابيل حتى تدمير الحياة في هيروشيما وما ترتب على ذلك من كوارث تحيق بحياتنا ذات الإشعاع التلفزيوني، لا يزالون يقعون في مأزق تفسير هذا السحر الرقيق المتألق في عيون أنثى تنظر إلى واحد منهم باستحياء هادئ يضطرب بسببه المجهر والنظريات وقواعد إطلاق الصواريخ وأوراق النقد الحديث، حتى لو كانت أنثى أشرس الثعابين قد استولت لنفسها على جزء يسير لتصبح حية تسعى، (رمزًا للشر الحي الناعم الزاحف نحو الشقوق والظلمات)، أو على عدة كتب انشغلت في فلسفة الحياة، أو ما هيمنت به الحياة المتفائلة على مجموعة من الصحف في أقطار متعددة لتحتل الاسم الثابت لها باللاتينية أو العربية - أقصد في أوروبا وأمريكا «لايف» أو «الحياة» في لندن والقاهرة، أو ما نجحت فيه الكتب المدرسية بمقرراتها عن علم الأحياء، أو ما ينهمك فيه أخطر وأشهر علماء الوراثة - (دعك من الوراثة الناجمة عن الملكية والتوريث الشرعي الآن) - والذين على قمتهم أحمد مستجير - من محاولة دائبة للاعتقاد بأنهم كادوا يقتربون من أسرار الحياة في الخلية الحية، حتى إن هذا العالم بدأ حياته يحلل الشعر العربي ويقوم بوزنه في دقة يخترق بها البحور، فإذا به يستغرق في تحليل الخلية الحية: النبات والحيوان ويقوم بوزنها في دقة يخترق بها - كما يأمل - كل الغموض، وبين بحور الشعر وغموض الخلية يحيا أحمد مستجير في بساطة الخلية الغامضة ذات الكهوف المتعددة في الجبال الشامخة الشرسة، والشاقة أيضًا.

إلا إننا ـ بعيدًا عن العلماء ـ نجحنا بصفتنا الإنسانية الحذرة المتفائلة الحية في أن نحقق ما لم ينتبه إليه أحد، فقد كانت القاهرة ـ العاصمة المصرية ـ تسبغ على المناطق السكانية القريبة أو المواجهة لمناطق دفن الأموات ـ أي القبور ـ صفة الحي، فكان حي الدراسة، وحي البساتين، وحي العباسية أقدمها حيث تواجه مباشرة مناطق المقابر. لكن صفة الحي انتشرت بعد ذلك ـ وفي الخمسين عامًا الأخيرة ـ لتشمل روض الفرج وشبرا والزمالك وقصر النيل، ثم لم تلبث أن زحفت الأحياء صفة لتقسيم إداري في كل مناطق القاهرة والجيزة، وبدأت تظهر أيضًا في مختلف المناطق المصرية خارج العاصمة.

ولا أجد مناصًا من الاعتراف بأنني أعتبر النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، أعظم من أحب الحياة بالمعنى الفاضل الحي العظيم، وهو الرسول الوحيد الذي قاد جيشًا، وجرب الهزيمة والانتصار، إنها الحياة: الحركة والقدرة الفائقة في التفكير، الإمعان والصبر، الحب الجارف للخلق، الإحساس بالطبيعة والتضحية وتجنب الخطأ، والاعتراف به إن وقع فيه، حتى إن صفاته توزعت بين أصحابه ليواجهوا بها الحياة، وليجعلونا ندرك ـ في حيوية ـ معنى ألا نكون ضحية لأحد، وأن نحيا، كي تتفتح جوانحنا للمتعة الكبرى، حتى لو بدأت حياتك في كوخ تسوخ أقدامه في المستنقعات... السويسرية.

كلمات لها معنى

تضطرب العيون حين تواجه الضوء الشديد، فظلت الأحلام ـ في هدوء ـ تحب الليل، أقصد الظلام.

❊

أصغر حفيداتي تنطق كلمة «بقرة» كاملة واضحة، ولا تزال تفشل في نطق كلمة «غزال».

❊

السماء لا تمطر ذهبًا، ولذا فإني أمعن فيها مرتاحًا، وأنت كذلك.

الظلم والظلام

ربما كان الظلام وراء قيام المدن والتجمعات السكنية المتداخلة المتلاصقة، حيث تخفت سطوة الظلام مع التلاحم الإنساني ـ لا تحاول أن تخرج بالتلاحم عن المعنى الذي أقصده ـ لكن الظلام الذي أدى بنا ـ خلال أحقاب الوجل أو الهدوء ـ إلى هذا الجو الخانق المضغوط بين جدران الأسمنت والمصيص ودوائر الكهرباء والصراخ ـ أي الضجيج بموسيقاه الصاخبة ـ هو ذاته الذي دفع الجميع ـ مع كل اختلاف النزعات والطوائف والعقائد ـ أن نتمنى ثم نسعى كي نمتلك كوخًا («شاليه» في المصطلح المعاصر) أو بيتًا أو قصرًا في منطقة بعيدة عن ضغوط المدن، حينئذ، وفي استرخاء هادئ رقيق يتهادى الظلام في الذكريات والأبوة والأمومة والطفولة وصبيانية الأمنيات، ويتألق النظر إلى النجوم بالشجن والانفراج نحو الآفاق الساحرة، إن أقسى ظلم حاق بنا هو وقوع حواسنا ـ العيون والآذان بالذات ـ خلف النوافذ التي تطل على حوائط وأسوار ومعاقل ـ أو معتقلات ـ الآخرين، التي تشغى بظلام

التحضر المضيء في خلايا وتكهنات الأمن والضرائب والمدارس والعشق الخاوي من الخيال، مع إضافة ضجيج الموتورات والباعة والشجار والمرح الفوضوي تحت ظلمات الإعلانات والشعارات والمستندات والسندات والخزائن والتعليمات والأغاني، ومراعاة أن تنام مبكرًا وتستيقظ مبكرًا، وأن تغسل يديك قبل الأكل وبعده، لتصبح ظليمًا ـ أعني ذكر النعام الذي يظل واقفًا وحيدًا في سعادة بعيدًا عن العالم.

وليس صعبًا أن ندرك المعنى ذا الهم الثقيل الذي جعل المتنبي أو ابن الفارض أو امرأ القيس يسعون في ظلام الفلوات تخلصًا أو تخففًا من ظلم وقع عليهم أو مأزق وقعوا فيه وسط أضواء حركة الناس ـ أعني الجماهير، وربما سوف يصبح الأمر أكثر إشراقًا حينما تتاح لك فرصة التسلل إلى الجبال ـ جبل الدرهيب في الجنوب الشرقي لمصر كمثال ـ لترى تلك الكوات المتناثرة التي يطل منها المنقطعون للعبادة تحت سطوة الإشعاع الروحي الذي يتماوج في الجوانح إلى الهواء الطلق حيث لا يصبح الظلام ظلامًا أو ربما لأن (الظلم لا يمكنه أن يتسلق الجبال). ولم أكن أعرف ذلك في تلك الدهور التي قضيتها في لف ودوران طفولي داخل تضاريس حقول قريتنا، وبين الترع والمصارف والقنوات الملتوية، في الظلام بالذات، دون أن أدري أن ثمة ظلمًا قد حاق بي في بيتنا البسيط ذي الفراش البسيط والمأكل البسيط، إلا إن الأمر تطور بي ـ بالصدفة أولًا ثم بالرغبة العارمة ثانيًا ـ أن أقترب من الجماعات المتنقلة غير المستقرة فيَ الصحراوات كالغجر والنَّوَر والحلب، ثم هناك في جنوب مصر

جماعات البشارية ذات الاستقرار النسبي، بنفوسهم الهادئة الممعنة دائمًا في السماء ليلًا استرشادًا بنجوم الظلام، والممعنة في الهضاب والتلال والصحراوات نهارًا استرشادًا بتكويناتها، التي لها ظلامها الخاص. إلا إن الأمر يصبح أكثر إشباعًا للرغبة عندما شاءت الظروف أن أقترب من جماعات المساليب، أي هؤلاء الذين يهيمون أفرادًا ثم يلتقون آخر غروب الشمس جماعات محدودة العدد، وتحس أنهم لا يطمئنون إليك أو إلى غيرك. ولا أعرف إن كانت ثمة دراسات أو بحوث قد شملت جماعات المساليب الرافضة دومًا التآلف مع الآخرين، مع قلة عددهم وشدة حاجتهم، في الوقت ذاته ـ مع إحساس عارم بأن ثمة مطاردة وراء تجوالهم ـ فإنهم لا يلعبون ولا يمرحون كما تفعل الجماعات الأخرى عندما يحل الظلام. والذي أثار انتباهي إلى ذلك أن جماعات ـ أقصد عصابات قطع الطرق المنتشرة في العالم كله بأشكال متعددة ـ فتحت لي باب إدراك المعنى الضاغط للظلام وما وراءه أو ما ينتج عنه من ظلم، إذ إني صادفت بعضًا منهم في أحقاب تالية تحت غضون جبال أسيوط الشرسة عندما كنت في إجازة من عملي في مشروع السد العالي في الستينيات، وكانت قبضة نظام جمال عبد الناصر أيامها قد حدت من جهنم الثأر في الصعيد ومحافظتي الشرقية والبحيرة، أي أن الثأر لم يكن ـ ولن يكون ـ مرتبطًا بالصعيد المصري وحده كما تميل الثقافة العصرية الهشة إلى الوقوع في دائرته. ومع مرور الوقت ـ صحبني واحد تعرفت عليه في جلسة «مصطبية» عادية إلى عصابة قطع الطريق خلف جبال دُرنكة، وبعد التآلف معهم ـ الذي استهلك بعض الوقت والابتسامات والإمعان

الدائم في إدراك ما في صدري ضدهم ـ كما تعودوا، وبسبب عدم توقف تسللهم إلى المناطق الزراعية في الوادي الأخضر، بدأت الأفئدة تسترخي، والتواصل الإنساني يزيح الشك والارتياب جانبًا، إلا إن المدهش بالفعل: أنهم ـ وكانوا ستة أفراد ـ يظلون في ضوء النهار يلعبون ويعبثون وينظفون السلاح في ظلال الصخور. لكنهم في الليل ـ ومع حلول الظلام يبدأون في تخطيط التآمر ضد الناس تخطيطًا تلقائيًّا مع تقليب الوسائل الأكثر سهولة في الوصول إلى النتائج الأوفر سلبًا واقتطاعًا ولصوصية، مع أنهم طوال النهار ـ في ضوء الشمس، لا يتحدثون في ذلك، فكاد الظلام يعمم معناه المستقر في نفوس عامة البشر عن ارتباطه المباشر بالتآمر والشر دون اختراق العالم السماوي الرحب الذي يكمن وراء الشعر والرسم والقصة وأنواع عديدة من الإبداع الذي يتسلل بعيدًا عن الضوء الكاسح، لينمو في الجوانح المضيئة بأنوار الظلام الجميل الذي يتألق فيه ـ وبه ـ خيال الفن الراقي المتواصل مع الحس الإنساني الدافئ.

وما أكاد ـ أيضًا في أحقاب تالية ـ أقرأ تاريخ أو تفاصيل أو مذكرات الانقلابات العسكرية أو المداهمات التي تسعى للعدل ـ كما يعلنون دائمًا ـ وللحرية أيضًا، حتى أقف طويلًا أمام التفكير التمهيدي لذلك، والذي يتم تحت همسات شعائر الظلم تحت أستار الظلام. مع أن ذات التفكير كان يمكن أن يتم في ضوء النهار، ولا سيما أنهم ـ في كل دول الانقلابات ـ يقيمون ويجتمعون في أماكن بعيدة منقطعة عن الارتياب أو الشك فيهم، لماذا في الظلام بالذات؟ دعك الآن من المساليب وجماعات قطع الطرق التي تقع في المأزق نفسه

أيضًا، وعليك أن تعرف أن الظلم يلد الظلام عند النفوس المظلمة، أما النفوس المضيئة فإنما هي تتألق وتتماوج عذوبة تحت إيقاع النجوم البعيدة ذات الشجن.

كلمات لها معنى

كل التجارب أثبتت أن من الممكن استئناس الحيوانات الضارية المفترسة كالأسد والنمر والفهد، مهما احتاج الأمر إلى صبر ودراية، لكن التجارب ذاتها فشلت في استئناس الكلاب الضالة، والتي كانت مستأنسة أصلًا.

*

رواية: قررت أن أتخلص من زوجتي بأقل تكاليف، وأثناء إعداد المؤامرات التي أحقق بها هدفي، فوجئت بزوجتي تسعى للتخلص مني بأي ثمن، فقررت أن أنتقم منها، وأن أجعلها موعظة يعتبر بها الجميع: أن أتمسك بها، فإذ بي أفاجأ بحصولي على الجائزة الكبرى بصفتي نموذج الزوج الوفي المخلص.

*

وقعت خلال المليون عام الأولى من عمري في مأساة الفرق بين ما أريد وما أستطيع، وقد حققت كل آمالي بسبب وقوعي في كارثة الفرق بين ما أستطيع وما يريده الآخرون، دعك من المليون عام المقبلة.

العقار.. والعقيرة

كان لنا صديق ـ في مراحل حياتنا المبكرة ـ ذو عقيرة بالغة العذوبة، وظل صوته بجماله الفطري ينقل ألحانًا وأغاني ذائعة لمحمد عبد الوهاب وزكريا أحمد وأم كلثوم، حتى دهمته رغبة أن يصبح ذا عقار، أي يمتلك مبنى مستقرًّا ثابتًا لا يمكن نقله أو تحريكه، فاختنقت العقيرة بين حوائط العقار، ولم يكن يمتلك القدرة الكافية لتشديد قاف «العقَّار» ليصبح دواءً يعالج به ما أصاب عقيرته، دعك الآن من كونه رحل عن الحياة ـ يرحمه الله ـ عاقرًا دون إنجاب منذ شهور قليلة، ودون أن يدري ـ لو أنه امتلك قدرًا من الإدراك اللغوي ـ أن العقَر ـ بفتح القاف ـ إذا أصاب أحدنا فإنه يعني أننا نظل في مكاننا لا نتقدم ولا نتأخر، في عصر مثل هذا العصر الذي يضغط على أعصابنا الآن ليحاصرنا بأهمية ألا نقع في معاقرة ما يحاصر حركتنا: الجسدية والعقلية.

ولعل الإدمان على معاقرة الخمر هو أخطر ما داهم الإنسان خلال مختلف العصور، وكل الأديان، وعلى قمتها الدين الإسلامي

الحنيف، وما ترتب على ذلك من حضارات، وعلى درجات متفاوتة من تحريم صريح حتى تنبيه واعظ. وفي مجال الطب والصحة وعلم السموم، تقع معاقرة الخمور (والمخدرات التي لا نميل إلى استخدام معاقرتها بديلًا لتعبير الإدمان) تحت سطوة التحذير الواضح الصارم، وهو ما يؤدي بنا إلى الانتباه الضروري لما حدث من اتساع مذهل في معنى المعاقرة خارج دوائر الخمور ثم المخدرات لتصل إلى الوقوع في دوائر أخرى تبدو طيبة وجميلة، إذا ما ظلت ذات نسبة معقولة في حياة من تتحقق شخصيته فيها: معاقرة الشعر إلقاء وإبداعًا، وفن القصة، والرواية، والموسيقى، والرسم، والرحلات، والتجوال في المواقع التاريخية، والتجديف في البحار، والإمعان الفلسفي في الحياة: تدوينًا أو بحثًا ـ مع قضاء بعض الوقت في مجالات الآفاق الممتدة عند غروب الشمس، أو البحث العلمي. ثم يجب ألا أهرب من الروح التي تميل إلى نوع من المرح لا يتسع ـ عند إدمان معاقرته ـ حتى لا يصبح سلوكًا غير مريح، مع أهمية الربط بين الكلمتين: المرح والمريح، كي لا نجد أنفسنا في مأزق المنافسة على المعاقرة. يقولون عاقر فلان فلانًا: أي سابقه في عقر الإبل تظاهرًا بالجود والكرم والسخاء رياء وتحقيقًا لشهرة وسمعة بين الناس، فلا يزالان يعقران حتى يعجز أحدهما الآخر، وكان ذلك في الجاهلية، ونهى عنه الإسلام، لكنه استشرى في العصر الحديث خلال المنافسات الشهيرة في المصارعة والملاكمة، ومعاقرات أخرى تودي بواحد من المعاقرين إلى الهلاك، أو كليهما معًا.. حتى في الكلام المنطلق منافسة بين

متحاورين على المسرح إثارة للمتعة بين الجماهير، حيث يدهم الإرهاق أحد المتباريين ـ معاقرة لاندفاع الكلام ـ ليسقط منفعلًا ميتًا بين تصفيق عارم بالغ الاستمتاع.

وصفة العاقر التي تلازم البشر والحيوان الذي لا يلد، تتحرك إلى الطيور للتعبير عما يصيب ريشها من آفات تعوق نموه، فإذا انعقر ظهر الدابة: فقد أصابه جرح مؤثر في حركتها، أما إذا انعقر البعير والفرس ـ دون تحديد الظهر كما في الدابة ـ فتعني مباشرة أن قوائمها ضربت بالسيف، فإن دهمت الكلب صفة العقور فإنه يصبح سعران متوحشًا مدمنًا بالنهش والعض الذي قد يصل إلى حد الافتراس، ويبدو أن «العقر»: أصل كل شيء، وعقر الدار وسطها، وعقر القصيدة: أحسن أبياتها ـ وهو ما لا تخضع له قصائد ـ أقصد أنواع الشعر الحديث جدًّا.

فإذا ما أصابت صفة العقر بيضة الدجاجة، فإنها تعني أول بيضة تبيضها في حياتها، مع أن العقر إذا أصاب الدجاجة فقط فإنها تصبح عاقرًا لا بد من رصدها ومتابعة حركتها كي تصبح ـ بعد ساعات طعامًا شهيًّا، فإذا أردت المزيد ـ قبل الاستمتاع بالدجاجة المشار إليها ـ فإن العقر أصل النار الذي تتأجج منه، أعني أن الفحم يظل فحمًا حتى يبدأ في الاشتعال فيصبح عقرًا، وإذا كان العقار هو الدواء ـ أي دواء ـ فإن العقر منه هو الدواء الذي يمنع الحمل. لاحظ أنها الصفة المعكوسة بين الدواء والمرض الذي يعالجه، فالعقرة ـ مع أهمية أنها تعني العقم كما أسلفنا ـ إنما هي تعني أيضًا الخرزة التي تحملها المرأة كي لا تحبل. انتبه يا صديقي فإن عقرة العلم النسيان،

أما عقرة التاريخ فهي التزوير، وعقرة الحضارة هي التزييف، وعقرة الأخلاق هي الانغلاق دون الانفتاح على المعنى الخصب ـ أو الخصيب ـ للصداقة والتواصل الإنساني.

كلمات لها معنى

كنت أبحث في القاموس عن «العقرب» فوقعت ـ وأنا أدري ـ في «العبقرية»، فاضطررت أن ألوذ هربًا منهما.

*

كل ما في عقلك من أفكار، وكل ما في جيبك من أوراق مالية: لامستها أيدي الآخرين.

*

الفرق بين النباح والعواء هو المسافة بين الاحتجاج والنحيب.

*

أنواع عديدة من الأعشاب والكلأ والأشواك تتناثر على وجه الأرض، لماذا لم يقولوا: تتناثر على ظهر الأرض.

*

استطعت الحصول على قطعة أرض في منطقة المقابر، وفور أن سلمتها لورثتي: أقاموا المدفن بسرعة مذهلة.

السلق والسليقة

سوف أحتمي بسليقتي حتى لا تحاصرني بعلمك، دعني أعترف أنني ـ في حالات عدة ـ أظل منطلقًا في سعادة قصوى هاجرًا كل أنواع الإدراك العلمي الضاغط في آفاق أزيز الطائرات وضجيج التسجيلات وتصريحات ذوي الشأن، وتراقص مشاهد أجساد المغنيات ـ أو الغانيات، وألوان مانشيتات الصحف والمجلات، وتحذيرات الأطباء وخبراء الضرائب وضباط الشرطة ورعاة التربية والثقافة والتعليم والأزياء ـ مع إضافة النشرات الجوية الحارة الممطرة ـ ثم البئر المضيئة بظلام تحليلات الحوادث وسلوك الأحداث، وموعظة المقدمات التي تؤدي إلى الأفعال الشارخة للمشاعر، حيث لا يبقى سوى سلوان مضطرب يؤدي بي إلى نوم يبدو هادئًا، لأتسلق على فراشي قلق الهم والوجع، وربما ـ لهذا السبب وكما جاء في المعجم، السَّلق هو الذئب، ثم إن السلق نوع من النبات (عرفته جيدًا في الأحقاب الأولى من عمري القروي)، إنه بقلة ـ من البقول ـ لها ورق طويل غض طري يؤكل مطبوخًا، وكلنا نعرفه

دون أن يحظى بموقع مناسب في ذاكرتنا العصرية تلك التي جاءت في جهازنا العصبي إثر تفاعل مزمن مع تيارات الكهرباء ودوراتها المغناطيسية في الأجهزة ومجالات الرؤية وشرائح المأكولات والعواطف والنسيج الصناعي الجميل الملامس للأجساد والمثير للرغبات والأمنيات.

والسليقة هي الفطرة أو الطبيعة التي تختزن الفطرة لتظهر في تلقائيتها البسيطة دون تعقيد، يقال ـ كما تعرف يا صديقي ـ فلان يتكلم بالسليقة: أي ينطق بالكلام صحيحًا من غير تعلم، كما أن السليقة تطلق على ما ينسجه النحل في خلية العسل طولًا، ما هو؟ لم يذكر القاموس إفصاحًا عنه أو تعريفًا علميًا به. كما أننا ورثنا صفة السليقة تعريفًا خاصًا لمن يعيشون في البراري، والذي جاء عنه قول الشاعر عن نفسه:

ولستُ بنَحْوي يلوكُ لسانَه   ولكن سليقيٌّ أقول فأعربُ

ولقد حاولت ـ مرارًا ـ أن يكون مأكلي ـ في المدينة ـ من السليق الخالص: أي اللحم والخضر تسلق بالماء دون أن يضاف إليها أنواع من السمن أو الدهن أو الزيت أو الأفاويه (أي مكسبات الطعم والرائحة)، ولقد نجحت في ذلك ثم لم ألبث أن أحسست بوحدة بالغة، فقد كانت أمي تفعل ذلك بفطرتها القروية، إلا إن زوجتي ـ والتي هي بلا فخر من المدينة ـ كانت تفعل ذلك لي وحدي، أرى المائدة تتألق بأنواع من المطبوخات واللحوم المحمرة وقوارب الروائح النفاذة المثيرة للاشتهاء خارجة توًا بأوراك وصدور الدواجن من الفرن وعيوني ـ التي ليس من السهل أن أغلقها ـ وأنفي ـ الذي من

المستحيل أن أحول بينه وبين شم المتعة المشتهاة، وحركة أمعائي التي تئز من الإحساس باحتمالات وصول السليق (أو الحساء أو الشوربة) إلى الفم والبلعوم دون تدشين أو اشتعال الفلفل والبصل والثوم مع الكمون، كل ذلك يتفاعل بعيدًا عن أعضائي وأجهزتي، فأحس بوحدة تدفعني بالشجن اليتيم المعروف، فأكاد أترك المائدة ـ حيث لا أستطيع التراجع في الاكتفاء بطبق اللحم المسلوق المشار إليه ـ وأقف في الشرفة وحيدًا في الدور الخامس، وحيدًا عنيدًا، وجائعًا أيضًا.

لكن هذا الأمر الذي تراجعت عنه مرارًا، هو ما أدى بي إلى أفكار قادرة على تعويضي ـ النفسي ـ بعض الوقت في مسائل لا أستطيع مواراتها بصفة دائمة ـ حتى لو كشفت عما أملكه من جهل خاص، فبناء على فهمي أو إدراكي أو إحساسي بهذا السحر الذي تسبقه السليقة وتفرزه الفطرة في عقلي: أكتشف أن جميع أنواع المدارس والمعاهد والكليات الجامعية التي تدرس الهندسة ـ المدنية في هذا المثال، أقصد هندسة الإنشاءات والمباني، يخرج منها عدد مذهل من المهندسين المعماريين يرسمون ويخططون سمك الحوائط والأسوار ومدى عمق أساساتها في الأرض مع دراسة وبحوث في الأنواع المناسبة للمباني لأرض معينة، بما فيها من تربة ورمال وطمي وحصى، وتماسك أو تفتت بالرطوبة وتسلل المياه، وعندما يبدأ البناء يقف المهندسون يراقبون تنفيذ ما خططوه ورسموه من كل أنواع الارتفاع والزوايا وتفصيلات التداخل والبروز والقدرة على تحمل السقوف. لكنهم ـ كل المهندسين ـ يراقبون ويشيرون

أو يأمرون فقط، دون أن يمتلكوا تلك القدرة السليقية التي تجعل القائم بالبناء صعودًا من الأساس حتى ارتفاع الجدران، وقد جلس في همة ونشاط، وبإحدى يديه المسطرين: الأداة المعروفة يسوي بها الآجر ـ طوبًا كان أو أحجارًا، ويضع بالمسطرين الملاط (أو المونة ذات الخليط من الأسمنت والرمل الناعم) واليد الأخرى ترتفع إلى أعلى ـ بالفطرة المدربة، لتتلقى المزيد من الآجر، وعندما تقع قطعة الآجر من يد البنَّاء تثير في العمال المنتشرين في ظلال الحائط ـ نوعًا من السخرية المرحة، لتندفع أغنيات الصبر والقدرة على التحمل تخفيفًا من الأعباء أو احتمالات سقوط طوبة أو حجر مرة أخرى.

وقد ترتب عن أفكاري ـ غير المتقنة هذه ـ أن ظللت أزعم أن المدينة بما فيها من كهرباء وآلات ومجالات مغناطيسية نجحت في تدمير السليقة والفطرة، فلم تستطع أن تتجنب بين جدرانها واحدًا من الحواة، والحاوي ـ كما هو معروف ـ ذلك القادر على استطلاع الثعابين والعقارب في مخابئها المظلمة، ثم هو الذي يمكنه أن يظل يتمتم ويهمس ويصرخ بلغة لا ندركها ولا نفهمها حتى لو كانت ذات أوامر ونواهٍ، حتى يخرج الثعبان من الظلام، ويظل يزحف في الضوء لتمتد إليه يد الحاوي فتمسك رقبته رافعة الثعبان ـ أو العقرب ذات الزباني الشرسة المسمومة ـ لتستكين بين يديه، يقولون هذا دجل، وهذا تمويه وافتعال قدرات فائقة لكني ـ وبعقل واعٍ وبصر ثاقب ـ رأيت ذلك ـ مثلك يا صديقي ـ مرارًا ـ واستطعت أن أفهم الفرق جيدًا بين الصفتين، ولا سيما أن المدن ـ أيضًا ـ لا يمكنها أن تفرز

من بين قاطنيها من يمكنه أن يكون قصاصًا للأثر، عساسًا، يسعى في الآفاق الممتدة رمالًا أو براري أو غابات، ليصل بوسائل غامضة ونفاذة إلى مكامن الهاربين والحيوانات والحشرات، إنها السليقة ذات الحساسية المرهفة، والتي لم تتساقط قطعًا تحت نظريات الطاقة والكتلة ومربع سرعة الضوء وآلات الرؤية عن بعد والأشعة الحمراء واندفاع الصواريخ والأقمار الصناعية في تيارات العلوم والمعرفة والقنابل ذات المجالات المؤثرة، والتي تظل حائرة أمام طبق ملوخية بالأرانب المسلوقة بروائح الفطرة الجميلة، والتي يمكن لك أن تحس بها إذا ما قرأت نصًّا أدبيًّا إبداعيًّا كتبه أبناء البراري بعيدًا عما أحدثته المدينة في هذه النصوص من تحطيم حداثي.. بالغ الروعة والرعب أيضًا، وبالتالي فعليك أن تحتمي بقدراتك العلمية الفائقة.. وتتركني أمام طبق السليق الجميل.

العضو.. والعضوية

لم تستعمل ـ أو تستخدم ـ كلمة في العصر الحديث ـ مثل كلمة «عضو» لحد الاستهلاك أو الإهلاك، فإذا كان العضو واحدًا من أعضاء الجسد، كاليد والساق والأذن والعين والمخ، ثم أصبحت الكلمة صفة للمشترك في حزب أو شركة أو جماعة أو نقابة، فإن هذه الصفة اندفعت تفسيرًا مؤثرًا لعضويات أخرى في تشكيل المحاكم، ولجان التحقيق، والعصابات، والتنظيمات السرية، والمجموعات الاستشارية المساعدة لتكوينات وأنشطة النظم الحاكمة (لاحظ أن «التنظيم» لفظ يسعى دائمًا كي يصبح نظامًا، وكثيرًا ما يتم اكتشافه والإيقاع به قبل أن يحقق هدفه)، والعضو دائمًا يقع في كل هذه المآزق المفعمة بالروائح المضطربة، ثورية كانت أو ثأرية أو مجرد احتفالات يميل إليها العصر القائم، والذي يزهو بالكيمياء العضوية والبيولوجيا وعلوم الوراثة في بعض الأحيان.

وأعظم ـ وأخطر الأعضاء (دعنا مما تفكر فيه الآن) هم الذين

ينتمون إلى نقابات المهن الطبية، علاجًا أو جراحة أو تشريحًا أو تنشيطًا أو تجميلًا أو تحليلًا أو بترًا أو تمزيقًا ـ وأي مصطلح آخر يخترق الأفراد والجماعة والأسرة والمجتمع، ثم ـ في مجال الأخطر بالذات وليس الأعظم ـ أعضاء أنشطة المهن الهندسية المندفعة نظرياتهم وقدراتهم: صواريخ وقنابل وأشعة في أعالي السماوات وأعماق البحر والأرض وشاشات التلفزيون والأخلاق والتقاليد والنظريات الاجتماعية وقواعد السلوك ومجالات الأقمار والنجوم، إلا إن أعضاء عديدين في مجالات أخرى يقومون بأنشطة لتعويض النفس بالمتعة المفقودة عن طريق الفن والتمثيل والغناء والسمر المتراقص على أضواء الضجيج، ومجالات الإبداع التشكيلي والقصصي والشعري، تحاول أن يظل لها تفردها الجمالي ـ بعض الوقت ـ قبل أن تستدرج قدرات بعضهم ـ الفذة بالذات ـ إلى أنشطة أخرى تبدو فنية ـ من باب ذر الرماد في العيون: (نعم: العيون) إنها أخطر أعضاء النشاط الحيوي ـ في الإنسان والحيوانات والحشرات، والبوابة التي تنفتح دائمًا لتجذب إلى باقي أعضاء التكوين الجسدي كل أنواع التغذية النفسية المؤثرة، دون الحد من قدرات حواس اللمس والسمع والتذوق والشم في أداء مهامها الحيوية، في المتعة واللذة والأسى والشجن والإحساس بالمرارة والندم الضاغط المقلق على المخ والأعصاب.

وأكثر أعضاء النشاط الإنساني ـ أو المهني مع بعض التحفظ ـ استخدامًا لعضوية انتمائهم أو انتسابهم لأي تكوين، ولو لبعض الوقت: أعضاء مجلس الشعب (أو النواب أو الأمة) سواء استمروا

أو فشلوا أو اعتزلوا في دورات أخرى، فسيظل عضو المجلس متمسكًا بالعضوية مع إضافة «سابقًا» عند زوالها، حيث يستخدمها في بطاقات التعريف وأثناء حواره في المؤتمرات والندوات والمسامرات وسطور التهاني والمناسبات المباركة والعزاء والنعي للموتى والراحلين. ويقوم بعض زملائي أعضاء اتحاد الكتاب (في مصر بالذات حيث يتاح لي الرؤية والاحتكاك الدائم بهم) باستخدام هذه الجملة الدائمة في المقالات والشكاوى والاعتراضات والاستعراضات: (فلان الفلاني: عضو اتحاد الكتاب) في حين نجد أعضاء نقابات أنشطة ومهن أخرى لا يستخدمون ذلك إلا في ظروف وظيفية خاصة جدًّا، أي في التحقيقات القانونية أو مواجهة إجراءات صعبة أو استخدامًا لحقوق نقابية في السفر والانتقال ودخول المسارح والمصحات والمستشفيات والمتاحف، كأعضاء في نقابات الصحفيين والتشكيليين أو الممثلين أو جماعات النقاد أو المحافظة على البيئة. والسبب في ذلك التوسع المبالغ فيه لاستخدام بعض هؤلاء الزملاء لجملة: «عضو اتحاد الكتاب» يرجع إلى أن هؤلاء بالذات لم تتحقق ذواتهم وشخصياتهم في الكتابة والأداء المهني المتصل بمثل هذا الإبداع أو النشاط، حيث لم يحظوا بالشهرة المأمولة، وبين انعدام التحقق الذاتي والشهرة نقع في الهوة أو الفجوة التي تجعلنا نتحرك وعلى هاماتنا هذه العضوية التي لا يستعملها في أوراقهم وبحوثهم، الأطباء والعلماء والزراعيون والمهندسون والقانونيون والصحفيون والمعلمون والإعلاميون ـ أعضاء الاتحاد المشار إليه ـ أن العضوية ـ أي عضوية ـ وردت في اللغة من العضَّة:

ومن بين المعاني في هذه الكلمة: الكذب، وبالتالي فإن هذه عضويته في مجالات التضخيم والرغبة في الظهور.

وأشهر الأعضاء قاطبة ـ بعد أعضاء عصابات المافيا المنظمة من قطاع الطرق في صقلية في القرنين الماضيين وبلغ نشاطها قمته في أوروبا وأمريكا ـ أعضاء مجلس الأمن، وأعضاء الأمم المتحدة، وأعضاء أجهزة المخابرات الذين ظهروا نجومًا في السينما والمسلسلات التلفزيونية والانقلابات السياسية، والمذكرات الخاصة بالزعماء والرؤساء الراحلين.

ويظل القلب العضو ذا الشجن المتأثر بالمواقف وباقات الزهور وانسياب الموسيقى، وتدفق الشعر وسطوة التعبير في اللوحة المرسومة، والمتألق دمعات في عيون الأعزاء: شوقًا وعتابًا ولومًا.. وصمتًا يعبر عما لا يستطيع أن يقوم به أي لسان، وبالذات حين تتمدد الآفاق الهادئة لحظات غروب الشمس ليزحف خلفها ـ في ود بالغ الهدوء والإمعان ـ ليل آمن، يجعلك تحس بعضويتك الجذرية الأصيلة في الوجود.

كلمات لها معنى

مرة وحيدة حينما رأيت نملة تسعى على جدار مقهى، ومن باب المرح أصدرت أمرًا لها بأن تتوقف، فتوقفت، بعدها: أمرتها أن ترجع وتعود من حيث جاءت، فإذا بالنملة تستدير وتعود، ضحك الأصدقاء، بعدها بدأت خلافاتي مع زوجتي في البيت.

*

سأقول لك ما لم أقله لأحد قبلك: أجمل ما في حياتك لم يحدث بعد، أقصد أخطر وليس أجمل.

*

ألم تلاحظ أن المطارات تخلو من العصافير؟ رجاء الفرار من مطارك الخاص.

*

تعليمات طبية: لا تتناول الملح، ابتعد عن السكريات، بعدها يبقى لك نوع من النسيم الذي لن يحس به سواك.

*

دعاة النقد الأدبي يعلنون الآن أن الإبداع القائم لأصدقائهم يخضع لمرحلة ما بعد الحداثة، الموقف محرج لهم بعد ما بعد الحداثة ـ رجاء عدم التصحيح.

الصّفر.. والصفراوات

علينا أن نستأذن صفر ـ ثاني الشهور الهجرية بعد المحرم وقبل ربيع الأول ـ كي نخترق المجالات الصفراوية التي تثير الوجل ـ أحيانًا ـ في الصحاري والعشب الجاف، ثم الجوع، والذي أودى بعدد من العشاق، هؤلاء الذين هاموا غرامًا تحت سطوة قوس قزح عندما ينسل الأصفر في ألوانه بالغة الجمال، ولو أتيح للتاريخ أن يشرِّح جسد واحد منهم فور توقف أنفاسه، لكان التقرير الطبي يشير إلى ما حاق به نتيجة ضمور سائل الصفراء (الذي تفرزه الكبد ويختزن في كيس المرارة) بصفته عنصرًا أساسيًّا في الهضم والصبر والقدرة على التحمل: خلال أزمة الغرام بالذات، لكن الأصفر يتراجع أمام صفير الحكم إعلانًا عن انتهاء مباراة قد تكون نهايتها في مصلحة الفريق الذي تختصمه، ولو أنك تجاهلت صافرة هذا الحكم الكروي: لما استطعت أن تهرب من تأثير الصفير في جماهير مباريات حلقات المصارعة والملاكمة والمبارزة، عليك أن تخرج الآن من هذه المجالات التي تهيمن عليها متعة التعصب الرياضي كي تواجه صافرات الإنذار حربًا،

أو إسعافًا، أو حريقًا، أو إنهاء لممارسات مالية في بورصة الأوراق ذات التأثير في ثروتك. إن ساعة الصفر أكثر وقعًا ـ وتأثيرًا ـ في النفوس والتاريخ أيضًا، مع أنها لا تنطلق دائمًا، إن مهمتها تبدأ دون أي صافرة، بصفتها مصطلحًا عسكريًا يحدد اللحظة الأولى للتحرك أو الهجوم، ولا يستخدم هذا المصطلح في الانسحاب بالطبع، ثم لم تلبث ساعة الصفر هذه أن تسللت من فيالق الجيوش إلى مجالات الأعمال والمشروعات، بالإشارة أو الإيماءات أو النظر إلى أعلى، وأي مجموعة عمل تخضع لسطوة ساعة الصفر حتى لو كانت تقوم بتصوير الروايات أو المواقع، دعك من الإشارة الشريرة التي لا بد من الانتباه إليها في تحركات العصابات الإجرامية المداهمة للمدن أو البنوك والمصارف التي تستخدم مصطلح ساعة الصفر أيضًا.

وإذا كان الصفير ـ بالفم استخدامًا لأصابع اليد ـ يصدر منا نحن البشر احتجاجًا، أو من شدة الإعجاب (ولو كان مفتعلًا) أثناء سطوة الروح الجماهيرية في قاعات الأغاني أو الرقص أو الأداء المسرحي المثير للمتعة الشائعة الآن، فإن هذا النوع من الصفير يستخدم أيضًا لاستعداء أو لتنبيه الطرف الآخر في مواعيد الغرام، أو الصداقة البريئة، تمامًا كما أن لغة الصفير معترف بها للتخاطب ـ أو التواصل ـ بين بعض ذوي الخبرة من البشر مع الحيوانات والطيور والحشرات في الحقول والجبال والسيرك (موقع استعراض قدرة الإنسان للسيطرة على السباع والنمور ـ ولا أعرف إن كان مجمع اللغة العربية قد قام بصياغة لفظ عربي مقابل كلمة السيرك)، وكذلك ما يقوم به الحواة للهيمنة على الثعابين والعقارب، حتى إن ما يصدره الحاوي من صفير يكون له

جواب ـ بعد فترة شديدة الرهافة والحساسية ـ من الثعبان الكامن في شقوق جدران المنازل أو التلال أو الأنفاق، أو بين غصون الأشجار، فإذا ما خرج الصفير من دائرة الاستدعاء والتواصل، أي وضع فعله الأول مرفوع الصاد ومكسور الفاء: «صُفِر» فإنه يعني: جاع، وأصابه الصفار فهو مصفور: صفة لمن أصابه الجوع الشديد، فإذا فتحت الصاد، فإنه يدخل دائرة الخلو أو الخواء: صَفر البيت من المتاع والإناء من الشراب والقلب من الحنان والثدي من اللبن، وإن صفرت يدك من المال فسوف تصفر علاقتك العصرية بالأصدقاء، والأخطر من كل أنواع الصفار السابق أن يصفر عقلك أو قلبك من الإيمان، حيث تجد ذاتك ـ حينذاك ـ خواء لا يمكن التعبير عنه إلا بصفار النبات ليصبح قابلًا أن يكون هشيمًا في أي لحظة، أو عندما تلجأ إلى أنواع من السوائل الصفراء بحثًا عن عالم وردي.. وهمي... مريض.

ومع ذلك «الأصفر» حينما يكون صفة مطلقة فإنها تعني المعدن الثمين الذهب، فإذا أعدت الصياغة الأصفرية لتكون «بني الأصفر» فيصبح المقصود ما أطلقناه نحن العرب لقبًا للروم من سكان آسيا الصغرى والقسطنطينية وما عليها، إلا إن تثنية الأصفر إلى الأصفرين: تعني مباشرة الذهب والزعفران. الذهب أنت تعرفه، أما الزعفران فأنت تستخدم لفظه فقط، إنه النبات ذو الرائحة الطيبة من فصيلة السوسن، وربما يكون ذلك مناسبًا كي نوقف السعي وراء مادة «الصفر» حتى لا نقع فيما يعنيه حينما يصبح رصيدك المادي ـ أقصد المالي ـ في المصارف بالذات: صفرًا، مع أن الصفر يمكنه أن يخرجك من دائرة الإحراج إذا ما قفز من مؤخرة الرقم إلى مساحة في المقدمة

ليزيد إحساسنا بالثراء والمتعة كلما تعددت وحداته، لنترك للصفر تأثيره المعروف في أرقام الهواتف ذات الاتصالات الدولية، بعيدًا عن صفار البيض ودود البطن ودرجة الصفر التي تبدأ منها أمور كثيرة في التجمد والتثلج والرسوب في اختبارات المدارس، والعلاقات الإنسانية أيضًا.

كلمات لها معنى

جبال الجليد تبهرني في اللوحات وشاشة التلفزيون وكتب الرحلات، أرجو أن تذهب إليها وحدك.

*

رأيتها: الأشلاء والأنقاض والحزن وحطام الأثاث، ظلت تحوم في رقة بالغة الشجن، فراشة بيضاء في دوائر طيرانها أثر لخطوط ناعمة، وساحرة.

*

السلام ليس مصطلحًا كلاميًّا أو إشارة باليد ذات ابتسام على الشفتين، السلام ـ في الأصل ـ إحساس بالمشاعر في الوجدان.

*

الانعزال ـ أو العزلة ـ بعض الوقت وراء كل أنواع الإبداع والمخترعات والنظريات، الانعزال التام، كارثة أو مأساة، أيتهما أكثر توضيحًا؟ لا أدري.

*

الجيوب التي تدخلها النقود تبدأ بوادر الثقوب والتمزق فيها قبل أي جيوب أخرى.

*

كلما أعدنا صياغة التاريخ، ظل التاريخ يمعن في جهودنا ومحاولاتنا بنوع من السخرية.

*

لماذا يهيمن الليل على كل الأغاني والقصائد دون إتاحة الفرصة للنهار؟

الشرط

حاولت مرارًا ـ مبتسمًا في سعادة راقية ـ أن أخفف من هذا التشابك في مقص أصابع الوزراء بين الشريط ـ إيذانًا ببداية افتتاح المشروعات ـ والشرطة تنبيهًا ألا تتحرك إلا في الحدود المسموح لك بها في الاحتفال، محاولًا أن أستبعد الشريط من شرائط تضميد الجروح المبكرة، الناجمة عن اللهو الصبياني بين تضاريس مسقط رأسي، حتى إنني ـ ذات مرة ـ اصطدمت دماغي في كبوة مؤلمة على شريط قضبان السكة الحديدية متعرضًا لمداهمة القطارات، ولقد ظللت ـ ربما بسبب أي من ذلك ـ لا أستطيع أن أرفع عيني عن التشريط المؤثر في أصداغ حواة استخراج الثعابين، والهيمنة على العقارب ونساء الغجر والنَّوَر، ليترك تلك الندوب ـ أو الندبات ـ التي تشير إليك أن تفهم نوعية هؤلاء العابرين قبل انتشار بيانات البطاقات الشخصية في هذا العصر.

وأخطر أنواع الشروط ما يعرفه الرحالة والمتجولون وعشاق السفر: أنك تدخل أي مكان بشروط المكان، سواء الشروط المعروفة

في المساجد والأماكن الدينية، أو في دور الأوبرا والفنون، أو حتى قاعات عزف الموسيقى، أو بعض أماكن المتعة الراقية في احتفاليات دبلوماسية ـ مثلًا ـ بالامتناع عن التدخين أو عدم ارتفاع الصوت مع مراعاة ارتداء الملابس المناسبة، والسلوك المناسب أيضًا، أي السلوك الرصين الهادئ والرقيق أيضًا.

ومن المقلق لك ـ ويسبب لأعصابك توترًا يحيل وقتك لعذاب مرهق، أن تتجاوز ـ أو تخترق ـ أو تتلاعب لفًّا ودورانًا حول هذه الشروط، حيث تستخدم قدرات منصبك أو موقعك أو قدرتك الفائقة في الخروج إلى ما لا يتناسب مع المكان. ولعل أول مرة واجهت فيها ذلك كانت في قطار الصعيد أثناء عملي في مشروع السد العالي بأسوان، عدم التدخين، بعدها تعودت أن أتشمم ـ أو أتنسم ـ ما لا يعلن ـ أو يعلن ـ من تلك الشروط، وبسبب ما يعلن وما لا يعلن من مثل هذه الضوابط: تمتلئ قاعات المحاكم في قضايا المسافة بينهما، مع أن الشرط نور في الموروث الإنساني للسلوك إلا إن مثل هذه الأمور المدونة في العقود وإيصالات الأمانة تخضع ـ في كثير من الأحيان ـ للتغييرات النفسية والاجتماعية لطرف من الأطراف، ويداهم بنودها تفسير أو تأويل قد يجد صدى مؤثرًا في النتائج، ولقد تمنيت أن أوفق وأنجح في تطويع شروط حياتي الواقعة دائمًا في المسافة المروعة بين ما أريد وما أستطيع، وأنت كذلك يا صديقي، حيث نعاني دائمًا مما يقال في اللغة ـ أي لغة.. والعربية بالذات ـ أشرط نفسه لكذا: أعدها وطوعها وهيأها لهذه التبعات ـ المؤقتة أو الدائمة، ولذا فإن اللغات كلها ـ أيضًا ـ تمتلئ بأدوات الشرط: تلك

الألفاظ التي تستعمل لترتيب اللغة لتصل إلى الأسلوب المنضبط المؤثر (مثل: إنْ ـ بتسكين النون ـ ومن ومهما وإذا ولو...)، وحتى في حالات التمني والسعي لتحقيق الآمال ـ ومعظمها غير معلن ـ فإن الشروط تبرز دون أدوات وألفاظ الشرط، ليت ولعل وأرجو وآه: آه يا قلب عليك أن تخفف الشجن حين تلقاها حتى لا تندفع إلى سلوك غير مريح معها.

وأخطر ما أنجب الشرط هو الشرائط، شرائط فتيلة السراج، والمصباح الذي ضاغطته كهرباء أضواء العصر الحديث حتى كاد يدخل مجال الاندثار، وشرائط تسجيلات أجهزة الإرسال في الصوت ثم الصوت والصورة، ليس الإرسال فقط، بل وأجهزة المراقبة والتجسس وجمع الأدلة ضد الآخرين، إدانة أو كشفًا للأسرار أو الابتزاز أو حتى في مجال المتعة التي انتشرت في العصر القائم، حينما أمتلك ما يسعدني من شرائط تخص حياتك وسلوكك، دون أن يكون لي هدف آخر سوى متعتي الشخصية العصرية البائسة.

إلا إن صياغة أي شرط قد تتحول إلى مشرط بالغ القدرة على الاختراق، ليصبح المبضع الذي يستخدمه ـ بالعقل ـ ذوو القدرات التحليلية في العلوم والفلسفة والاقتصاد، لكن أرقى اختراق لهذا المشرط ـ المبضع ـ يظل في أيدي الأطباء ليصلوا إلى مكامن الداء ومنابع الأذى في الجسد الإنساني سعيًا لتحديد عناصر ووسائل العلاج، وهو ما استفادت به أجساد أخرى في الحيوانات والطيور والزواحف، ما نعرفه وما قد يظل بعيدًا عن عيون ومدارك أمثالنا

غير المتخصصين. حتى إن معظم الحقائق الثابتة الآن في كتب الطب والعلاج تخضع للحركة الأولى لهذا المشرط، والذي بدأنا حياتنا به خلال التجربة الإنسانية المبكرة: الختان ـ أو الطهارة في المصطلح العامي المنتشر في أقطارنا ـ دون أن ننسى حين نفتح الراء بلا تسكين ليصبح الشرط: شَرَطًا يصبح المعنى بالغ الرقة: إنه العلامة، ومنها جاء الشرطان: نجمان يقال لهما قرنا الحمل يظهران أول الربيع، إشعاعهما البعيد بالغ الرقة بعد منتصف الليل، لكنهما ـ مثل الأمور الجميلة ـ والمريحة ـ لا يستمران في مجال رؤيتنا كثيرًا، مثل كل الآمال والأمنيات التي تشع داخلنا ـ أو أمامنا ـ بعض الوقت ثم تخبو أو تغرب، لكي نقع من جديد في شروط الحياة ونتائجها، نتحملها شريطة أن نكون ذوي مبادئ رقيقة وراقية، تبعدنا عن الشريط، أقصد الحبل المفتول حولنا، والذي تستعمله الشرطة المحلية، أو الإنتربول: الشرطة الدولية، أو الأخطر من كل أنواع الشرطة ذات السطوة المبتسمة: الزوجات، أمهات عيالنا وجدات أحفادنا.

كلمات لها معنى

كل أنواع السيول تترك في نفسك أثرًا مؤثرًا: أمطارًا كانت أو مياه أنهار أم تنفيث بواطن آبار. الأكثر تأثيرًا، بعض نقاط الدم الأحمر في وجه أنثى.

*

الأطلال تمر علينا في رومانسية رقيقة خلال القصائد والأغاني، جرب مرة أن تشهد أطلال فترة صبيانية من حياتك حينما ـ دون قصيدة أو أغنية ـ تقف كابية وحيدة مهجورة تشي بقصة حبك الأولى، قصيدة ضاغطة دون التعبير عنها لغة باللسان.

*

قد يكون ممتعًا أن أهرب من سداد مبالغ قليلة مديون بها، لكن الأخطر أنني ـ الهارب من السداد ـ أفاجأ بنفسي أدفع أضعافها حين أزور ـ دون تمهيد ـ صديقًا قديمًا في منطقة بعيدة، أحس أنه محتاج، ويرفض هو الاعتراف بما أفكر فيه، دعك من أنه يأخذ المبالغ، إرضاء لي فقط، ومبتسمًا أيضًا.

*

تعطلت سيارة الركاب الضخمة على شاطئ البحر الأحمر قبل الوصول إلى مدينة الغردقة بساعات، الشمس تغرب، وآفاق المياه الهامسة جذبتني كي أجلس على صخرة، هيام مفتقد في المدينة، أصلحوا السيارة بعد ساعة وعانيت كثيرًا حتى أستجيب لصراخ السائق تنبيهًا لمواصلة السفر، نظر لي السائق في غضب مختنق، رافضًا إدراك ما أنا فيه.

رمضان.. كريم

في المعاجم اللغوية فقط، يرتبط رمضان ـ هذا الشهر الجميل ـ بالرمضاء: أي شدة الحرارة، والأرض التي تكاد تشتعل من وقع صهد الشمس، والحجارة المستكينة بؤسًا تحت سطوة لهيب الطقس، ومنها جاءنا المثل العربي القديم لمن يلوذ بمن لا يجد لديه الأمن والأمان والمعنى الإنساني للمأوى (المستجير من الرمضاء بالنار) وهو المثل الموروث الذي يستخدمه واحد مثلي من آل مستجاب ضد واحد مثل الدكتور أحمد مستجير ـ عالم الوراثة المصري المعروف والمشهور خارج مصر ـ مما يجعلني ـ في أحيان كثيرة ـ أفخر بالتكوين اللغوي لاسم عائلتي دون الغض من حقدي الدفين لأني لا أملك شهرة آل مستجير، ولذا فقد كان الأذكى ـ والأنقى ـ قدرة شهر رمضان الكريم على الانفصام الحاد بينه وبين السعير ـ أقصد الرمضاء المشار إليها ـ حتى في السنوات التي تشاء أقدار توالي شهورها أن يأتي رمضان الكريم الجميل خلال فترة الصيف.. الحار جدًّا.

وشهر رمضان القروي له انشراح يفتح الوجدان بشكل مختلف

عن رمضان البدوي أو المدني ـ أقصد رمضان الخاص بي شخصيًّا ليس اختلافًا في النوع، بل في طقوس استقباله وممارسة الحياة خلال أيامه ولياليه، ونحن أبناء القرى نخفي كثيرًا من أسرار حياتنا الرمضانية حينما تتحقق لنا درجات من الأوضاع الوظيفية ـ أو الاجتماعية ـ في المدن بالذات، ففي الأحقاب الأولى من حياتي في قريتنا لم يطرأ في بالي أن الكنافة يمكن أن تظل من المخبوزات الحلوة طوال العام وليس في شهر رمضان فقط، بل الأخطر من ذلك، أن الكنافة ظلت في ذهني الريفي هي هذه الشعيرات من العجين السلس المرن الأبيض، والذي ينتهي أمره ـ بعد إنضاجه السريع على الدائرة المسطحة المتسعة فوق الفرن، بعد أن يقوم ذو الخبرة المرنة بتسييل الخيوط العجينية من خروم ـ أو ثقوب ـ الكوز ليصبح دورانه متناسقًا ـ كالتناغم الموسيقي ـ مع دوران مسطح الفرن الملتهب، وعند هذه الخيوط العجينية ذات النضج المحدود ينتهي أمر الكنافة عندنا، وتقوم أمي بوضعها في أكوام صغيرة وقد رشت فوقها السكر الناعم أو العسل الأسود السائل مخففًا، حيث تصبح ـ هكذا ـ قابلة لأن تتحول بين الأصابع إلى لقيمات في الفم الجائع، غير أن هذا الأمر تراجع إلى الخلف حينما اتضح لي أن الكنافة ـ في مناطق أخرى ـ يتم تنظيم شعيراتها في صينية وقد حشيت بالجوز واللوز والزبيب، لتخرج مسطحة بالغة الأناقة والجمال المتدرج بين اللون البني الفاتح والغامق ـ أي الذي يذكرك فورًا بالنضج في سعير الفرن.

وبالتالي فقد تراجع رمضان الريفي الطيب تحت سطوة رمضان الآخر خارج قريتنا ـ أو خارج بيوتنا بمعنى أكثر دقة، حيث بدأت

أنواع من مخبوزات الفطائر متجاوزة الكنافة، أشهرها القطايف التي تحتوي في بطنها أنواعًا من الياميش والمكسرات والزبيب، غير أن نوعًا من القطايف تناولته ـ بلذة فائقة ـ في قرية البحيرة البدوية القريبة من مدينة إدفو ـ أسوان ـ على مشارف الصحراء الشرقية (يفصل مجرى النيل بينهما) وكنت ضيفًا على شيخ قبيلة العبابدة الشهيرة، حينما فوجئت بأن القطايف محشوة بنوع مجهز بطريقة ساحرة من البلح اللدن، مع أن إفطار رمضان في تلك الليلة كان يحتوي على أنواع من الفطائر المحشوة بالمكسرات والياميش والزبيب، كما أن قمر الدين تم تقديمه إلينا رقائق من الصفحات الورقية، تمامًا مثلما كانت قريتنا تقدمه، إلا إن عصير قمر الدين في الأكواب الذي يفتح شهية الصائم فور أذان المغرب في المدينة يحل مكانه التبلغ بعدة بلحات لدنة، أو بلحات رطبة في الريف حيث نفتقد البلح ذا الصلابة المرنة الجميلة، وكثيرون كانوا يتبلغون بالبلح خالصًا ليلة القدر إحساسًا بتحقيق الأمنيات الخالصة الطيبة، وتكاد بلادنا كلها ـ المصرية: الريف والمدن والواحات ـ تعتبر الفول المدمس ـ بكل تجهيزاته ـ مرتبطًا برمضان الجميل الكريم (مهما احتوت المائدة أو الطبلية أنواعًا لذيذة ثمينة سمينة تعبق بالروائح من اللحوم والطيور)، ولا نميل إلى إدخال الأسماك في مجالات متعة الإفطار الرمضاني، إلا إنني فوجئت بأنواع عدة من الأسماك تقدم في هذه المناسبات عند أهل المواني والبلاد المطلة على البحر، وربما يدفعني ذلك إلى التنبيه إلى عادة موروثة لدينا، ولم تتغير تغييرًا مؤثرًا حتى الآن في مناطقنا القروية والبدوية ـ دون المدن ـ في حالات استقبال وتكريم

الضيوف عندنا، أن أفضل ـ وأكرم ـ ما يمكن إعداده للضيف لحوم الضأن، بعدها لحوم صغار العجول (الجاموس والأبقار). ثم تتتالى في قيمة التكريم لحوم الدواجن، ويظل الحمام جزءًا من الضيافة مضافًا إلى أي مائدة وليس متفردًا، ونادرًا ما تدخل الأرانب والبط والإوز خلية الاستقبال، أما الأسماك فهي مطرودة من موائدنا ـ أو طبلياتنا ـ الريفية في رمضان أو أي شهر آخر، وبالذات في حالات الضيافة، مع أن الفول المدمس عنصر أساسي بجوار العناصر الأخرى في شهر رمضان بالذات، والمجهز بالزيت والليمون والخل دون أي سمن أو زبدة.

وأشهر موائد قريتنا كانت تلك التي يحضرها الشيخ راشد ـ يرحمه الله ـ كان ضريرًا يرفع رأسه دائمًا إلى أعلى، وفي آخر أيام حياته كانت أسنانه قد أصابها ما يصيب القلاع الأثرية من خلخلة لتكون أطلالًا كالحة، كان حاضر الذهن، حاد القريحة، جذابًا في تعليقاته الساخرة والشائكة ـ يحتل الشاعر أبو نواس، شعرًا وسلوكًا ـ موقعًا واضحًا فيها. وليس صعبًا أن تختلط هذه التعليقات بملح وحلاوة العناصر الرمضانية من فطائر ومكسرات وعصائر، كما أنه من السهل إدراك أن كثيرًا منها أيضًا ـ هذه التعليقات والحكايات ـ كان يختلقها ويصطنعها الشيخ راشد لحظة سخونة الاندماج في الكلام ـ مع الأكل ـ أو بعد الانتهاء منه، وقد نجحت هذه الشخصية الفريدة ـ بالرغم من تكرارها في مواقع أخرى ـ أن تكون عنصرًا رمضانيًّا على الموائد العامرة، وفي غير الشهر الكريم أيضًا، إلا إن الأمر لم يعد سهلًا ظهوره الآن، أقصد الشيخ راشد.

والسبب في ذلك أن سهرات رمضان الجميلة ظلت مخدومة بالتفاعل الإنساني، في ذلك الوقت الذي كانت البيوت فيه تبرز قدراتها الخاصة في تجهيز المأكولات ومختلف مشروبات السهر الرمضاني، مع النصوص الدينية: تجويدًا وقراءة وترتيلًا، وانشراح النفوس يؤثر في التواصل والإدراك، وهو ما تقلص الآن، لم يتقلص فقط، بل اندثر، بسبب سطوة التلفزيون بمسلسلاته وألغازه وإعلاناته وفوازيره وحلقاته ذات المواقف الضاحكة والمحرجة أيضًا، مع أهمية أن معظم المأكولات بكل أنواعها تأتي جاهزة، ومغلفة بالرقة والجمال، وما يساعد على أن تظل الجماجم ـ بعيونها ـ مطارًا مسطحًا لاستقبال مختلف مراكز الإرسال التلفزيوني دون سمر أو تعليق أو مسامرة حميمة، مع اتساع الابتسامة المتماوجة في المجالات الكهربائية والمغناطيسية.

كلمات لها معنى

هذا الصمت السابق على أذان مغرب رمضان الكريم، يستغرق حتى الكلاب والقطط فتظل بلا نباح أو مواء.

*

لا حفلات زواج تقام في هذا الشهر الكريم، وتحدد ليلة الدخلة ـ دائمًا ـ ليلة الخميس الأخيرة التي تسبق عيد الفطر.

*

الوقفة هي اليوم السابق على عيد الأضحى، ومع ذلك فقد تعود

شعبنا أن يتعامل مع اليوم السابق لعيد الفطر بالإحساس ذاته دون الطقوس.

*

محرم ورجب وشعبان ورمضان وربيع، أسماء منتشرة في كل أقطارنا العربية، أين صفر وجمادى وشوال وذو القعدة وذو الحجة؟

*

كنا نتراهن ـ ونحن صغار ـ أن قمر رمضان منذ ظهوره هلالًا، ثم وصوله إلى اتساع البدر، لا يمكن للسحب أو الضباب أن تحجبه.

بين النفر.. والنفرور

ظل القط النفور يحاصر نومي خلال دهور طفولتي وصبيانيتي، كان مواؤه يخترق ـ في شراسة ـ زقزقة عصافير النخيل في البكور، وعندما أراه، تحت تيارات دخان فرن الخبيز الذي تكمن بين جمراته الأواني الفخارية ذات اللحوم الملتهبة، يظل القط النفور مكشرًا عن أنيابه، مستعدًّا للهجوم الشرس دون أي ممارسة لأي هجوم، لكنه يظل مرعبًا. وعندما كانت كف أمي تمتد إلى أنواع أخرى من القطط والكلاب: تنحني رؤوسها حبًّا وامتثالًا وطلبًا للطعام، ولم أكن أدري ـ حينذاك ـ أن قواعد النفور تنتشر بين مخلوقات متناثرة بين الخراف والجديان (ذكور الماعز) والإوز والبط والخيول والظباء والجمال، والبشر أيضًا، حتى إن النفري الذي أصبح شهيرًا لدى عدد من ثوار الثقافة المعاصرة ـ لم أجد له أثرًا أو عنه سطرًا واحدًا في الموسوعات. لقد كان ابن عبد الجبار بن الحسن النفري من أكثر الشخصيات غموضًا في التاريخ الفلسفي أو الإبداعي، ولم يعرف له سوى كتاب شهير ـ الآن ـ هو «المواقف والمخاطبات»، وهو الكتاب

الذي قيل إن النفري لم يكتبه، بل كتبه ابن بنته أو أحد تلاميذه كما جاء في الطبعة التي أصدرتها دار الكتب المصرية بعد أن تحمس له عام ١٩٣٤ المستشرق الإنجليزي «نيكلسون»، شديد الإعجاب بالشطحات غير المرغوب فيها إزاء العقائد الدينية، ولقد رحل النفري بين عامي ٣٥٤ و٣٦١ هجرية.

والنفور ـ في المعجم الوسيط ـ هو الخروج أو هجر الوطن والضرب في الأرض، ولذا فإن النفور عندما يصيب الجسد الإنساني ـ دون النفس الإنسانية ـ يعني ذاك الورم الذي يؤذي اللحم والأعصاب، متوازيًا مع نفور الزوجة من زوجها حينما تعرض عنه وتصده، فإذا نفرت الجماعة من الناس ضد العدو ذي الخطر عليهم؛ يصبح النفور حالة أخرى يقوم بالتنبيه إليها ـ في الجيوش الحديثة ـ النفير حينما ينطلق مؤذنًا بالاستعداد تمهيدًا للدفاع أو الهجوم. ومن الغريب أن هذا النفير لم يرد في «المعجم الوسيط»؛ أحدث وأشهر معاجم مجمع اللغة العربية، تمامًا كما لم يرد النفري ـ المشار إليه ـ في الموسوعات، في حين وردت النافورة التي تنبثق مياهها في ميادين المدن ـ خاصة العواصم ـ متألقة في أضواء كهرباء ناعمة وساحرة.

والنفر يطلق على الفرد، أي الشخص الواحد، واعتدنا أن يختص لفظ النفر على ذوي الاحتياج، هؤلاء الذين يُستدعون للعمل في أشغال يدوية أو استخدامًا للفأس وما يقاربها تقليبًا للأرض أو قطعًا لجريد النخيل، أي الأعمال المحدودة، لكن النفر أيضًا يطلق على

الجماعة من ثلاثة إلى عشرة رجال، ومنه جاء موروثنا في الجملة المشهورة «فلان لا في العير ولا في النفير»، والعير ما يجلب عليه الطعام والاحتياجات من قوافل الإبل والبغال والحمير، وتطلق هذه الجملة ـ أو المثل ـ تعبيرًا عن الفرد الصغير القدر، أو الذي تنقصه القدرة على الحركة الفاعلة النشطة، وربما يكون المصطلح المعاصر ـ السلبي ـ أي فاقد الإيجابية، يعنيه أيضًا.

إلا إن عددًا من زوجات قدماء المصريين دخلن التاريخ المبكر متوجات بالنفر، أشهرهن: «نفرتاري» سيدة زوجات «رمسيس الثاني» والمهيمنة على قصره، ولها هيكل بين هياكل آثار أبي سنبل في جنوب مصر، و«نفرتيتي»: زوجة «أخناتون» وشريكته في الخروج على عبادة «آمون» ليصبح «آتون»، ثم ما حدث بعد ذلك من كوارث الارتداد. وتقول الموسوعة العربية الميسرة إن «نفرتيتي» واجهت مأساة مروعة بعد وفاة زوجها الملك «أخناتون»، فاستنجدت بواحد من أعداء زوجها الراحل، فأرسل إليها بواحد من أبنائه ليتزوجها ويشاركها في العرش، لكن الرواية لم تكتمل، فهناك من كمن له في طريقه إلى «نفرتيتي»، وقام باغتياله، وتظل منطقة تل العمارنة حتى الآن تحكي حكاياها عن هذه الملكة «نفرتيتي»، والتي لها ـ بين كنوز متحف برلين في ألمانيا ـ تمثال نصفي رائع مشهور، وآخر في متحف القاهرة، وقريتنا ـ ديروط الشريف ـ تنظر بنصف عين إلى تل العمارنة ـ عاصمة «نفرتيتي» و«أخناتون» ـ حيث لا تزيد المسافة بيننا على عشرين كيلومترًا، لكنها ـ هذه

العاصمة القديمة ـ دخلت التاريخ المبكر، وهو ما تحاول قريتنا أن تفعله الآن.

ويحظى العصفور في أيام الطيش والنزق ـ أي قبل أن تهيمن عليه عصفورة ذات بهاء وذكاء ـ بلقب النفرور، لاحظ القياس الصوتي والإيقاعي بين العصفور والنفرور، إنه الفعلول بوزنه اللغوي الجميل الذي جاء على تكويناته: زغلول ـ خفيف الروح ـ والطفل ـ وفرخ الحمام ـ أيضًا: ثم البهلول الجامع لصفات الخير والمرح والفكاهة (وقد تولد منه البهلوان المعروف) والشملول: غصن الشجرة المتشعب بالأوراق النضرة، والذي في السياق خارج المعاجم، فإن الشملول هو ذلك الذي يمتلك اتساعًا مفتعلًا ونشطًا في المعرفة العامة، والذي كثيرًا ما تردد ـ أي الشملول ـ في أفلام نجيب الريحاني وبشارة واكيم. عليك أن تتذكر نفرورًا آخر: إنه الزرزور، وحتى لا نعود إلى النفور والتنافر، فتدخل علينا المخاصمة، فإن المنافرة ـ في واحد من معانيها ـ تعني المفاخرة وإعلان المجد الشخصي، ثم هناك عندنا في الأرياف ـ خارج المدن ـ تعني المنافرة اتجاهًا لأن يطلق الزوج أو الزوجة لفظًا غير مريح على طفلهما، أي يلقبونه لقبًا مكروهًا تنفيرًا للجن والعفاريت أو عين الحسود عنه، مثل: شحاتة وهي تعني التسول وطلب المعونة كما هو معروف. وتوازيها في المقصد دون المعنى: الحرامي: أي اللص، والغلبان: أي المحتاج الذي يعاني الغلب، وما إلى ذلك من ألفاظ التنافر التي تدعونا أن نحمد الله أن منحنا

القدرة على الإدراك حينما ورد في سورة الإسراء: «وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا »، ليصبح للنفير تأثير نفسي يمنحنا بعض العزاء والارتياح.

كلمات لها معنى

كلانا يعرف ويتباهى بالمعرفة، ويناجز الآخرين بها، وكلانا يجهل أيضًا.

*

حتى الغيوم والبرق والرعد ووابل المطر: تظل خارج الأفئدة العامرة الصافية غير قادرة على اختراقها.

*

أي عدد مذهل من أحفادي، الذين دهموا حجرتي صباح احتفال آبائهم وأمهاتهم بيوم ميلادي، فصرخت في هؤلاء الورثة الذين يحبو نصفهم على الأرض: لماذا تفعلون بي ذلك بعد أن توقفت عن الإنجاب يا ذوي القلوب القاسية؟

*

حينما تدق بيدك دقات ناعمة على باب صديق قديم لم تره منذ سنوات طويلة، فيفتح لك الباب ويمعن فيك بعينيه، ويبربش بعض الثواني، ثم يفتح ذراعيه، ويعود للإمعان فيك مرة أخرى، لحظات نادرة بالغة التواصل الإنساني.

*

وقفت الزوجة أمام القاضي تشرح ما تعانيه من زوجها، نظر إليها القاضي في ملل آمرًا أن تختصر، فاستدارت إلى الخلف وخرجت من المحكمة دون أن تسمع أي أمر أو رجاء بعودتها.

*

عندما تتلألأ الجواهر لتصبح لؤلؤًا، تبدأ الأنامل سابحة سعيًا لتلمسها.

للأخطار.. جمالها أيضًا

ظللت عدة سنوات أكتب باب «جبر الخاطر» في واحدة من صحفنا، معتمدًا على إحساس بأن أي كاتب ـ والمبدع أدبًا بالذات: في حاجة إلى من يجبر بخاطره، لا سيما هؤلاء الذين لا يملكون القدرات المادية أو الوظائفية ـ أي تلك التي تعتمد على مناصبهم الخطيرة ذات التأثير في الاهتمام به، وبإبداعاته، ولم يطرأ في بالي أن الخاطر المطلوب جبره يتعاوم مع الخطر في بحور اللغة، بل قد يتعالى على الخطر ويسحبني إلى أجواء التخاطر. تلك الأجواء التي مرت بي ـ وبك أيضًا، حينما ـ في إحدى المرات ـ طاف في بالي عبد الظاهر الذي كان يعمل في مشروع السد العالي جنوب أسوان، في القطاع ذاته، الذي كنت أعمل به، عملي كان إداريًّا، وعمله كان مع العمال وراء آلات تحريك الرمال، لم نكن صديقين بالمعنى العميق، ثم لم تلبث الأمور أن تغيرت وتفرقنا في مجالات أعمال متناثرة في المواقع المصرية، ولم يطف في بالي هذا الرجل أبِدًا طوال عدة سنوات، ثم لم يلبث أن طاف في ذهني ذات صباح،

في القاهرة، كنت أتجول هائمًا وخاضعًا لهذا النوع من المتعة، التي لا نحب أن نتحدث عنها ـ في منطقة السيدة زينب ثم الموسكي، ويسارًا إلى ميدان العتبة، وظل عبد الظاهر يتطاير ويعود فيحط على أغصان عقلي، ثم توقف عن التحليق لأقع في حالة اندهاش لا تفسير لها، فقد رأيت عبد الظاهر قادمًا من بعيد متوجهًا ـ في ابتسامة سمراء شديدة العذوبة ـ نحوي، وفاتحًا ذراعيه أيضًا.

ومع أن هذه الحروف الثلاثة: الخاء والطاء والراء ـ تصنع مصدرًا لكل ما هو مقلق أو مرعب: الخطر، فإن لغتنا العربية تميل إلى معالجة الخطورة بالمخطرة، انظر إلى صديقك الذي ينجح في امتحان، أو ينتصر في مباراة حينما يخطر في مشيته، أي يتبختر، وهو الفعل الذي يستخدم في الأسلوب المدرسي دون الكلام العادي، حتى يصل بنا الأمر ـ عندما يرتفع قدر أحدنا ويعظم، أن يصبح خطيرًا، أي ذا شأن مؤثر مع استبعاد مؤقت لمعنى الخطورة النابعة من الأفعال الشرسة أو الشريرة. وربما يكون هذا الخطير يمتلك قدرة استشفافية، ليرى ما لا يراه الآخرون أو يدركونه دون استخدام العين أو الحواس الأخرى، إنه أمر نادر لكنه معروف ولم يستطع العلم الحديث أن يفسره، الله هو الأعلم الأعلى دائمًا، مع أهمية أن نعرف أن التخاطر مجرد جزئية بسيطة من الاستشفاف الإنساني الخطير.

وقد استدرجتني خطورة الخطر والمخاطرة والتخاطر إلى عمتي واسمها خطيرة ـ بنت عم والدي، ومع أننا نطلق كثيرًا من الأسماء والألقاب ذات المعاني الشائكة أو المازحة، فإن خطيرة كانت تكمن في المعاجم اللغوية دون إدراك منا، أنها ـ في صيغة الخطَّار المذكر:

الأسد، أو السبع، الخطار أيضًا العطار تاجر العطور ذات الروائح الجميلة وبالذات المسك، إلا أني فوجئت أكثر بأن الرمح الفاتك بالأجساد يحتل معنى الخطار أيضًا، وكذلك المقلاع الذي مارسنا اللعب به في بدايات حياتنا صيدًا للعصافير أو إسقاطًا لثمار النخيل والأشجار من بلح وجميز. فإذا ما تقلص هذا الخطار وعاد ثلاثيًّا خطَّر: يصبح العارض من السحب أو الغيوم الناتجة من الاهتزاز، هل المقصود بذلك ما يتلبد به الجو نتيجة للزلازل أو القنابل ـ والتي أخطرها في تاريخ البشرية حتى الآن: تلك التي ألقيت على هيروشيما ونجازاكي إنهاء للحرب العالمية الثانية؟ أو ما حدث من أشهر في جنوب شرق آسيا؟

عذرًا، علينا أن نعود إلى الخطر البسيط، بعيدًا عن الخطر المقلق المؤلم، أقصد: المخترة المشار إليها من قبل، ولكي نتمختر في بعض السطور راودتني تلك المحفة ذات الأذرع من الأمام والخلف، على ظهر دابتين (في قريتنا كنا نستخدم الحمير لقلة الخيول)، لترقص فوقها ـ في حالة استعراضية من طقوس حفلات الزواج ـ راقصة جميلة، وخلفها تجلس العروس متألقة في طريقها إلى بيت عريسها، وكنا نطلق عليها: التختروان، وفوجئت بأن هذا معنى التختروان المباشر: في اللغة الفارسية، وكان يركبها ذوو الشأن من الرجال والنساء ـ في حال استعراض لذوي الخطورة، في مناسبات الفرح أو الزهو أو الانتصار، وعندما تضغط على التختروان بالصوت والإحساس المعنوي فسوف يقودنا إلى المصدر العربي، حتى إن الخِطر ـ رجاء كسر الطاء ـ تعني مباشرة: المتبختر، وتعني عندي الآن

تواصلها مع التختروان، مع محاولة عدم الانزلاق مع التختروان إلى التخت، والتي تعني ـ في معناها الأول ـ العرش الخاص بالملوك، ثم تعني ـ بعد ذلك السرير، أو أريكة الجلوس، ثم لا يلبث التخت أن يصبح اصطلاحًا في الموسيقى العربية، إنه الجماعة عازفة الموسيقى المصاحبة للقائم بالغناء مع المنشدين والمساعدين. وكانت هذه الجماعة تتألف من رئيس (هو المايسترو الآن ـ أي قائد الأوركسترا) وثلاثة ممن يضربون على الآلات الوترية: القانون والعود والكمان، ومن ضابط ينقر بالدف لضبط الإيقاع، ثم يضاف إليهم صاحب ناي أو مزمار، وعدد آخر ـ إلى جانب هؤلاء ـ للترديد الصوتي لبعض أجزاء الدور ـ أي الكورس.

ومع أن التخت المشار إليه جاء نتيجة الولع بالتختروان، ونابعًا من المعاني والإشارات المتوالية، المتولدة من الخطر والخطورة، فإن هذا التوليد سوف يقودنا إلى متاهات بعيدة، تكمن فيها ـ كمثال ـ التختة بصفتها سبورة تعليمنا المبكر أو المقعد الخشبي الذي كنا نجلس عليه، علينا أن نغلق باب المخاطرة في التوليد اللغوي الآن.

كلمات لها معنى

لا يفوق ابتسامة الأنثى جمالًا، سوى تلك البداية المبكرة للابتسامة التي تتهادى على شفتي طفلة وليدة عندما تمعن فيك أولًا، مع أهمية أن أسنانها لم تظهر بعد.

*

كل الجبال ذات الصخور تحترم جلستك على خشونة وشراسة تكويناتها حينما تمعن في غروب الشمس، أو ترنو إلى بدايات شروقها.

*

لقد انقلبت المعاني، حيث أصبح الهجر يستهلك سعرات حرارية أقل بكثير من التواصل العصري.

*

إياك أن تمعن كثيرًا في التفكير، العقل قابل للاعتصار، لا سيما أن خلايا المخ لا عضلات فيها.

البهجة

البهجة سرور داخلي يمور بسرعة ليظهر على وجوه العباد فيصبح فرحًا، فإذا ظلت البهجة محبوسة في الكيان فإنما هي نشوة تتقلب في النسيم الوجداني مثل دجاجة في فرن، وقد عبث الأتراك في البهجة العربية ففكوا رباط التاء الملحقة لتصبح بهجت، فتوقفت عند حدود أسماء الأعلام، مثل بهجت الرسام وبهجت التلهوني السياسي وأحمد بهجت الكاتب، ولم يعد للبهجة المفتوحة التاء أي معامل لغوي عربي بعد ذلك، ثم تقلصت البهجة العربية مربوطة التاء ولم يعد لها أثر في الشعر الحديث المفكوك القافية، وكل أشعار البياتي وعفيفي مطر والسياب وبلند الحيدري ومحمد سليمان تخلو من البهجة مكتفية بإثارتها في وجدان المتلقي. أما أصحاب الشعر العمودي فإن بهجتهم تظل مكتوبة في القصائد دون توفر النية أو القصد (لحاجتهم إلى اللفظ أكثر من المعنى). ولعل ذلك يرجع إلى أن البهجة إحساس مراوغ شديد المرونة ليس من السهل الإمساك به والاحتفاظ طويلًا بحرارته في الشعر، والباقي من البهجة يتناثر صريعًا على موائد المباحثات

الدولية، وفي مخيمات اللاجئين، وتحت ظلال الشعارات الجوفاء وفي مخيلة اليتامى والأرامل، وطي القصص المفتعلة، وترى البهجة قشورًا خاوية في مسلسلات التلفزيون ومسارح القهقهات والضحك من أجل الضحك، إذ تظل مجرد ألوان وروائح صناعية لإكساب التفاهة بالمرح، والكلمات الخرقاء بالشجاعة. وكان أكثر المؤلفين إدراكًا لهذه الحقيقة السارة هو بهجت قمر ـ طيب الله ثراه ـ وبهيج إسماعيل ـ أطال الله في عمره ـ أما غيرهما من مؤلفي البهجة فقد خلت أسماؤهم منها ولم تتيسر لنا فرصة سعيدة كي نشاهد مباهج مؤلفاتهم.

الجفاء

الجفاء كلمة انتشرت بوفرة في قصائد وأغاني العصر الرامي، وهو العصر الذي تسيد فيه مزاج شاعر الشباب أحمد رامي، أشهر من كتب أغاني أم كلثوم، ونادرًا ما تُستخدم هذه الكلمة الآن سواء على ألسنة الرعاع أو قصائد الشعراء، وقاموسيًّا: الجفاء يعني: البعد، والغلظة، يقال جفا: أي غلظ خلقه، أو ساء خلقه، لكن الاستخدام الغنائي توقف عند حدود معنى «البعد»، أي بعد الحبيب عن الحبيب مما يسبب السهد والقلق والسهر (ثم الإدمان والجريمة) وعندما كتب شاعر الجفاء أحمد رامي: «صعبان عليَّ جفاك» وصدحت بها المغنية الشهيرة انهار المعنى وابتعد عن بعد الحبيب وأصبح نكتة شائعة لها مغزاها حيث الجيم تنطق في بقاع كثيرة من الوطن العربي قافًا، فأصبحت الجملة الشعرية: صعبان عليَّ قفاك، يقولها أصحاب الذوق السقيم سخرية من أصدقائهم. أما الجفاء الحقيقي فكان يأتي على لسان الأمهات حينما يشكون من خشونة وقسوة الأبناء، الابن الجافي، وهو ما يظهر الابن في غير طبيعة الابن، ولذا فقد أطلق

الرسامون على نوع من الرسم: الجافي، وهو أن يظهر الرسم على غير طبيعته كأن يكون النموذج المرسوم لينًا فيظهر في الرسم صلبًا، أو من نسيج فيظهر كأنه من الخشب أو القش، أو من الفاكهة فيظهر كأنه من معدن أو زجاج، أما إذا ضممت جيم الجفاء ليصبح جُفاء فهو ما يقذفه السيل أثناء انهماره من زبد وغثاء، وهو ما يطلق «جفاء» على ما يخرج من رأس القدر الفائر من زبد وغثاء، ومن رأس بعض الكُتاب أيضًا، فإذا عدت إلى عصر الغناء الرامي وأصاب الجفاء ضمة في الجيم، فستكون كارثة أن تغني صعبان عليَّ جفاك، صافيني مرة ـ وجافيني مرة ـ فإن الأمر هنا يستحق عرض المَغنى والمعنى على طبيب تحاليل.

البؤس

البؤس عالم واسع ذاخر بالمتسولين يدًا أو عقلًا، فقد كان البؤس فقرًا في الحاجة ثم لم يلبث أن اتسع حتى شمل فقراء التفكير دون نظر لمناصبهم أو مواقعهم، وأرقى حالات البؤس: المراهنة الدائمة على الحصان الخاسر، وأصدق مثال: التصميم على مناصرة سياد بري حاكم الصومال الذي انتهى أمره بغض النظر عن عدم تحديد مكان شخصه اليوم الثلاثاء الثامن من يناير (ساعة كتابة هذا البؤس) والشاعر البائس: عبد الحميد الديب، وكان البأس ـ لا البؤس ـ صفة للشعراء الصعاليك في الزمان القديم، والبؤس ـ لا البأس ـ صفة لكثير من الأدباء في العصر الحديث، وكان مصطفى لطفي المنفلوطي يبكي قراءه عندما يكتب عن البؤس، أما حسن الإمام فقد أصاب شهرته من وراء تصوير البؤس الميلودرامي في السينما، والبؤس التكتيكي أن يضع القائد المهاجم خطة الانسحاب في جيبه، وكان ذلك ممنوعًا لحد التحريم عند العسكريين الرومانيين، وقد أصبح قاعدة أساسية في العسكرية الحديثة، أما البؤس الاستراتيجي فهو أن يتحسس قائد

الدولة موضع قدميه دون النظر إلى العواصف القادمة في الأفق البعيد، والحمار البائس الذي يفقد الطريق إلى بيت أصحابه استثناء من صفات الحمير، والغزالة البائسة هي التي يدفعها الذعر إلى الاندفاع إلى صدر الصياد كي تحتمي به. والأدب البائس نوعان: أدب يصور البؤس كما في بؤساء حافظ إبراهيم المترجمة عن «فيكتور هوجو»، وأدب معتم سقيم لا أثر للإشعاع اللغوي في صياغته نثرًا أو شعرًا كما في عشرات الأعمال المنشورة في العام البائس ١٩٩٠، والكلام البائس هو الكلام الذي يفتقد منطق الدافع أو المناسبة ويصف المصريون صاحبه بصفة «المطموس» أي الأحمق فاقد الرؤية، ولا يبعد معظم الكلام المنشور في الصحف عن هذا المعنى كثيرًا، وعصر البؤس من العصور التاريخية التالية للعصر الحجري والعصر البرونزي الأول. وأكثر الشخصيات التراثية بؤسًا: أيوب ذو الجلد المتقرح الذي حملته زوجته ـ رحمة ـ في الأصقاع بحثًا عن علاج أو نهاية، والإمام أحمد بن يحيى سيف الإسلام الذي جعل من اليمن السعيد وطنًا بائسًا، وقيس الذي أحب ليلى دون أي حركة إيجابية إلا اللوعة والعذاب حتى تزوجت غيره فظل يدور بائسًا خلفها ليترك لنا أكثر قصص الغرام بؤسًا، ثم هناك الجماعات البائسة أيضًا: أهل أبو زيد الهلالي الذين خرجوا من أواسط الجزيرة العربية بسبب الجوع والجفاف ونزلوا وسط الصعيد ليصبحوا أبطالًا في طريقهم إلى غزو تونس الخضراء، وكذلك مجموعة المماليك الذين استدرجهم عدوهم محمد علي إلى الممر الشهير بالقلعة ليتخلص منهم، وأكثر من الجميع بؤسًا تلك الجماعات المتقافزة على ساحة الوطن بحثًا عن دور أو ثروة أو جاه، والوطن البائس هو: أي وطن

لا يعرف الفرق بين ما يريد وما يستطيع. والرئيس البائس نيكسون الأمريكي، والزعيم البائس: العظيم غاندي، والشهر البائس: شهر طوبة، والطائر البائس: أبو قردان، والحزب البائس: الحزب الوطني، والكلب البائس: ذاك الذي ظل ثلاثمائة عام نائمًا في كهف أصحابه، وعندما استيقظوا ذهبوا بعيدًا ونسوه تمامًا، والشجر البائس: اللبلاب، والفول حينما يفترسه هالوك الانفتاح، والمذيعة البائسة ذات الضفيرة الواحدة ـ وكأنها خارجة من الحمام ـ والكلام يشر من فمها دون تفريق بين الثاء والسين والشين، ومن بؤس الزمن علينا أنها اتجهت إلى «التمشيل»، والمدينة البائسة سدوم، وأختها عموريا، مجال عمل النبي لوط، والبحر البائس هو البحر الميت، وأكثر الذئاب بؤسًا ما انقطعت به السبل عن القطيع أو الحزب، والقمر البائس هو الذي أكلته أيام الشهر فظهر في وقت لم يعد يراه أحد، والمادة شديدة البؤس هي التي تنص في الدستور على أن يظل الرئيس رئيسًا مدى الحياة. وأكثر الكُتَّاب بؤسًا الناقد فاقد الرؤية الذي يقع على الغلاف دون قدرة على النفاذ للباطن، وأشد الأمور بؤسًا أن تقول الحق فلا يسمعك أحد حتى أصحاب الحق، وأظرف البؤساء: أشعب أمير الطفيليين، وبعض حكام كرة القدم، ومحللو الأخبار، ورؤساء تحرير المجلات الأدبية، وعمال المجاري، ومشروع معونة الشتاء، وصناع الشِّعر العمودي، وباعة باغات ياقات القمصان، وأدباء الأقاليم.

وبعد كل ذلك، يظل البؤس ملكًا على الأرض، تأمره ملائكة السماء وتناجيه حور الجنة، ثم يقع ـ في النهاية ـ صريعًا للبلاجرا ـ أو الأنيميا ـ لعلك تفهم.

أيمن

أيمن تكوين ساحر من تلك التكوينات المصرية التي تظهر بين الحين والحين فتقض مضاجعنا الدافئة، تحس كأنه قادم من جوف هويس أو بطن قناطر أو بلاطة فرن والع، في نحافته بؤس الوطن وحدة شوك حراز السنط ودقة إبرة عجوز أثناء لضم خيطها، يكون ـ أيمن ـ كما يكون المستحيل، مثل اختراق نبات العاقول للقدم المؤذية، أو التماس الشفاه العطشى لقطرة الندى، يذوب في الحصى والأحجار ودعاء المساجد وتراتيل الكنائس، يتبخر في الأنوف ويدخل خيشوم الناس فيعطسون طردًا لرائحة المستنقعات والاتفاقيات والهامبورجر وأطفال الأنابيب والبيوت السرية والشركات الاستثمارية والقنابل البلاستيكية. لو نظرت إليه من جانب لكان سليمان خاطر، ومن جانب آخر: سليمان الحلبي، وفي المواجهة: سيد نصير، أما إذا رأيته من بعد ـ من خلال الأسلاك الشائكة ـ لكدت تعتقد أن فيه الكثير ـ مع نحافته ـ من جمال عبد الناصر، فإذا اقتربت منه لأصبح دقيقًا ناعمًا مدببًا كرصاصة، أو كدعوة الأم الصالحة تخترق الحجب الغامضة،

أو الإيقاع المتدفق في قولة ابن عروس: لا بد من يوم ترد فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل ظالم، والشطرات المتناثرة من أقاويل بيرم وجاهين وحداد والأبنودي أحيانًا.

وأيمن له رأس في ضخامة رأس الحكمة وعناد الحجر الفلسطيني، وذراعان في انبساط دلتا النيل، وعينان في حدة عيون الصقر، وجدية في جهامة الصحراء الشرقية، وجوانح لها اخضرار الواحات في الصحراء الغربية، وهامة عالية تذكرك بالكبرياء العربية القديمة، وجسد مطحون بالإنكلستوما والقمح الكندي والزبد الهولندي واللحم الاسترالي، وله يدان: واحدة تصلح لتثبيت البندقية والثانية لإطلاق زنادها، هذا الزناد الذي فجر الرصاص تحت وسائدنا الناعمة وبرامج تلفزيوننا الخائرة ومقالاتنا الصحفية البلهاء، والتي تمهد من الآن كي تغتال أيمن: بالجنون أو السم أو الحزن، أو الصمت المفزع المشلول، بنفس الطريقة الناجحة التي اغتلنا بها مثيله من قبل، ومثيله من بعد، ليتسنى لنا أن ننام على الجانب الأيمن.

ولأن أيمن تكوين ساحر فإنه يستعصي على القصيدة ويخرج على القصة ولا يخضع للإعراب ولا يندرج في البحور ولا يقيم تحت القوافي، ولأنه شفاف فلن تمسك به في قاعة الأوبرا ولا تحت قبة مجلس الشعب، إنما في أقصى الحالات تفاؤلًا قد تجده مشدودًا مثل وتر الكمان، أو هفهافًا مثل فستان أبيض لعروس يتيمة، أو غائصًا في كيان أمة تشكو اللوعة والوحدة، أو هائمًا في حقول المستقبل، أو نائمًا تحت علامة استفهام ضخمة تنزف دمًا وأسئلة وبؤسًا لتلتف في ثقة ثعبانية حول رقبة الوطن.

الرقبة

الرقبة: وصلة بين الجسد والرأس، مرنة لدنة معقدة، تحتوي على كمية كبيرة من الأعصاب والأوتار والأسلاك والمواسير المجلفنة والعضلات والأنابيب الدقيقة المبطنة، وأطول الرقاب في الجمل والزرافة والولد الناجح والديك الرومي والبجعة وراقصات الباليه، وأقصرها في الضفادع والجزارين والعسس والضباع وبعض السياسيين والمرابين. وتخلو من الرقبة الأحياء البحرية كالأسماك والحيتان والدرافيل، وأجمل الرقاب في الخيل ولو كان نالها جر العربات، وفي بعض النساء حتى لو أصبحن زوجات، وفي آلات الكمان والعود والتشيلو ولو غطت عليها ضوضاء الألحان العصرية.

والرقبة نقطة الضعف في العبيد والأرانب والزهور والدواجن، وفي الزوج النائم، وهي هدف أساسي للأصابع والعيون والمشغولات الذهبية، والسيوف وحبال المشانق أيضًا (مع أن العصر الحديث قدم بدائل ذات مساحات مريحة ـ كالصدر ـ يمكن

إطلاق الرصاص عليها بسهولة) والعبد ـ أو المملوك ـ هو الوحيد الذي استحوذ على لفظ الرقبة لتدل عليه دون إضافة، ومنه جاء عتق الرقبة أو تحرير الرقبة.

وأشهر الرقاب في التاريخ: رقبة نفرتيتي وتجدها على ورقة الخمسة قروش المصرية أو في برلين الألمانية، ورقبة «ماري أنطوانيت» النمساوية زوجة لويس السادس عشر والتي أودت بها التعقيدات الثورية إلى حد المقصلة. ورقبة جعفر البرمكي والذي ضيعته تسعة أسباب عاشرها ما زعم حول اتصاله بالعباسة أخت هارون الرشيد، ورقبة ألمظ أشهر المغنيات المصريات في القرن الماضي وزوجة المغني الأشهر عبده الحامولي، وكانت رقبة ألمظ وراء التعبير الخاص للرقبة المدملجة، أي الرقبة الجميلة الطويلة ذات الاكتناز، وقد أهمل هذا التعبير الآن وسكن بطون القواميس لعدم استعماله ـ أي لعدم وجود رقاب تستحق وصف المدملجة الآن.

والحنجرة من أهم مشاكل الرقبة، فكثيرًا ما تتضخم فتأخذ تضاريس الرقبة لحسابها، وهو ما نلاحظه في رقاب المطربات الشعبيات، وملاحظي عمال التراب وندابات الجنائز، ومحترفي قيادة المظاهرات، والجمل الأول قائد القوافل الصحراوية، ونافخي الأبواق، ومساعدي قباطنة البواخر، والمصابين ـ أعوذ بالله ـ بمرض عضال، وهي هنا تختلف عن اللغد ويمكن أن تتبين الفرق بينهما إذا ما تذكرت ديجول، وتشرشل ثم هيتشكوك ـ وهو آخر أصحاب الألغاد، ولكن العامة تجمع اللغد على لغود.

ومع أن الرقبة وصلة بين الجسد والرأس كما جاء في المعجم

الوسيط، إلا إن هذا التعريف ليس جامعًا مانعًا شاملًا دقيقًا، فهناك رقاب لا تربط الرأس بالجسد، مثل رقبة الحذاء، ورقبة القلة، كما أن هناك ما له رأس وجسد (متن) دون رقبة، رأس الموضوع، رأس الدولة، ورأس الحكمة (بلد في مصر) ورأس البلاء، وكلها ـ كما نرى ـ دون رقبة، وبعضها يجمع الرأس والصدر والمتن (الجسم) والعجز والذيل في إهاب واحد، كالقصيدة العربية الموروثة ـ ودون رقبة أيضًا، أما القصيدة الحديثة فتتمدد تفاصيلها كالأميبيا والسرطان البحري (الأخطبوط أفضل) دون أي تضاريس باستثناء قصائد صلاح عبد الصبور لأني أحبه.

والرقبة الإنسانية محط نظر الخبراء والمحنكين، يستنتجون من ثناياها عمر صاحبها.

ولذا فهي تخضع لعملية الشد في جراحة التجميل ومن سحجاتها العنف ومن نتوءاتها الدقيقة الحمل أو الحبل ـ والنتوءات دقائق لحمية تظهر في رقبة الأنثى بشكل مؤقت في حالات الحمل، وقد تكون على شكل دوائر لونية غير منتظمة ـ كما في إناث البشر والسباع والجمال والقرود، فإذا كان ذلك في غير الإناث فهو إشارة للأنيميا أو اضطراب الغدد (البهاق) أو التفكير الشائك. ولعلها ـ هذه الرقبة الإنسانية ـ هي الوحيدة بين رقاب المخلوقات التي تحمل سرًّا لا تبوح به إلا لخبراء الطب الشرعي، ففي نهايتها من الخلف يكمن العظم اللامي: قطعة صغيرة من العظم اللدن، إذا اكتشفوا كسرها فهو الدليل القاطع على تعرض المرحوم صاحب الرقبة لمداهمة عنيفة في شكل أصابع أو حبل أو مقال صحفي ساذج أو مسلسل تلفزيوني ركيك.

والرقبة ـ بعد ذلك ـ رمز معنوي خطير، فإذا قصرت رقبتنا ونحفت فهو الإحساس بالخزي والحرج (والعار أيضًا) لأن رقبتنا أصبحت كالسمسمة ـ وهي من أدق وأصغر أنواع الحبوب ـ فإذا استطالت رقبتنا فهذا إحساس بالفخر والشرف ومبرر لإنشاء القصائد التي لا رقبة لها ولا عنق.

الصدر [مرة أخرى]

لكل شيء صدر: الباخرة والدجاجة والطائرة والبيت والوزارة والديك الرومي والجريدة والمجلة، وأدفأ الصدور صدر الأم، وأكثرها جفافًا صدر الواقف بباب الوزير، وأجملها صدرًا «جين راسل» (زمان). أما الآن فلم أعد قادرًا على الإمعان في الصدور، وأوسع الصدور صدر الجمل ـ يمكنه أن يتحمل عشرتك الخشنة عشرين عامًا ثم يفتك بك بعد ذلك، وأضيقها صدرًا الموظف الحكومي المعاصر، وأحسنها صدرًا الديك الرومي بالنسبة للبعض، أما سواد القراء فصدر الدجاجة يقوم بالمهمة. أما الصدر الأعظم فقد كان لقب رئيس وزراء الباب العالي العثماني، يليه في العظمة: صدر الضفدع لأنه يحتل نسبة عالية من حجم جسده الفارغ، وشيء في صدري رواية لإحسان عبد القدوس ـ ومن أهم أعماله أيضًا.

وذات الصدر لغة في المرض الصدري كان يستخدمها مترجمو غادة الكاميليا، أما ذات الصدر فهي ما يعتمل في الصدر ولا يعلمه إلا اللِه، وصدر الكتاب مقدمته، وصدر الوطن عاصمته، وصدر

القوانين الدستور، وصدر البؤس الجهل، وصدر الرجال كبيرهم أما حاكمهم فهو الرأس، وكانت المبارزة تبدأ سيفًا بسيف وتنتهي صدرًا بصدر. وصدر الثعبان: الدرقة، أي المنطقة التي تنتفخ فحيحًا عند المواجهة. والصديري قطعة من الملابس ترتدى بألوان متعددة لتظهر وسامة الرجال، ومنها ما ترتديه النساء فيصبحن أكثر جاذبية (ولا سيما إذا ما تم الارتداء على اللحم)، والصديري كثير الأنواع، منها ما كان حديديًّا يلبسه المحاربون قديمًا اتقاء السهام، أو ما هو من نوع خاص يرتديه ذوو الشأن حديثًا اتقاء الرصاص، وصدر البيت مدخله، وصدر القصيدة الأبيات الأولى فيها، وصدر الدين خان زعيم طائفة الإسماعيلية ويعمل في وظيفة ذات شأن بالأمم المتحدة.

والصدر هو القلب أو الفؤاد: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»، وصدر الببغاء هو أغلى طبق طعام في العالم ـ جاء وصفه من عشرين عامًا في واحد من مقالات محمد حسنين هيكل ولم أنسه أبدًا، والصادر: المتوجه خارج الحدود، فإذا تم الاستحواذ عليه فهو المصادرة، وأخطر من الاثنين المصادر المطلعة: أي تلك التي نسند إليها تصريحًا غليظًا لا نحب أن يسألنا أحد عن معناه أو مصدره. أما المصادر الفعلية فهي الصياغة اللغوية التي تنام وراء الأفعال المعهودة، والصدارة لا أعرف معناها لكني قرأت عن واحد مهم أن له الصدارة في الأمر (أو الحفل أو المجلس أو الرقص)، أما التصدير فنوعان: الأول ما يقوم به أصحاب المال والتجارة، والثاني ـ في التصدير ـ هو المواقف الهايفة أو الخايبة ـ يقولون: قال أحدهم لأبيه: علمني الهيافة يا والدي، فقال له أبوه: تعال في الفاضية واتصدر. وهو ما نراه

أحيانًا في بيانات الاحتجاج السياسي الموقعة تحت أضواء مختلف المشارب، ومصادر المياه: البحار والمحيطات والأنهار والآبار والشعر الحديث، ولذا تراه مترجرجًا فاقد الثبات، ولا أحسب أنه من مصادر التلوث، ومصادر التمويل اثنان: ولي الأمر في العشرين عامًا الأولى والحكومة في الثمانين عامًا التالية. والمصادر اللغوية كثيرة منها المصدر الميمي وهو منتشر بين أسماء المدللين، والمصدر الصناعي وتجده في أوروبا واليابان والولايات المتحدة ولا داعي لذكر الاتحاد السوفيتي الآن (أو المفكك السوفيتي)، والمصدر الاشتقاقي وتجده في العراق، والمصدر رفيع المستوى ولا يمكن أن أراه أنا أو أنت لضعف في النظر. ومصدر القلق وتجده في إسرائيل، ومصدر الدخان أو الطباق أو التمباك أو المعسل وهو متوفر في تركيا وأمريكا والدكان القائم أسفل بيتكم، وكلها تنبع من مادة «صدر» التي تخفي داخلها ما لا يصح أن يقال في كل الأحيان.

القلب [مرة أخرى]

ظللت الأحقاب الطويلة ـ من عمري المديد ـ رعاكم الله ـ أحظى بلقب «قلب أمي»، ولا سيما في لحظات عنفوان استرحامها الساخن، ضاربة صدرها بكف يدها، كلما حاق بي أذى السقوط بين الطوب والحصى والأعشاب وجذوع النخيل، لتصرخ: يا قلبي، وهو تعبير يعلو ـ حتى على أفخم الألقاب، استطعنا استغلال ما يثمره من تدليل، بالذات نحن طائفة الذكور الذين وفدوا إلى الدنيا بعد عدد من البنات، هذا التدليل الذي أود أن يقوم واحد من الباحثين في علم الاجتماع بدراسة نتائجه المعهودة ـ والمنتشرة ـ في بلادنا، ليصل إلى تحديد ارتفاع نسبة الذين أفلحوا ـ من أمثالنا ـ في الحياة بعد ذلك، ولم أكن أدرك أن «ريتشارد الأول» ملك انجلترا ـ قبلنا بثمانية قرون ـ حظي بلقب قلب الأسد، إنه رمز للشجاعة أو القدرة على الهجوم المباغت، فيما وصفه المؤرخون القريبون منه، دون تحديد لموقع مولده بالنسبة لأخواته البنات.

إلا إن القلب الأعظم ظل هذا العضو الكامن داخل القفص

الصدري في الإنسان ـ مع إضافة عدد كبير من الحيوانات أيضًا ليتدفق الدم النقي من بطيناته وأذيناته ـ بعد تحليلات معملية دقيقة ـ ليصب حرارته ذات الشجن في العلاقات وقصائد الشعر والنثر والإحساس بالوجود، حتى إن المخ ـ أقصد العقل ـ الكامن في أعلى الجمجمة ـ يضطرب ويتراجع تاركًا أمورًا ـ كثيرة ومعقدة ـ تحت سطوة الوجدان المتفاعل ملتهبًا خارج المنطق، ليظهر هذا الإبداع في الفن والأدب والمناجزات الرياضية، واختراق المناطق الغامضة في المغامرات والرحلات، ليستيقظ العقل بين وقت وآخر ليمارس الإمعان والتحليل وترتيب حيثيات المقدمات والأسباب والنتائج في المعامل وشؤون التربية والتعليم وصناعة الورق والقماش والتلفزيونات وكيمياء الدهانات والألوان، استقبالًا لما يجيش به القلب، هذا ـ القلب ـ الذي بدأ ـ في عصرنا الحديث ـ يضطرب تحت ضغوط الصواريخ والطوربيدات والدبابات والسموم والمداهمات، دون أن يعترف القلب أن معظم ما حاق به من أخطار وكوارث تولدت من الانقلابات التي جاءت حروف تكوينها من حمق القلب.. يا قلبي!

وقد استحوذت النجوم ـ في السماء ـ على لقب: قلب العقرب لواحد منها أحمر اللون ذي وميض سريع يرصده علماء الفلك بدقة أكثر منا، كما أن نباتًا معمرًا ـ أي ذا عمر طويل ـ موطنه اليابان حصل على لقب (قلب مريم)، نوع من نباتات الحدائق، زهوره قلبية الشكل، تتدلى في حنان قرمزي أحمر، له قدرة فائقة على جذب العيون نظرات، والأنوف شمًّا، رائحته زكية، لكني لا أعرف

لماذا أطلق عليه «قلب مريم» بالذات، أما القلب المقدس فهو ما أطلق على كنيسة ـ مسيحية بالطبع حتى لا تختلط مع لفظ الكنيست اليهودي ـ أقيمت في باريس فوق ربوة مونمارتر على الطراز البيزنطي بعد الحرب الفرنسية البروسية، ولها قبة ضخمة خلفها برج شامخ.

وقد صب القلب ـ في لغته ومشاعره ـ أنواعًا من القوالب، دعك الآن من قوالب الطين التي استأثرت بفن المباني في مباراة تاريخية بينها وبين الأحجار، كما أرجو ألا نقف طويلًا أمام القوالب التي تستخدم في عمليات صناعية متعددة، مثل صب المعادن وقطع الألواح وسحب الأسلاك وصناعة العملات المعدنية والميداليات والحلي. إنما الذي يهمني الآن ـ ومع الأسف لاستبعاد العملات النقدية وما يحل بي ـ وبك ـ نتيجة لذلك ـ هو القوالب الفنية في الموسيقى الشرقية بالتحديد، وتشمل الألحان العربية والفارسية والتركية والشامية، (والهندية مع اختلاف قوالبها)، حيث تتألق في مقامات راست وحجاز وسيكا ونهاوند وصبا، تمامًا كما قام الشعر العربي بالتعبير في قوالبه التي أطلق عليها علماء اللغة العربية، البحور، من الطويل والمديد والوافر والكامل إلى البسيط والرجز والمنسرح. على أي حال فإن هذه القوالب الشعرية الثابتة ـ والموروثة ـ حملت على أكتافها، وفي وجدانها ـ كل نظم الإبداع العربي الرئيسي، وتجارب الأفراد والجماعات والأمم، أكثر من أي فن آخر، أقصد ليس منفردًا عن الموسيقى والنثر والرسم والقص والحكايات، لكنه تحمل في تقلباته وأهوائه ومراوحته الدائمة للمشاعر، كل

ما نسعى إلى فهمه وإدراكه والوعي به في تاريخنا العربي، حتى لو جاء العصر الحديث بتياراته المناوئة والضاغطة علينا بمصطلحاته ذات القولبة العلمية والفنية الجارفة، أو الانقلابات العسكرية والسياسية أو المقالب الذكية الشريرة التي تبدو جميلة بعض الوقت في الحياة أو على شاشة التلفزيون، حتى إن الأجيال التي وفدت إلى الدنيا في الثلاثين عامًا الأخيرة، لم تجرب أنواعًا من المعرفة الخاصة، والتي في أجمل حالاتها: الوصول إلى قلب النخيل، هذه الأشجار الشامخة العالية في الوديان والصحراوات، حيث كنا نعالج الأرق بما في هذا القلب من «جُمَّار» ـ رجاء ضم الجيم وتشديد الميم كي تنطلق هذه الشرائح البيضاء ذات الطعم الخفي حلاوة ومضغًا. إنها متعة قصوى دون أي تقليب على النار، ودون أي تقلب في المذاق، ودون أن يترك في القلب أي قلاب: والقلاب داء يستقر في القلب ويؤذيه، مع مراعاة أن ذلك غير القلب، تلك الصفة التي تطلق على الكائن كثير التقلب، والذي لا يستقر على حال ـ إنها ليست صفة حيوية فقط، إنها سياسية أيضًا يتحمل الإنسان المساءلة أو المسؤولية عنها. حتى إن الفأس التي تقلب بها الأرض للزراعة فقدت لقب «المِقْلب» بكسر الميم وتسكين القاف، كي لا تقع في مأزق التقلبات القائمة سياسيًّا وجويًّا وسلوكيًّا وكادت تقع في قاع القَلِيب ـ بفتح القاف وكسر اللام ـ إنه البئر الضاغطة بعمقها المظلم على الذاكرة، والتي تدعونا الآن ألا نقوم بتقليب أمورنا اكتفاء بسلوان قصائد وأغاني وأفلام وحكايات الأمور القلبية، ذات الهمس الدافئ والذي ـ في رفق ورقة ـ يضيء القلب، ويتيح لنا استقبال الصباح.

كلمات لها معنى

إني أعتذر عن كل ما بدر مني، دون التنازل عن الفتك بك عما قد يبدو منك.

*

تصور أننا نواجه الآن كارثتين، الأولى سببها الجهل والأخرى، سببها العلم.

*

أجمل ما فيك قدرتك الفائقة على الابتعاد عن الوقوع في المشاكل، غير أن هذا الابتعاد تمارسه سيرًا بظهرك إلى الخلف، لتقع دون أي مشاكل.

*

عندما ظهرت أزرار الأجراس فوق الأبواب، فقدت كفوف الأيدي حرارة الاستئذان تمهيدًا للقاء.

*

شجاعة السباع تتقلص بسرعة غريبة أمام عقربة تتثنى في دلال رافعة ذنبها.

*

الليل يعسعس هادئًا رقيقًا في حواس المخلوقات، نادرًا ما يكتب الشاعر قصيدة في النهار.

*

بعد أن نجحت ـ خلال الجزء الماضي من العمر ـ في مساواة

التعامل بين أنجالي الذكور مع الإناث، بدأت أحاول إقناعهم بضرورة مساواتي معهم.

*

إذا أردت أن تتناول طعامك في هدوء جميل عذب المذاق، فعليك أن تتفادى المرور على مواقع مذابح البهائم، أو قراءة العصور الأخيرة في التاريخ.

القدم [مرة أخرى]

القدم هي نهاية الرجل عند فصيلة الثدييات العليا، وعلى رأسها الإنسان، ونهاية القوائم عند الفقاريات ذوات الأربع، وهي موضع الارتكاز والتفاؤل والرقص والركل والتراقص والحركة، والترصد أيضًا، فالقدم قد تشي بما يعتمل في الإنسان أكثر من الوجه واليد، وفي الحالات القصوى ـ القتل مثلًا ـ تجد الوجه جامدًا والأصبع يحرك الزناد في ثبات، أما القدم فتجدها تضطرب اضطراب الوتر، وأقدم قدم في التاريخ هي للغراب الذي نبش حفرة لجثمان هابيل بن آدم ليعلم الإنسان وسائل الدفن، «وقدم الخير» مصطلح شعبي لمن نأمل في دخوله بيتنا خيرًا، ولتأكيد ذلك ظهرت عادات صبغ الأيدي والأقدام بالحناء للعرائس قبل الدخلة (الفرح) بليلة واحدة، وقد تحددت المدة بليلة واحدة حتى لا يتاح للعروس إهلاك البركة في أبواب أخرى غير باب عريسها، وأكثر الأقدام قوة ونحافة تجدها عند قادة الأوركسترا والسقائين والنشالين والخطافين وسقاة المطاعم والنعام وأبو قردان والحمار الحصاوي وحصان الفوارس (أي قبل مرحلة جر العربات)،

وأكثرها بطئًا وتؤدة وهدوءًا أقدام السفراء والإوز والبغال ومسترقي السمع وجامعي الأخبار، أما أكثر الأقدام مرونة ورهافة ودقة ورقة فيملكها حواة استخراج الثعابين وراقصو الباليه ولصوص تسلق الحوائط وأبطال القفز الثلاثي والرباعي والخصيان من حرس النساء والثعالب وأبو فصادة واليمام والحمام الزاجل (الذي تخلو أقدامه من سراويل الريش) والمصابون بالأنيميا الحادة والشعراء الصعاليك (أمثال تأبط شرًّا والشنفري) والغزلان وكلاب الصيد.

وأضخم الأقدام عند المصابين بالنقرس والأفيال وأصحاب داء الفيل ومضحكي الكبراء ومديري مكاتب ذوي الشأن والفتوات وخدم المطاعم وأرامل الأثرياء والعاملين في عصارات القصب والسمسم وقراء المآتم وكبار رجال الشرطة وجمال الحقول (دون جمال الصحراء) والخرتيت والملك فاروق وعيدي أمين والخنزير، أما الذين أجسادهم ضخمة دون أقدامهم فمنهم «تشرشل» والخليفة عبد الملك بن مروان وكافور الإخشيدي والممثل «تشارلز لوتون» وكامل الشناوي وكلاب البوكر الألمانية والإمبراطورية العثمانية، أما الذين اشتهروا بصغر أقدامهم (الأقدام اليابانية) بما لا يتناسب مع حجم أجسادهم فمنهم بيرم التونسي وأم كلثوم وسندريلًّا والسلحفاة والطائر أبيس ومكرم عبيد و«ماوتسي تونج» وفاطمة رشدي و«جان دارك» والخبازون والعجانون، وهناك الذين يملكون أقدامًا عريضة تتناسب مع هياكلهم وتتجاوز مقاس ٤٤ مثل «ديجول» و«تاليران» و«ليندن جونسون» و«يوليوس قيصر» وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويحيى شاهين وعباس فارس و«إيف مونتان»

و«أنطوني كوين» وعبد المنعم القيسوني وعباس العقاد والملك عبد العزيز و«موسوليني» وجورج أبيض ويوسف وهبي ولا توجد من صنف النساء من تجاوزت قدمها هذا المقاس حيث لا يبحن بذلك.

وللقدم الأنثوية سحر معروف ينبع من جمالها الذي قد يكون ـ في معظم الحالات ـ صفة لكل الجسد، وأشهر جميلات الأقدام «مارلين ديتريش» و«مارلين مونرو» و«جريتا جاربو» وهند رستم أيام أن كانت هند رستم ونجلاء فتحي، هذا من ناحية الجمال الحسي البحت. أما من ناحية الجمال الناعم المنساب فنجده في أقدام راقصات الباليه، (لاحظ أننا ذكرنا قبلًا راقصي الباليه دون راقصاته) وأميرات الأساطير وحوريات النحل والفراشات والبنات الصغيرات قبل أن يكتشفن أنهن بنات.

وتشترك الأقدام مع الأكف في صنع الإيقاع الموسيقي، وفي الطرد من الوظائف، وفي صناعة الفخار، وفي الاعتداء على الخصوم، وفي إحداث الضجة المناسبة احتجاجًا أو شوشرة أو إثارة للفوضى، وعند ذلك يشترك الفم بالصفير أيضًا.

والأقدام إذا انضبطت حركة الجماعة فيها أصبحت هديرًا كما ترى في استعراض الجيوش ولها قوة ضغط قد تؤثر في المنشآت المائية، ولذا فإن التعليمات العسكرية تقضي بفك انضباط أقدام الجنود حين مرورهم على كوبري، اكتشف ذلك الألمان عند استيلائهم على ممر دانزج عام ١٩٣٩.

وكعوب الأقدام تحمل السمات الأساسية لجمالها، فإذا برز

العرقوب فسيتوازى معه بروز عظام الوجنتين واستدارة الرأس، ولذا فإن الكعب دخل الفولكلور في نصوص شعبية وصفته بأنه كعب الغزال لدقته ونعومته.

أما أكثر الأقدام وحشية وخطرًا فهي لسرطان البحر والعنكبوت والقط والفهد والصقر والنسر والمرأة التي تزوج عليها زوجها واللبؤة والجاموسة الهائجة والغول والغوريلا.

وإذا انسابت الموسيقى من الجسد إلى الأقدام، فهو الهيام، حيث يصبح من الصعب وقف الكائن عن الرقص أو التراقص.

وأكبر عيوب الأقدام الفلطحة، أو إصابتها بالتسوس (الغرغرينا)، أو الزوائد اللحمية، أو التورم، ويعد الملك أوديب الوحيد صاحب الأقدام المتورمة في التاريخ كله.

التاريخ [مرة أخرى]

التاريخ هو علم رصد الأحداث والمقالب والمواقع التي تتم في حياة فرد أو أمة، على أن يكون لهما شأن، والتاريخ الحقيقي ـ والفعل ـ يبدأ بالمقلب الذي شربه آدم وحواء في الجنة بسبب تفاحة أو ثعبان أو ورقة توت ـ أو شيء من هذا القبيل ـ وأدى بهما إلى كارثة نزولهما إلى الأرض، لكنه لا يلبث بعد حرب هابيل وقابيل أن يتلمس من بين البشر العديدين من يكون له حق في التاريخ، ومن يومها أصبح التاريخ بغلًا شرعيًّا للعلاقة المبكرة بين حصان الاجتماع وحمارة الجغرافيا. علم جبان خائر مداهن منافق لا تأتيه الشجاعة إلا بعد اندثار المواقع التي تحتاج إلى شجاعة، يرهب الحكام وذوي السلطة والمتآمرين ويعيش تحت إبطهم مستعذبًا الرائحة الكريهة، وهو أول علم يجيد التبرير والتعليل ومسح الجوخ، لكنه حين يصبح تاريخنا تاريخًا ـ كما حدث في الغرب ـ أي حين يدرك أن كل هؤلاء الذين يرهبهم يرهبونه أكثر ويرتعبون منه أكثر، يقف شامخًا قويًّا يفهم في الفلسفة والأخلاق والموسيقى ولا توجد

قصائد شعرية أو نثرية خطابية عند غير العرب تجعل التاريخ يزهو بنا ويفخر بنا ويحني رأسه لنا ويجر ماضينا وحاضرنا ويزحف بنا إلى المستقبل، أي أن تاريخنا ـ في معظمه ـ قصيدة فخر من الشعر الفاخر، لكن ذلك لا يمنع من ظهور مؤرخين لهم دراية بشكل أو بآخر بعلم التاريخ مثل الجاحظ والبصري وابن حزم، ثم هناك أبو عبيدة الذي يقال إنه كتب مائتي بحث في القبائل العربية وبطونها حتى ظهور الإسلام، وكان للمصريين القدماء مؤرخون مع أن الآثار المصرية هي أكبر كتاب تاريخ في التاريخ. ولعل الأجيال التالية أنجبت من لهم دراية أكثر وأعمق بعلم التاريخ مثل ابن الأثير ذي الأسلوب الرشيق في كتابه الضخم «الكامل»، ومقدمة ابن خلدون، وتجارب الأمم لابن مسكويه، والمقريزي صاحب الخطط، وابن إياس وابن تغري بردي ثم الجبرتي. أما شفيق غربال وعبد الرحيم مصطفى فهما من أشهر مدرسي التاريخ الحديث، في حين أن عبد الرحمن الرافعي راصد جيد للتاريخ المصري المحتوي على الثورات الثلاث عرابي و١٩١٩ و١٩٥٢، وقد أنقذ كثيرًا من أبطاله ومواقعه من مأزق ذي شقين: الأول وجهة نظر الوفد والثاني وجهة نظر الملوك، والتي تراها في أقصى تركيز عندما نفى عن عرابي ما ردده القصر «فلاح جلف» ونفى عن إسماعيل صدقي ما ردده الوفد «الخائن للشعب» ولو أنصت أصحاب الضمير لما نادى به إسماعيل صدقي من إصلاح الأداة الحكومية مبكرًا لكان للنظام الإداري المصري شأن في الثورة الإدارية العصرية.

وقد كبر التاريخ في السنوات العشرين الأخيرة وأصاب عيونه

كلل وزغللة، وفقد القدرة على اللماحية والاستقراء الذكي من كثرة انضوائه تحت سطوة أصحاب الغايات، وعجز عن ربط المقدمات والظواهر وصولًا إلى النتائج الصحيحة وفشل فشلًا ذريعًا في فهم وإدراك كثير من القضايا المؤثرة، وخذ مثلًا مسألة «كامب دافيد» التي اقتطعها منزوعة من جسد الأحداث وصنع لها جسدًا مبتورًا مستقلًّا. ولو كنت مؤرخًا ـ ودون نظر إلى عشرات الكتب الموافقة أو الرافضة لـ«كامب دافيد» ـ لرتبت منطق «كامب دافيد» كالآتي: فجأة ١ - يصبح أنور السادات نائبًا لعبد الناصر، وفجأة ٢- يموت جمال عبد الناصر ويمكنك وضع عشرين خطًّا تحت «يموت»، لأن عبد الناصر بتكوينه الخاص والقوي والصلب لا يمكن أن يخترق الأجواء العربية ليهبط في إسرائيل فيما بعد، وها هو الرئيس الجديد أنور السادات ٣- يغامر بحرب ٧٣ العظيمة ليصنع له رصيدًا تاريخيًّا يسمح له بالمغامرة القادمة الدفينة، ثم ها هو ٤- الملك فيصل بتكوينه الإسلامي القوي والصلب أيضًا يقود معركة البترول الموازية لعمليات ٧٣ العسكرية ليحدث النتائج التاريخية المبهرة والمؤثرة، بعدها ٥- يرفع الملك فيصل شعار القدس عربية، بل ويخطب في المسلمين واعدًا بأنه سيصلي بهم في بيت المقدس، أي في الوقت الذي يجاهدون لتسهيل الطرق أمام رحلة السادات إلى إسرائيل ـ يقتحم الطريق فجأة الملك فيصل، وفي مرونة ودقة ٦- يستحضرون شابًّا من أقارب الملك من سان فرانسيسكو ويعبرون به عرض القارة الأمريكية والمحيط وعرض القارة الأفريقية ليغتال بسهولة الملك فيصل في الرياض بصفته العائق الثاني في الرحلة المضمرة، بعد

أن خلا الجو من عبد الناصر وفيصل ٧- تصبح رحلة السادات إلى إسرائيل قابلة للتنفيذ، وبعد أن أدى السيد الرئيس أنور السادات الدور كاملًا في كامب دافيد ٨- أصبح ورقة مستهلكة، حيث ٩- تم إنهاء أمره وإخراجه من اللعبة، بعد ذلك تتالت الحوادث وتداعت الأحداث من اقتحام إسرائيل للبنان وضرب المفاعل الذري العراقي، كل ذلك يحدث سلسًا هادئًا لا فجوة بين مقدماته ونتائجه والتاريخ يقف بجوار الحائط يقضم أظافره كأي تلميذ لم يحل الواجب، ذلك لأن التاريخ حالة ذكاء إنساني في أقصى درجاتها، أي أنه يختلف بشكل جذري عن حكايات الأجداد ومسلسلات «سمارة» و«الثمن» وبدر البدور والأمير حسن الهلالي، وإلا ما استقال ثلاثة من وزراء الخارجية خلال كامب دافيد إسماعيل فهمي ومحمد رياض ومحمد إبراهيم كامل.

ولعل التاريخ يصبح تاريخًا حينما نعلي من قيمته ونضعه في مرتبة سامية دون الزج به في ملاعب الهواة وحلقات الدجل والجدل ودوائر النفس الأمارة بالسوء والسوق والتجارة، ذلك لأن التاريخ المنافق هش طري لا عماد له ولا قامة، انظر إليه في حالة السد العالي حينما احتمت به مصر من الجفاف لتسقط في بحيرته الأقاويل والشعارات التي وصفته بأنه (عمل شخصي لا مبرر له)، لقد كتبوا ذلك تحت أضواء الكهرباء المتألقة.

لكن ذلك لا يمنع أن يظل التاريخ أبو عين واحدة، الدجال، المنافق، هو أقوى من كل العلوم، ذلك لأنه يفترش أطنانًا من الورق، ويغفو في إرهاق بليد رافضًا أن يكون رجلًا مرة في حياته، ويشرح

لنا الآن ما يحدث لنا، مع أننا نعرف أسبابه ومقدماته وظواهره، دون حاجة إلى بغل التاريخ بصفته نتاجًا شرعيًّا بين حصان الاجتماع وحمارة الجغرافيا.

إنه.. الفرفور

ظللت أحاول أن أبتعد عن الفرفور: المعنى والسلوك والابتسامة النشطة والمريرة أيضًا، إلا إنه عاد قافزًا من جمجمتي مصممًا أن يظل لفظًا عاميًّا بعيدًا عن رصانة الفصحى، إنه ـ الفرفور ـ هو التشخيص المعملي اللغوي الساخر لذوي الدم الخفيف والحركات السريعة والتصرفات الطائشة الحمقاء ـ والحكمة التي لا خطر منها، إنهم ـ الفرافير ـ يعبرون عما يجول في خاطر ذوي الرزانة بالتعليقات الذكية اللماحة التي تكون شائكة في بعض الأحيان، قد استخدمه يوسف إدريس استخدامًا مباشرًا ليعبر في مسرحيته عما نتمنى أن نعلنه خارج المسرح، والتي قام فيها الصديق العزيز عبد السلام محمد بدوره الفرفوري الواخز المتطاير كالشرر، دون أن أدري أن الفرفور يحتل موقعًا ذا شأن في قواميس اللغة العربية، إنه الشاب الذي يبدو غلامًا أو رجلًا أو عجوزًا، والعصفور الصغير «الزقزوق»: إن الفعل فرفر يعني أسرع في خطوات متقاربة، وفرفر: طاش عقله، وسارع إلى الحماقة، وانطلقت الكلمات الشائكة من فمه، وخلَّط وأكثر في

اندفاع (ومنه جاءت كلمة فِرفِر ـ وتعني المدفع القصير أو المسدس الغليظ)، وفرفر الشيء شققه وحطمه، وفرفر الذئب الشاة: مزقها، أما إذا قام واحد ففرفر واحدًا آخر فإنه يكون قد نال من سيرته بما يشين العرض ـ أي عرَّض به، وتكلم فيما لا يصح عنه، وفي حديث نبوي رواه عون بن عبد الله «ما رأيت رجلًا يفرفر الدنيا فرفرة هذا الأعرج»، أي يذمها ويمزقها بالذم والوقيعة فهو فرفار: أي يعلو على شأن الحياة الدنيا ضيق الصدر بها، ويتسع أمر الفرفور إلى ولد المعزة والنعجة والبقرة بما يتسم به من تقافز طائش أخرق، وهو ما تتصف به أنواع من ذوي الدم الخفيف مثيري المرح: شيبوب أخو عنترة بن شداد كمثال، وجميع الأفراد الذين يعيشون في ظلال الأبطال ليكونوا الجواب الساخر في القرار الصادر من ذوي البأس: في المسرح والسينما والروايات المكتوبة أو المنقولة شفاهيًّا. لكن الأمر يتجاوز هذا المعنى عندما يصل فعل الفرفرة إلى الأسد ـ دون معاون له ـ لينفرد بصيده من الغزلان فيمزقها، دون أن يحس اللغويون بحرج حينما يضفون على الحمل ـ الخروف أو الجدي الصغير ـ صفة الفرفرة خروجًا عن السلوك الطائش المتقافز ليعنوا أن الحمل ـ في هذه المرة ـ فرفر: أي سمن واستكرش (أصبح ذا كرش) ووصل إلى مرحلة الإخصاب، بعد ذلك تصيب الفرفرة علم النبات ليصبح الفرفار اسمًا لشجر صلب قادر على تحمل النيران فتؤخذ من خشبه القصاع (جمع قصعة)، كما أن الفرفار مركب من المراكب يخصص للنساء فقط، فإذا انكسر الفرفار أو الفرفور ليصبح فرفيرًا فإنما هو نوع من الألوان الحمراء القانية جدًّا، ويمكنك أن تقتني الجوهر

الفرفيري، الذي قد يقودنا إلى أنواع من الفرفرة تضيق بها الفصحى ونهمس بها في اللغات واللهجات الشعبية أثناء المطاردة المرحة والساخنة بين عاشقين قد تتاح لهم فرصة الفرفرة، والتي ننظر إليها بنصف عين ودون أن نخفي ما في القلب من رغبة جامحة نتوقف عنها الآن، حتى لو فاتنا أن ننبه أن في مصر واحة الفرافرة ذات الهواء الجميل والسكون الرقيق الذي لا يحول بينك وبين مشاهد متوالية لفرفير المراعي من غزلان وماعز وشياه، دون أن تدري أنك ـ أيضًا ـ فرفور مكتوم الصدر بالرصانة.

مختارات الكرمة

١ . مليم الأكبر ـ عادل كامل
٢ . دنقلا ـ إدريس علي
٣ . مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي
٤ . الشبكة ـ شريف حتاتة
٥ . الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ
٦ . النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم
٧ . ملك من شعاع ـ عادل كامل
٨ . إجازة تفرغ ـ بدر الديب
٩ . رابعة ثالث ـ علي الشوباشي
١٠ . رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم
١١ . الرحلة (الجزء الأول) ـ فكري الخولي
١٢ . الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) ـ فكري الخولي
١٣ . حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب
١٤ . الباب المفتوح ـ لطيفة الزيات
١٥ . أوراق شخصية ـ لطيفة الزيات
١٦ . الشمندورة ـ محمد خليل قاسم
١٧ . بيت سري ـ عثمان صبري

١٨. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري
١٩. صدمة طائر غريب ـ كمال القلش
٢٠. صاحب البيت ـ لطيفة الزيات
٢١. الوسية (ثلاثية «الوسية» ١) ـ خليل حسن خليل
٢٢. الوارثون (ثلاثية «الوسية» ٢) ـ خليل حسن خليل
٢٣. السلطنة (ثلاثية «الوسية» ٣) ـ خليل حسن خليل
٢٤. قاهر الزمن ـ نهاد شريف
٢٥. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الأول: الإنسان ـ محمد مستجاب
٢٦. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثاني: الكائنات ـ محمد مستجاب
٢٧. نبش الغراب في واحة العربي. الجزء الثالث: الأشياء ـ محمد مستجاب
٢٨. ليلة القبض على فاطمة ـ سكينة فؤاد

«أحيانًا يُذكِّرني صديقي محمد مستجاب بالسحرة»

صبري موسى

«كتاباته مراوغة في المعالجة والسخرية، والواقعية السحرية خصوصية لا ينافسه فيها أحد»

د. جابر عصفور

«محمد مستجاب واحد من أهم كُتَّاب جيل الستينيات»

د. طه وادي

«عالم خاص وجديد يحمله محمد مستجاب... يحاول في إصرار وصلابة كسر الدائرة الضيقة للموضوع الأدبي وللشكل الأدبي»

علاء الديب

«محمد مستجاب حالة إبداعية خاصة على خارطة الإبداع المصري والعربي، فكتاباته تسلك مسلكًا خاصًا في لغتها وأسلوبها وتقنياتها وطرائق المعالجة وجرأة مضامينها، ما يجعلها متوهجة وقادرة على الإمساك بتلابيب القارئ دومًا، حيث المتعة الفنية، والإثارة الجمالية، والمفارقة الساخرة، والمفاجأة الصادمة، والنكتة البليغة»

محمد الحمامصي، جريدة السفير

«محمد مستجاب يذهب إلى أعمق من الخرافة أو الحكاية الشعبية، إنه يذهب إلى جذر الأسطورة نفسها»

د. شكري محمد عياد

هذا هو الجزء الأول من المجموعة الكاملة لمقالات محمد مستجاب البديعة في واحة العربي، ويتناول فيه بذكائه الشديد ووجهة نظره المتفردة وقلمه السلس، عالم الإنسان وأعضاءه وأحواله.

كما يحتوي الكتاب على حِكمه الساخرة التي كان ينشرها مع كل مقالة.



محمد مستجاب (١٩٣٨-٢٠٠٥) أديب مصري. ولد في جنوب مصر. عمل في العديد من المهن، فاكتسب خبرة حياتية عميقة وواسعة، انعكست على كتاباته وأسلوبه.

نشر أول قصة قصيرة عام ١٩٦٩، فجذب إليه الأنظار. صدرت له ثلاث روايات وست مجموعات قصصية وأربعة عشر كتابًا، جمعت أغلب مقالاته الأدبية التي نُشرت في المجلات والجرائد، ومن أشهرها «نبش الغراب في واحة العربي» في مجلة العربي الكويتية.

تُرجمت قصصه إلى عدة لغات، وحُوِّلت إحدى قصصه إلى فيلم سينمائي عنوانه «الفاس في الراس».

حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٤ عن روايته الأولى «من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ»، ووسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية.

